عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

صدرت السلسلة في يناير 1978 بإشراف أحمد مشاري العدواني 1923-1990

268

اليابان

رؤية جديدة

تأليف: باتريك سميث

ترجمة: سعد زهران

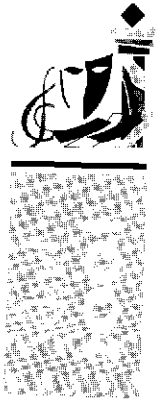

العنوان الأصلي للكتاب

Japan,

A Reinterpretation

by

Patrick Smith

Vintage Books, A Division of Random House, Inc.
New York (1998)

طبع من هذا الكتاب أربعون ألف نسخة

مطابع الوطن ـ الكويت

أبريل ٢٠٠١ ـ المحرم ١٤٢٢

المحتوى

مدخل 7

الجزء الأول:

بينهم وبين أنفسهم 13

الفصل الأول:

الياباني الخفي 15

الفصل الثاني:

التاريخ المخبأ 59

الفصل الثالث:

تنشئة النيهونجين 103

الفصل الرابع:

أسوار في القلوب 145

الفصل الخامس:

السعادة في ركن خفي 187

الفصل السادس:

«الأسمنت» والديموقراطية 223

مدخل

في أوائل التسعينيات، قامت عشر شركات صغيرة تشتغل بإنتاج الآلات في مقاطعة توكوشيما، وهي منطقة ريفية في جزيرة شكوكو، قامت بالكشف عن منتج غير عادي. حيث اشتركت في استخدام الإنسان الآلي (الروبوت) لتقديم عروض روبوتية مأخوذة عن مسرح العرائس الياباني التقليدي القديم. وأنتج نموذج، ووضع تصميم لمجموعة من الشخصيات. كل منها يتركب من حوالى خمسمائة قطعة. وبُرمجت الروبوتات الصغيرة وهي في ملابسها التقليدية لتؤدي كل الحركات المطلوب أداؤها من أول العرض المسرحي إلى آخره.

شد انتباهي شيء ما في عرائس توكوشيما. هذه جيشا روبوتية تلبس الكيمونو. أو هذا ساموراي إلكتروني يشهر سيفه ويعقص شعره، يقولان بالتأكيد شيئا عن الأسلوب الذي تتطور به اليابان، عن العلاقة بين ماضيها ومستقبلها. بعد قليل ذكرتني هذه الشخصيات الروبوتية بالفقرة الاستهلالية في واحد من أهم الكتب

انفتل الغطاء
ولم يعد ملائما للصندوق
بونشو
«قمر الصيف»، ١٦٩٠

هذين المشروعين، على الرغم من كل ما حققاه، يجب اعتبارهما فاشلين. انتهى المشروع الأول إلى تهور مأساوي. أما المشروع الثاني فيظل نوعا من الفشل غير المعلن، ولا تسمح لغة الحوار المقبولة بيننا بالاعتراف بذلك.

بعد قرن وربع القرن، تحقق حلم الميجي في أثناء ثمانينيات القرن العشرين، أصبحت اليابان ندا للغرب، وأصبح عليها أن تكتشف شيئا آخر، طموحا جديدا يدفعها إلى الأمام. ثم انتهت الحرب الباردة، وانتهت معها كل مسلمات العقود الأربعة السابقة، وأصبح على اليابان أن تبدأ في اتخاذ قراراتها بنفسها، في عالم أكثر تعقيدا. وبين هذا وذاك حدث تطور خطير ثالث: مات الإمبراطور. كان هيروهيتو قد تولى أمر اليابان طوال اثنين وستين عاما من العسكرة إلى الحرب والفتوحات، والهزيمة، والنهوض، وأخيرا الوفرة. وتسبب وجوده المتواصل لسنوات طويلة في حبس اليابانيين في الماضي، وجعلهم غير قادرين على رؤيته بوضوح، وعاجزين عن وضع التاريخ والتراث في مواضعهما المناسبة.

عاش اليابانيون زمانا من القلق الملموس، ولا يزالون، تحت ضغط ضرورات قهرية: الإمبراطور، والاقتصاد، لما يقرب من قرن... ثم بعد ١٩٤٥، الاقتصاد والمكان الثابت المحدد لهم في النظام العالمي لما بعد الحرب. والآن، لا توجد ضرورات قهرية، ولا ثبات لمكان أو شيء، ويحاط كل من الماضي والمستقبل بعلامات الاستفهام. وبالنسبة لمراسل صحافي، فإن إدارة مكتب في طوكيو كانت مهمة ثقيلة أقرب إلى الكابوس، حيث يطالب المرء بتغطية أخبار بلد لا جديد فيها. ثم بدا وكأن كل شيء يتغير. لم يعد أحد قادرا على التنبؤ بما سيحدث في اللحظات التالية. ولم يعد أحد قادرا على تفسير ما حدث في اليوم السابق تفسيرا مقنعا. لقد بدأت أمور لا يستطيع أحد أن يفهمها على حقيقتها. من المؤكد أن التحولات التي حدثت في الاقتصاد والسياسة مع انتهاء أحد العصور الإمبراطورية الكبيرة، كانت تعتبر تغيرات مهمة في حد ذاتها، ولكن بمرور الوقت اتضح أنها، على أفضل تقدير، يمكن أن تعتبر إما حوافز وإما انعكاسات لتغيير أكثر عمقا، تغيير في الوعي. ويبدو لي أنه من خلال هذا التغيير، سيوضع التاريخ والتقاليد والتراث في أماكنها المناسبة في اليابان، ويتصالح ما هو عصري مع ما هو تقليدي.

من الشيء المطلوب إلى أقصى درجة ممكنة، من دون تحقيق الإشباع الكامل. لا شيء يصل إلى نهايته، ويظل الآخر هو الآخر أبدا. ويبدو كأن الحلم أكثر متعة من تحقيقه.

وإنها لفكرة مقلقة، توحي بأن اليابانيين يرتضون تعليق نفوسهم في حالة صيرورة مستمرة، وكأنهم صدور أمواج مشرعة، احتجزت صاعدة إلى الأبد في لوحات الحفر الخشبي للقرن التاسع عشر. ولكن هذه المقارنة لا تصلح إلا إذا شابهنا بين الإنسان الياباني والعمل الفني، بالتقليد وليس بالشيء الأصلي. وفي الحياة ـ في الزمان والتاريخ ـ نرى الأمواج المشرعة المرسومة في لوحات الحفر الخشبي، على وشك الوصول إلى الشاطئ.

الجزء الأول

بينهم وبين أنفسهم

ماخوذا بها حتى الان (المترجم).

يبيضن أسنانهن، بينما النساء اليابانيات يسودنها. اليابان كانت هي الكون معكوسا، مستسلما أبدا، خانعا أبدا. في مناسبة أخرى كتب اليسوعي قائلا: «الناس شديدو الإذعان لآلامهم وضوائقهم، غير أنهم يعيشون في هدوء، سعداء ببؤسهم وفقرهم». وسأل فرانسيس زافيير Francis Xavier، الذي جاء إلى اليابان في ١٥٤٩: لماذا لا يكتب اليابانيون «بطريقتنا» ـ من اليسار إلى اليمين، أفقيا؟ فأجابه الدليل الياباني بسؤال كان يمكن أن يفيد فرانسيس، لو أتعب نفسه في فهم مضمونه. والسؤال هو: لماذا لا يكتب الأوروبيون بالطريقة اليابانية، من اليمين إلى اليسار، ومن أعلى إلى أسفل؟

غير أن ملاحظات الأوروبيين في القرن السادس عشر لم تكن اختراعا خالصا. فالمرأة وفقا للتقاليداليابانية كانت تسود أسنانها بالفعل. ومن الثابت أن هناك حالة إذعان بين اليابانيين اليوم كما كانت كان الحال حينذاك. ومن الملاحظات الغريبة التي استحوذت على هؤلاء الزوار الأوائل، ولم يملوا من ذكرها، أن الأقفال اليابانية كانت وما تزال تفتح بإدارة المفتاح إلى اليسار، وليس (كما في الغرب) إلى اليمين. ولكن ما الذي يجعل هذه الملاحظات مضحكة، وإن كانت بغير بهجة؟ ولماذا توصلوا إلى تلك الأفكار ـ التي عاشت على الزمن ـ عن بلد يعمره هؤلاء الأقزام الغامضون؟ من وجهة نظرنا، بعد مرور كل هذا الوقت، كان ذلك مجرد فشل في القدرة على الرؤية من المنظور الصحيح. لم يربط الرحالة الأوائل بين ملاحظاتهم المختلفة كما يجب؛ حيث لم يعترفوا لليابانيين، بتاريخ لهم، إن صح التعبير، لم يُسمح لهم بماضٍ يمكن من خلاله تفسير أوجه للاختلاف كبيرة كانت أم صغيرة.

الاستشراق وليد الإمبراطوريات. وإحدى سماته تتعلق بموقع المراقِب من المراقَب: حيث الأول دائما في وضع أسمى من الآخر. وكما يؤكد إدوارد سعيد في كتابه «الاستشراق» كانت الأعراف الفكرية انعكاسا للعلاقات القائمة على السلطة والمكاسب المادية. ومن ثم وصل الاستشراق إلى الذروة في بريطانيا وفرنسا، حيث وُجد أكبر بناة الإمبراطوريات في القرن التاسع عشر. غير أن اليابان لم تكن رسميا جزءا من إمبراطورية أحد، ولكنها لم تفلت من النظرة الاستشراقية المرتبطة بالممتلكات الإمبراطورية. فكانت علاقاتها بأوروبا قائمة على المصالح المادية نفسها، موسومة بالنظرة الاستعلائية الأوروبية نفسها.

أمريكا بعد ١٩٤٥. في مرحلة ما بعد الحرب، كان «القرن الأمريكي» قد بلغ الذروة، ولم يكن كذلك بقدر ما كان في المحيط الهادي - ووصل في اليابان إلى أقصى درجاته. كان احتلال الحلفاء لليابان من ١٩٤٥ إلى ١٩٥٢ احتلالا رسميا فحسب. وكان الجنرال دوجلاس ماك آرثر يسمى القائد الأعلى لقوات الحلفاء، لكن مقر أركان حربه لم يكن إلا أحد المواقع الحربية الأمريكية المتقدمة. كذلك يفهم أي ياباني اليوم أن الأمريكيين هم الذين يحددون مسيرة اليابان فيما بعد الحرب.

قامت أمريكا بتطوير طبعتها الخاصة من الاستشراق بعدالحرب العالمية الثانية. إننا لم نثبت صورة اليابان واليابانيين في أذهاننا كنوع خاص من البلدان التي يسكنها شعب خاص فحسب، ولكننا أيضا واصلنا اختراع صورة البلد والناس الذين تخيلناهم. لم تنهض أمريكا بهذا العمل وحدها، طبعا. ولكن أمريكا عمدت دون أن تهتز لها أي مشاعر إلى التماس مساعدة هؤلاء الذين قادوا اليابان إلى الحرب ضد جنودها. وقد اعتاد البريطانيون أن يسموا هذا أسلوبا للحكم غير المباشر، وطبقوه أساسا في ممتلكاتهم الأفريقية.ووجد الأمريكيون أن هذا يناسبهم تماما في اليابان، ذلك لأن القوى المحافظة في طوكيو قبل الحرب كانوا أنفسهم مستشرقين متمرسين، وفعلوا الكثير لمساندة أمريكا في إعادة اختراع بلادهم.

ولا تزال صورة اليابان التي صُنعت بعد الحرب مقبولة على نطاق واسع. وهي تنعكس في معاملة واشنطن لطوكيو، التي تشبه الطريقة التي تعامل بها القوى الاستعمارية بلدا تابعا؛ والصورة أكثر انتشارا، كما يتضح من الطريقة التي يفكر بها الأمريكيون العاديون في اليابان واليابانيين. لقد تجاوزت صورتنا (الأمريكية) عن «اليابان»، وإن لم يكن نهائيا - تجاوزت الكيمونو وقبعات القش المخروطية، فما زلنا متشبثين باليابان المحاطة بعلامات التنصيص. وفي سنوات ١٩٧٠ اتجهنا إلى تسمية يابانا الخيالية بـ: «Japan Inc.» (شركة اليابان المتحدة)(*) - أمة بكاملها صُبّت في قالب شركة متحدة، وأهلها مستخدمون لا مواطنون. وما تزال هذه الفكرة عن اليابان مأخوذا بها في الغرب كفكرة أصيلة.

(*) تعني .Inc شركة كبرى متحدة، وهي لاحقة ترفق بأسماء الشركات الكبرى، والمقصود بـ .Japan Inc، كما سيتضح في السياق، هو تشبيه الأمريكيين لليابان اختصارا بشركة كبرى متحدة (المترجم).

بدأ الأمريكيون احتلالهم لليابان بخطة طموح لإعادة صياغة اليابانيين - لإعادة صنعهم على الصورة الأمريكية - وانتهوا باستعادة الأشياء نفسها والأشخاص أنفسهم الذين جاءوا للقضاء عليهم واجتثاث جذورهم. كانت البداية مستمدة من النوايا الحسنة التي قام عليها البرنامج الجديد New Deal(*)، أما النهاية فقد قامت على حسابات عالم الحرب الباردة، غير أن ثمة سمة واحدة مشتركة تجمع بين هذين النقيضين: تلك هي أن المحتلين الأمريكيين لم يحاولوا أن يروا في اليابان شيئا غير انعكاس لأنفسهم.

وصلت الأوامر الأولية للاحتلال من واشنطن في خريف ١٩٤٥. وكانت تتميز بالاندفاع والمثالية. فلم يكن مركز أركان حرب ماك آرثر ليقدم على شيء أقل من تحرير اليابانيين من عبء ماضيهم، ومن سدنة الحكم المطلق الذين استخدموا بقايا الإقطاع لدفع اليابان إلى الكارثة. وكان الاحتلال يهدف إلى «مقرطة» اليابان سياسيا (أي جعلها تسلك سبيل الديموقراطية)، وأن تقيم هيكلا اقتصاديا لتحقيق: «إعادة توزيع شامل للدخل وملكية وسائل الإنتاج والتجارة». لم تكن تلك اللغة التي يتوقعها المرء من واشنطن، غير أن عصر الرسالة الاجتماعية للرئيس روزفلت كان قد زحف ليصل إلى سنوات الحرب، وظلت مفرداته اللغوية هي الأنسب لاستخدام المبشرين برسالة روزفلت، الذين كانوا يعملون في مقر أركان الحرب. وأرادوا أن يغيروا كل شيء في اليابانيين - قلوبهم وعقولهم وأرواحهم. وامتد ذلك خارج الإطار الحكومي بإدخال موائد البلياردو وحلقات الرقص ولعبة البولينج وفرق الجاز الكبيرة، لأن من شأن هذا كله أن يجعل اليابانيين شعبا أكثر سعادة وأحسن حالا. كتب أحد مسؤولي الاحتلال في مذكراته: «إن المرء ليرتجف، حين يتذكر أن تلك كانت رؤية أمريكية».

ومن المعروف جيدا أن أول جنود وصلوا إلى اليابان بعد ١٥ أغسطس ١٩٤٥، صدموا من طريقة استقبالهم، فالشعب الذي كان يبدو مستعدا للموت من أجل الإمبراطور قبل بضعة أيام يحيون الغزاة بارتياح يقارب الفرحة. فلماذا؟ هل لأن اليابانيين ليس لديهم أخلاق، أو صدق، أو قناعات؟ أو لأنه كما أخبرني صديق ياباني ذات مرة: «إن مبدأنا الوحيد هو أننا ليست لدينا مبادئ»؟

(*) برنامج تشريعي وإداري وضعه الرئيس فرانكلين روزفلت ابتغاء الإنعاش الاقتصادي والاجتماعي الديموقراطي خلال العقد الرابع من هذا القرن (عن قاموس المورد - المترجم).

و١٩٩٦: إذ جعلوا للرئيس الديموقراطي أغلبيتين جمهوريتين في مجلسي الكونجرس. ولم تكن أمريكا موحدة الفكر أبدا فيما يتعلق بالطريقة التي تعاد بها صياغة اليابان. فقد كان دائما ثمة نسبة معتبرة من الناخبين الأمريكيين مقتنعة بأن اليابان «خطر أصفر». وأنها، إن لم تعد تتمتع بالمشاركة مع الفاشيين الأوروبيين، يمكن بالسهولة نفسها أن تتحول يسارا إلى الشيوعية. وقد جاءت انتخابات١٩٤٦ لتقلب الموازين في أمريكا أولا، ثم في طوكيو. ويسمي اليابانيون الأحداث التي تلت هذه الانتخابات «الطريق المضاد The reverse course»، وكما يلمح هذا الاختصار، كان التغيير في الأولويات الأمريكية هو الأساس.

بدأ الطريق المضاد العام ١٩٤٧، عندما طُهِّر مركز أركان الحرب (لقوات الاحتلال) بطرد جميع المبشرين برسالة روزفلت والبرنامج الجديد، وإحلال عدد من الماليين المحافظين، والمنظرين المعادين للشيوعية مكانهم. وبعد مرور العام أصبح الطريق المضاد سياسة رسمية وصلت في شكل توجيه من مجلس الأمن القومي الأمريكي حرره جورج كينان George Kennan المهندس الأشهر لسياسة احتواء الشيوعية. وهذا التوجيه، (الوثيقة المرقمة N. S. C. 13/2)، الذي كان له مظهر متواضع بقدر ما هو بالغ الأهمية، جلب الحرب الباردة إلى اليابان. وفي العام التالي دخلت قوات ماوتسي تونج بكين، وبعد سنة أخرى بدأت الحرب الكورية. وفعلت هذه الأحداث فعلها، أنهت إصلاحات ما بعد الحرب الأصلية، وحددت أقدار اليابانيين طيلة الأربعين عاما التالية.

نبذ توجيه مجلس الأمن القومي الأمريكي (الوثيقة المرقمة N. S. C. 13/2) الإصلاح لمصلحة الإنعاش الاقتصادي والاستقرار باعتباره الهدف المقدس لعصر الحرب الباردة. ودعا إلى «**زيادة الصادرات بالعمل الشاق الدؤوب**»، وتلك عبارة تدعو إلى النظر بعيدا، وإن كانت لغة الوثيقة التوجيهية لا تنقل مدى العمق الذي غيرت به اليابان ما بعد الحرب التي كان يجري صياغتها بدأب. كان لابد من التضحية بكل شيء من أجل عملية الاحتواء. توقفت عمليات تطهير الجناح اليميني للقوميين اليابانيين، وبدأت عمليات التخلص من المصنفين كأعداء للمصالح الأمريكية، أوقفت الجهود التي كانت تبذل لتفتيت الـ «زايباتسو» zaibatsu، (وهي تركيبات شبه عائلية، كانت هي التي وقفت خلف التوسع الياباني في القارة الآسيوية، ثم قامت في وقت لاحق

ماروياما Massao Maruyama أن الديموقراطية اليابانية ليست إلا أسطورة لا تستحق الدفاع عنها. وبعد النهج العكسي أحس هؤلاء الذين تطلعوا بأمل نحو الأمريكيين، أحسوا تجاههم بالغربة والخيانة، بينما أولئك الذين كانوا حتى الأمس القريب يحتقرون المنتصرين وجدوا فيهم حليفا في سعيهم لاستعادة السلطة. وفي أيامنا هذه، لا يوجد إلا عدد قليل من اليابانيين ممن لم تتأثر مشاعرهم نحو أمريكا بالمفارقات التي ولدتها تلك اللحظة: الإعجاب والكراهية، الاحترام وفقدان الثقة.

تغزل أمريكا كثيرا من الأساطير عن طريقة أدائها في يابان ما بعد الحرب. وقد كتب أحد المحللين الأمريكيين: «باعتبار ما كان يمكن أن يكون، أثبت الاحتلال الأمريكي أنه، في جملته، تجربة إيجابية بشكل مدهش لكل من المنتصر والمهزوم». كُتبت هذه العبارة العام ١٩٨٧؛ وهي نمطية على الطريقة الأمريكية في رواية ما حدث منذ انتهى الاحتلال. ولكن الدعوة إلى التفكير في «ما كان يمكن أن يكون» دعوة مخادعة. إذ إنه بقبولنا لهذه الدعوة على وجه التحديد ـ أي أن نفكر فيما كان يمكن أن يحدث ـ سيكون احتلالنا لليابان قد قُيِّم تقييما أدنى، لأنه بهذا المعنى كان يمكن أن يحقق أكثر كثيرا مما آلت إليه الأمور بالفعل. وما الذي آلت إليه الأمور؟ الإجابة عن هذا السؤال سهلة، لأن اليابان التي نراها اليوم هي نفسها التي صنعتها أمريكا بعد الحرب: فساد مستشر، سيطرة السوق تتملك كل شيء، مدمرة بيئيا، الفردية فيها تختنق، متعثرة سياسيا، بلا قيادة، عاجزة عن اتخاذ القرارات.

كيف حدث أن ظلت اليابان متجمدة في مثل هذه الحال لمدة خمسة عقود كاملة؟ توجد الإجابة في وثيقتين. الأولى هي الدستور الذي كُتب تحت إشراف الجنرال ماك آرثر وأصبح قانونا في ١٩٤٧. وأشهر مواده، البند ٩، يعطيه الاسم الذي عرف به هذا القانون ـ دستور السلام ـ لأنه منع اليابان من تكوين جيش وحَصَرَ النشاط العسكري في الدفاع عن حدودها الطبيعية. والثانية هي اتفاقية الأمن security Treaty التي وُقِّعت في العام ١٩٥١، ووُضعت في التطبيق في العام التالي. هذه المعاهدة وضعت اليابان تحت الحماية العسكرية الأمريكية. وكان الأمريكيون مسؤولين عن هاتين الوثيقتين، والجدير ملاحظته أنهما وُجدتا جنبا إلى جنب، تشكلان معا استعراضا للقوة في الفصام السياسي والديبلوماسي، وهو المرض الذي لم تُشفَ اليابان منه حتى اليوم.

يدعموها، حيث إنهم كرهوا فكرة الهيمنة الأمريكية. ولم يكفّ ماك آرثر أبدا عن الدفاع عن الدستور الذي منحه لليابان، وفي ذلك فإن ماك آرثر يرضي غرور ماك آرثر: حيث أراد أن يبقي على ذكرى مميزة للنموذج الإداري والدستوري الذي أدار به الدفاع عن الفليبين في ١٩٣٥.

حدث تناقض متعاظم بين دستور السلام والدور الذي أوكل إلى اليابان في الحرب الباردة. وكان من المنطقي، لكي يلتف ماك آرثر ويوشيدا حول هذا التناقض: أن يتجاهلاه، ومن ثم بدأت شيزوفرينيا يابان ما بعد الحرب. كانت اليابان بالقانون قد اختارت النهج السلمي، ولكنها بحكم اتفاقية الدفاع المشترك (وفي الواقع العملي) كانت حامل الحربة في الحرب الصليبية ضد الشيوعيين. وما أن سُحب اليابانيون إلى الحرب الباردة، حتى جرى تفريغ المركز السياسي، كان من الناخبين من يؤيد الدستور الذي جاءت به أمريكا، ومعنى ذلك معارضة أمريكا؛ ومنهم من أيد العبث بهذا الدستور، وبذلك كان يرضي الدولة التي جاءت به. ويسمى اليابانيون المعادلة السياسية التي كرست هذه المفارقات «نظام ١٩٥٥». وفي خريف تلك السنة عاد الاشتراكيون(*) إلى الاتحاد بعد سنوات عدة من الصراع الداخلي. وكرد فعل، اتحد الحزبان الكبيران المحافظان ليصبحا الحزب الديموقراطي الليبرالي، الذي أبقى على حكم النخبة القديمة راسخا طيلة الثمانية والثلاثين عاما التالية.

ومن خلال نظام ١٩٥٥ مارست أمريكا سيطرة هائلة على اليابان بعد انتهاء الاحتلال، كما لا تزال تفعل حتى أيامنا هذه. صاغت طوكيو عددا قليلا من القرارات المتعلقة بالسياسة الخارجية من دون موافقة واشنطن ـ ليس من بينها قرار واحد قبل سبعينيات القرن العشرين ـ وقد درجت اليابان على تأييد الأهداف الأمريكية حتى لو كانت تتعارض مع المصالح اليابانية. ونحن نتظاهر بأننا مقتنعون بأن اليابان دولة مستقلة، لكنها ـ أساسا ـ ليست إلا محمية عسكرية، وهو أمر يدركه اليابانيون كما تدركه غالبية الأمم الأخرى إلا الأمريكيين. وتوسع النفوذ الأمريكي في الداخل أيضا. فقد فعلت أمريكا في اليابان بعد الاحتلال ما كانت تفعله في كثير من دول العالم الثالث أثناء الحرب الباردة على مدى حوالى عشرين عاما: حيث قدمت دعما نشيطا، وإن يكن غير معلن، للنخبة السياسية التي كانت قد أعادتها إلى السلطة العام

(*) والآن يسمى بحزب الاشتراكيين الديموقراطيين.

نتخذ هذه الأفعال السرية إضافة إلى النهج العكسي، مقياسا لمدى الأهمية التي كانت تعلقها أمريكا على نموذج لآلية ديموقراطية في اليابان، والنظرة التي كانت تنظرها إلى الشعب الياباني. كان هذا شبيها بالمنطق الذي استخدم أثناء الحرب الفيتنامية، حيث كنا نحرق القرى من أجل إنقاذها: فنحن هنا نقلب الديموقراطية من أجل إنقاذها.

* * *

لا يرى الأمريكيون أنفسهم مخربين للعملية الديموقراطية في البلاد الأخرى. فتدمير اختيارات شعب آخر هو ما كان السوفييت يفعلونه في شرق أوروبا. وهذه صورة عن أنفسنا رأينا أن نضيع معالمها، ولكن غالبية الدول الأخرى، حتى أصدقائنا، كانت تراعى قواعد الأدب معنا دائما، دون أن يكونوا مخدوعين. من الصعب بالنسبة لنا أن نواجه هذا الجانب من ماضينا القريب، ولكن بانتهاء الحرب الباردة، سيتحتم علينا مواجهته إن عاجلا أو آجلا.

إن العادة الأمريكية للنفاق والخداع كانت تعكس المأزق الجوهري للحرب الباردة: الفجوة بين الواقع والمثالي، بين ظواهر الأمور وحقيقتها. لكن المسافة بين الاثنين مألوفة لليابانيين: فقد أنتجت الحرب الباردة مجرد طبعة جديدة من الفجوة بين «اليابان» (بين علامتي التنصيص) واليابان، وهي مفارقة ألفها اليابانيون في حياتهم طويلا. هذا التواؤم الشرطي بالإضافة إلى الاعتمادات المالية الخفية التي تقدر بالملايين هما السبب في أن الحرب الباردة، بعد أن غصت بها الحلوق لفترة أولية وجيزة، بدت سهلة الابتلاع برغم مذاقها المر. وثمة قول مأثور يردده اليابانيون منذ القدم يساعدهم على التعايش مع إحباطاتهم، وهو: «شيو جا ناي» **Shiyo ga nai**، أي هذا أمر لا حيلة لنا فيه. والحقيقة أن هذه العبارة لا تنطبق إلا بوتيرة أقل كثيرا مما يعتقد اليابانيون، وإن كانت تعبر عن مشاعر أعتبرها من أعمق مكنوناتهم: **شدة الرغبة مع انعدام الأمل**. وكانت تلك مشاعرهم وهم يشاهدون أمريكا تدمر تجربتهم في مرحلة ما بعد الحرب.

وعلى الرغم من ذلك، فلم يكن يكفي أن اليابان كانت هي القاعدة الأمامية لأمريكا في المحيط الهادي، كما وصفها جورج كينان في توجيه مجلس الأمن القومي الأمريكي (N. S. C. 13/2) - وكما سيقول قائد ياباني فيما بعد: «حاملة طائرات لا يمكن إغراقها». كان على اليابان أن تبدو في مظهر معين،

على الممارسات والعادات الإقطاعية لمنع تطور الديموقراطية والأنساق الاجتماعية الحديثة. أغرقت القيادة الدولة بمشاعر الكراهية للأجانب والروح العسكرية لتعزيز طموحاتها الإمبريالية. وفوق كل شيء، كان هناك الكثير من المعارضة والانشقاقات ـ وبالنسبة نفسها، الكثير من العنف في إخمادها، وظلت هذه هي حقائق التاريخ المألوفة حتى بدأت أمريكا تهتم بالصورة التي تظهر بها اليابان للآخرين. وكانت هذه الحقائق هي التي خاض الحلفاء الحرب بشأنها. تلك الحقائق التي كانت قد رُسِّخت بواسطة جيل من الباحثين كرسوا جهودهم لفهم الطريق المضطرب المعقد الذي اتبعته اليابان في عملية التحديث.

دُفعت هذه الحقائق إلى الظل، لكي تتمكن أمريكا من تبرير صورة «يابانها» ـ أي تلك اليابان التي كان قد أعيد تجميع قطع (أو قصاقيص) ماضيها لتخدم الأهداف الحديثة. فما كان ينظر إليه حتى الأمس القريب كممارسات إقطاعية ثقيلة وبغيضة، أصبح هو «التقاليد». وتجسدت التقاليد في الإمبراطور، وهو الرجل الطيب الذي وقف ضد الحرب. وكانت التقاليد هي التي تقدم كتفسير لما يسمى فضيلة العمل التي يتحلى بها اليابانيون، صبرهم على ظروف الحياة الفقيرة، إذعانهم للسلطة بسهولة. هكذا يسود الانسجام والإجماع العام. وأما التوتُّر والنزاعات الأهلية فهي أمور غريبة، لأن اليابانيين قوم متواضعون ميالون إلى التنازل في كل الأمور. لم يعد ناجاتاشو Nagatacho، الحي السياسي في طوكيو، يُنظر إليه كعش زنابير يأوي غلاة القوميين المتطرفين الفاسدين الذين بُعثوا من بقايا عصبة الحرب؛ وإنما أصبح ناجاتاشو ينظر إليه كبيت لأول ديموقراطية برلمانية شرق ـ آسيوية، ناهضة وواعدة.

وأفضى النموذج الجديد إلى نتيجتين رئيستين، وسواء أكنا على وعي بهما أم لا، فهما أساس ما نتظاهر بأنه حقيقة اليابان. الأولى كانت أن خمسة عشر عاما من العدوانية اليابانية لم تكن إلا انحرافا، إلا ذبذبة محدودة في مسار متصل، لم يكن هناك عيب حقيقي في النظام الياباني. صحيح أن اليابان انحرفت عن المسار، لكن لفترة وجيزة، وجاء الاحتلال فصحح المسار، ولا يجب أن يقف المرء طويلا عند حرب الباسيفيك، لأنها كانت خارج مسار تقدم اليابان نحو الديموقراطية الليبرالية. وبالتالي تأتي النتيجة الثانية: ليس

تقييمه لم يكن هناك نهج عكسي: ولكن ما حدث هو «إعادة توزيع قوات»، ولم يكن ذلك إلا لأن الإصلاحات كانت انتصارا تاما. كتب رايشاور العام ١٩٥٣: «إن الحاجة ماسة الآن لأن يقوم اليابانيون أنفسهم بجعل القواعد الجديدة تتواءم مع حقائق الحياة في اليابان، وأن يقوموا باكتساب الخبرة في الحياة وفي حكم أنفسهم بأنفسهم وفقا للعملية الديموقراطية»، وإذ نتأمل في مضامين هذه العبارة، سيُطرح السؤال: من الذي سيعلم اليابانيين هذه الأمور؟ من الذي سيريهم كيف تعمل الديموقراطية؟ هل هم الذين أعيد تنصيبهم من مسؤولي الدولة الدكتاتورية في الثلاثينيات، أولئك الذين اخترعوا شرطة الفكر؟ لابد أن هذا هو ما كان يعنيه رايشاور، لأنهم كانوا قد عادوا بالفعل وتولوا الأمور.

والمقاطع التالية جاءت من صفحة واحدة في كتاب رايشاور اليابانيون اليوم:

«على السطح تعطي اليابان كل مظاهر مجتمع سعيد وربما تستحق هذا التقييم بقدر ما يستحقه أي بلد آخر».

«الفصام الثقافي، الذي ربما يبدو واضحا للعين الغربية غير الفطنة، ليس له وجود بكل بساطة بالنسبة لليابانيين، إلا إذا استثنينا عددا قليلا من المثقفين الذين لديهم إحساس بالذات».

«من الواضح أن اليابانيين راضون عن أنفسهم كأفراد وكأمة. وحتى عقود قليلة مضت كانوا أميل إلى عدم الثقة بأنفسهم، خائفين أن يكون الغربيون ينظرون إليهم باستعلاء، ولكن هذه الشكوك لم تلبث في السنوات القليلة الماضية أن تبخرت سريعا في دفء الوفرة، والمكانة الدولية المرموقة».

صدرت الطبعة الأولى لكتاب رايشاور في العام ١٩٧٧ (بعنوان: **اليابانيون The Japanese**)، ثم أعيد نشره مع تحديثه في ١٩٨٨، بعنوان: **اليابانيون اليوم The Japanese Today**، وهو أهم كتبه، وهو كتاب مليء بأشياء لا تمت إلى الحقيقة بصلة، وبفقرات ليست لها أي علاقة بالواقع الياباني، وأخرى لا نعدو الحقيقة إذا أسميناها مادة دعائية تُقدم كجزء من التاريخ. وتظهر في طبعة ١٩٧٧ أكثر مزاعمه إثارة للانتباه (والتي لم يجر تعديلها إلا قليلا في الطبعات التالية). ومن بينها قول يبدو كما لو كان عارضا: «الفساد السياسي ليس منتشرا في اليابان». ثم يضيف ملاحظة أن المرء لا يسمع من الجمهور الياباني «الشكوى من الفساد» إلا قليلا. غير أنه يعود للتقليل من شأن هذه الشكاوى بملاحظة يقول فيها إن الأجانب لا يفهمون بالضبط مقاصد اليابانيين.

ليس بمستغرب في عالم على مثل هذا القدر من البساطة، أن يشرع الأمريكيون في السبعينيات في البحث عن «أسرار» «المعجزة» الاقتصادية اليابانية. ونعثر على هذه الأسرار حيث يراد لنا ذلك تماما، في «تقاليد» اليابان المركبة: في احترام السلطة والنظام، والإحساس بالهدف المشترك، وعادة الولاء للشركة. لقد نشأت أسطورة تتماشى مع الكاوبوي الأمريكي، أسطورة «المحارب من أجل الشركة»، والمعروف في اليابان بأنه «رجل الساراري sarari man» العادي، الذي يعيش على راتبه، الموظف المربوط بالعمل في شركة كبرى طوال حياته.

لقد ألفنا صورة الساموراي حامل الحقيبة. إن العامل الياباني، سواء كان في عنابرالمصانع مرتديا الأفرول، أو جالسا إلى مكتب تتكوم عليه الأوراق، هو الشخصية الرئيسة في اقتصاد ما بعد الحرب. وهو «راضٍ جدا بالكيفية التي تسير بها الأمور»، (عن رايشاور، «**اليابانيون اليوم**») حتى أنه لا يهتم بالنقابات. أما الاضرابات فهي أمور مزعجة وغير مرغوب فيها، فهو يفضل اتفاقا جمعيا بين العمال والإدارة. فإذا كان لابد أن ينضم إلى أي نقابة، فلتكن هي التي ينظمها أصحاب العمل ـ نقابة الشركة، المعروفة أحيانا باسم البيت، أو نقابة «المؤسسة».

فلنلق نظرة سريعة ـ باختصار ـ على تاريخ العمالة اليابانية. ففي هذا التاريخ نجد درسا أساسيا.

قبل بداية قرننا هذا (العشرين) كان التحديث السريع يستحث صراعا يزداد انتشارا في المصانع الجديدة. حيث كانت ظروف العمل فظيعة وتغيب العاملين كثيرا جدا؛ ودورة تغيير العمالة تزيد على مائة بالمائة كل عام. وكان مقاولو الأنفار يغرون الفتيات الريفيات بالعمل في مصانع الغزل والنسيج بوعود كاذبة. كان الذين «يهربون» من المصانع يتم الإمساك بهم بواسطة شرطة خاصة. كانت الإضرابات غير المشروعة متواصلة بأشكال ودرجات متفاوتة، ولم يوجد من يستطيع تنظيم الجيل الأول من العمال الصناعيين في تاريخ اليابان – لا المديرون الجدد، ولا نقابيو المستقبل.

في العام ١٩١٢، قام أحد النشطاء المسيحيين، بونجي سوزوكي Bunji Suzuki، بتأسيس اتحاد سُمي يوايكاي yuaikai، أو جمعية الصداقة. كان لدى يوايكاي برنامج مثير للاهتمام، يدعو إلى الإصلاح الاجتماعي والعمل

استهدفها النهج العكسي. ذلك أن مقاتلي الحرب الباردة في مقر أركان الحرب (G. H. Q)، الذين لم تعجبهم العلاقات التي أقامتها النقابات مع الأحزاب السياسية، سرعان ما أفسحو الطريق للاعتداءات على العمال من جانب النخبة السياسية ورجال الأعمال الذين استعادوا أوضاعهم السابقة، وهكذا عدنا إلى أحداث تذكرنا بالعشرينيات مرة أخرى. بين العامين ١٩٤٩ و١٩٥٠؛ فُصل سبعمائة ألف عامل، وصُنِّف اثنا عشر ألفا كشيوعيين أو متعاطفين مع الشيوعيين. وأعيد بناء النقابات المؤسسية، وكثيرا ما كان ذلك على بقايا سانبو.

وأخذت الاتحادات النقابية المستقلة التي ظهرت في مرحلة ما بعد الاستسلام تتعثر في سيرها بعد أن دمرت أحشاؤها وإن ظلت واجهاتها قائمة. ومنذ ١٩٥٥، كان الحدث العمالي الرئيسي كل عام هو الشانتو shunto، أو هجوم الربيع، الذي كانت الاتحادات النقابية تساوم فيه على أجور جديدة على الصعيد الوطني. وكان لمساومات الربيع هذه تأثير يزيد أو يقل عبر السنين، ويعتمد ذلك على الحالة الاقتصادية وعلى ما تقرر المنشآت الصناعية أن تعطيه. غير أن الشانتو كان طقسا أكثر منه مفاوضات حقيقية. وكأنما سُمح من خلاله بأن يتحد الموظفون مرة واحدة في العام ليعلنوا: «نحن مستقلون، ونحن مشاركون بشكل مستقل في الاقتصاد»، برغم أنهم، بالطبع، لا هذا ولا ذاك.

والواقع أنه اليوم، كما قد يؤكد أي باحث من نادي الكريزانثيمم، أن الموظف العادي لم يعد يهتم كثيرا بأمور النقابات. والمنتمون إلى النقابات اليوم، وحتى إلى نقابات المؤسسات، أقل من رُبع عمالة اليابان البالغة خمسين مليونا. ولكن هذا ليس لأن الحياة مرضية كما هي، وإنما لأن النقابات تحولت إلى شيء عديم النفع تقريبا. لقد أصبحت ضمن الأوهام اليابانية الكبيرة الكثيرة. فهي لا تزال على المسرح، لا تزال تطفو داخل وخارج روايات الصحف وما إليها، لكنها تخلو تماما من الهدف. ويمكن أن نقول إنها نقابات لها وجود «افتراضي»(*)، إذا كان من الممكن استيعاب هذه الصورة.

فما القضية هنا؟ إن العرض المقدم أعلاه مسّ كثيرا من الأسئلة المثيرة للخلاف. وثمة مناقشة حادة بين الباحثين والكتاب والصحافيين تدور حول

(*) Virtual: يستعير المؤلف التعبير من اصطلاح يستخدم في علوم الحاسبات الآلية هو Virtual

المرهوبة التي كانت سائدة في الحرب الباردة: الإدانة بالعمل «السياسي». وهكذا ضيعت المغالطة الفكرية للعصر معالم فهم الأمة للواقع الياباني، وكثير أولئك الذين فقدوا وظائفهم وطردوا من معاهدهم ومجتمعاتهم لأنهم حاولوا الوقوف ضد التيار.

وفي هذا الصدد كانت حالة الكاتب والديبلوماسي الكندي إ. هـ. نورمان E. H. Norman، هي أشد الحالات مأساوية، وكانت شخصية نورمان وأعماله هي الأكثر خصوبة في جيله من الباحثين في الشؤون اليابانية. كان نورمان، أكثر من أي شخص آخر، هو المسؤول عن تقديم فهم لليابان كان نادي الكريزانثيمم مكرسا لمحوه، وهو مفهوم مركب غير مبسط لياباان، فيها بشر مثل بقية البشر، ليست فيها شخصيات نمطية ولا مكان فيها لأفكار تبسيطية لما يسمى «بالتقاليد»، يابان تعاني كثيرا من المشاكل الخطيرة، في مسيس الحاجة إلى تغيير جذري في المسار كان اليابانيون يريدونه بعد الهزيمة. اعتمد تحليل نورمان على التاريخ؛ وفي الواقع، كان عمل نورمان قبل الحرب هو السبب في استعادة هذا الكم من تاريخ اليابان الحديث الجدير بالثقة والتصديق. وكان نورمان يتمتع بالاحترام على جانبي المحيط الهادي (شمال أمريكا وشرق آسيا). وباختصار، وبتعسف وعجلة شديدة، وُسمت أعماله بأنها «ماركسية». وفي ١٩٥١ اتهم في جلسات استماع مجلس الشيوخ الأمريكي بأنه شيوعي. وفي الوقت الذي وقف فيه رايشاور وغيره من الباحثين صامتين ساكتين، دُفع نورمان إلى الانتحار بعد ذلك بست سنوات(*).

وُجد عدد قليل من الباحثين المحاصرين، ممن كتبوا ضد النموذج. إلا أن التهديد الوحيد الخطير له، على الأقل حتى نهاية الحرب الباردة، لم يأت من باحثين غربيين، وإنما من اليابانيين العاديين. حدث ذلك في صيف ١٩٦٠، عندما حان موعد تجديد المعاهدة التي تربط اليابان بنظام الدفاع الأمريكي. وتلك المعاهدة التي تختصر بالمنطوق الياباني إلى AMPO. وتستحق الأحداث التي جرت حول تجديد الـ AMPO أن نستعيدها، لأن الحركة المناهضة لتجديد المعاهدة، هي التي تضمنت التحدي بأبسط تجلياته للنموذج: لقد أظهرت أن الصورة التي رسمها النموذج لم تكن تمت بصلة ـ إلا قليلا ـ لليابان كما هي في الحقيقة.

(*) الجدير ذكره أن نورمان انتحر في القاهرة وقت أن كان سفيرا لكندا في مصر (المترجم).

في شهر يونيو من العام ١٩٥٧، قام كيشي، بعد انتخابه مباشرة، بزيارة الولايات المتحدة، ولعب الجولف مع الرئيس أيزنهاور وألقى خطبتين في مجلسي الكونجرس. وسافر إلى نيويورك والتقى بكبار رجال المال في وول ستريت، وشارك في بعض ألعاب اليانكي. كتب الباحث مايكل شولر Michael Schaller في عمل صدر له أخيرا، إنه يبدو أن المخابرات المركزية بدأت ترسل اعتمادات سرية لكيشي بعد هذه الزيارة بقليل. وبعد ثلاث سنوات كان كيشي هو الأكثر إسهاما، من بين كل اليابانيين، في تأمين تجديد اتفاقية الدفاع AMPO.

عرف اليابانيون جميعا أن مسألة تجديد المعاهدة كانت مفترق طرق. يمكن للبلاد أن تختار إما أن تستمر الأمور كما كانت منذ نهاية الحرب، تحت الوصاية الأمريكية المباشرة، وإما أن تعلن انتهاء عصر ما بعد الحرب وتبدأ طريقها الخاص. وكانت هناك معارضة كبيرة للمعاهدة في المجلس التشريعي وبين الناخبين. لقد غرس النهج السلمي لمؤسسة ما بعد الحرب جذورا عميقة. لم يكن الشعب يريد استمرار اليابان شريكة لأمريكا في الحرب الباردة؛ كما لم يكونوا يريدون التضحية باستقلالهم أكثر من ذلك من أجل خصم منتصر أعاد نظام ما قبل الحرب، بينما يتظاهر بتطهيره. وبرغم ذلك، وقع كيشي في يناير ١٩٦٠ نسخة جديدة من المعاهدة في البيت الأبيض، بينما أيزنهاور ينظر بسعادة. وبحلول مايو التالي، عندما كان مطلوبا من المجلس التشريعي أن يصدق على المعاهدة، كانت مسألة اتفاقية الدفاع AMPO قد شدت إليها الأمة كلها ـ والتي كانت غالبيتها معبأة ضد تجديدها.

وأوصل كيشي المجلس التشريعي the Diet إلى حافة الاشتباك بالأيدي، إذ كان قد جعل للتصويت حدا زمنيا. حيث كان يريد إنجاز تحويل المعاهدة إلى قانون قبل زيارة أيزنهاور في يونيو. وبعد أن فقد كيشي صبره على المساجلات والمناقشات التي استطالت، أمر الشرطة بحمل السياسيين المعارضين وإلقائهم خارج قاعة المجلس التشريعي. ثم عجل بأخذ الأصوات على التجديد في غيبة خصومه. وكان المنظر في جملته مهينا ومفعما بالفوضى. صحيح أن عملية التصويت القهري لم تكن غير قانونية، لكنها لم تلق إلا قبولا سيئا من شعب يعرف أنه كان من أعمدة البيروقراطية التي أدارت الحرب وألقي القبض عليه وسجن بعد الاستسلام. كما بدا الموقف أيضا وكأن الديموقراطيين الأحرار كانوا أكثر اهتماما بإرضاء واشنطن عن اهتمامهم باحترام رغبات مجموع الناخبين.

الأساسية لتجعل لأكبر عدد ممكن من اليابانيين مصلحة مادية في ترك الأمور التي رتبت كما هي. وربما تبدو هذه الخطة اليوم رشوة، والحق إنها كانت كذلك، وإن جزئيا. غير أنها كانت أكثر من ذلك، فهي أقرب إلى منحة ما كان اليابانيون ليستطيعوا أن يرفضوها.

وتلك لحظة مُهدت لها الأرض تماما منذ النهج العكسي، ثم صفقة يوشيدا ونظام ١٩٥٥. وأحدثت خطة إيكيدا نوعا من الجنون ـ جنون التنمية المادية بأي تكلفةبشرية أو بيئية ـ لحزب حاكم كانت مهمته الوحيدة إقامة علاقات طيبة مع أمريكا؛ وجنون ديموقراطية خاملة توظف الانتخابات فيها لحرمان الناخبين من حقوقهم الديموقراطية. ومنذئذ، أصبح الإنتاج والاستهلاك هما كل شيء. اخترع إيكيدا أيضا فكرة السياسة بالإجماع. كان شعاره هو «**الاحتمال والصبر**» وبعد ١٩٦٠ أصبح كل شيء يجب أن يُفْعَل بالاتفاق العام. وبالطبع، لم يغير الاحتمال والصبر شيئا في ناجاتشو (الحي السياسي لطوكيو)؛ فلم يكن المقصود أن تأخذ المعارضة إلا مكانا على المائدة على أساس الفهم بأنه لا تداول للسلطة. وكما أثبت التصويت على المعاهدة، ظل الديموقراطيون الأحرار قادرين على تمرير جميع التشريعات التي يريدونها. وقُدِّم الإجماع على أنه من القيم التقليدية لليابان، لكنه في الحقيقة لم يكن إلا للتمويه على سلطة سماسرة السياسة الذين كانوا يديرون ناجاتاشو.

ونجحت خطةإيكيدا بشكل يدعو إلى الإعجاب، أو على الأقل نجحت وفقا لمنطقها الخاص: تضاعف متوسط المرتبات في سبع سنوات، أقل بثلاث سنوات من المستهدف، وهكذا بدأ عصر شركة اليابان المتحدة .Japan Inc،

هو المشرف على الزواج الرسمي بين دوائر البحث الأمريكية وأيديولوجية الحرب الباردة.

وفيما بعد، في مذكراته، **حياتي بين اليابان وأمريكا** My Life Between, Japan and America، لم يقف رايشاور طويلا عند هذه الأمور. كتب يقول: إنه لم يستطع فهم عنف هجوم اليابانيين على نظرية التحديث. وفكرة نظرية التحديث هذه كانت تلفيقا في المقام الأول، فلم يكن هناك شيء من هذا القبيل. فالباحثون اليابانيون، على أي حال، لم يكونوا في نظر رايشاور إلا «ماركسيين» (فهذا هو لفظه المفضل) لديهم «مفاهيم ماركسية دفينة» أفضت بهم إلى عدم فهم بلادهم نفسها: وفهم الأمريكيين لها أفضل. كذلك كانت الانتفاضة المناهضة لاتفاقية AMPO، سوء فهم، أيضا. أما مجرمو الحرب - من نوع نوبوسوكي كيشي - الذين أعيد إليهم الاعتبار، فليسوا هم المشكلة، وإنما الشعب الياباني هو المشكلة، الذي يعيش أبناؤه ويعملون في الظلام:

«كان كثير من اليابانيين... يشعرون بالعجز والنفور من تبعيتهم للولايات المتحدة... كانوا يخشون أن تتسبب السياسة الخارجية الأمريكية المغامرة، كما يرونها، مقترنة بالقوة النووية الأمريكية، أن تتسبب في تورط اليابان في مأساة جديدة. رأوا أنفسهم كما لو كانوا تحت رحمة الحماقة السياسية والقسوة الأمريكية. وعلى الرغم من اعتقادهم بأنه ليس لهم خيار إلا أن يظلوا معتمدين اقتصاديا على التجارة مع أمريكا، إلا أنهم كانوا يريدون أن يقيموا بينهم وبين السياسة الخارجية الأمريكية أكبر مسافة ممكنة...».

«كان من الضروري أن يدرك اليابانيون أن الولايات المتحدة ليست بطبيعتها دولة عدوانية عسكرية. وإنما هي مضطرة إلى الإبقاء على شيء من قوتها العسكرية في غرب المحيط الهادي...».

واعتبر رايشاور، وفق ما جاء في مذكراته، أن مهمته كسفير تتطلب أن يصحح «كل هذه المفاهيم المشوهة»، لم يتقبل رايشاور أبدا فكرة أن اليابانيين، حتى لو ارتكبوا أخطاء، فإن من حقهم أن يخطئوا. بل إنه لم يتقبل أبدا فكرة أن اليابانيين يتفهمون جيدا الظروف التي يعيشون فيها - وكيف وصلت بهم الأمور إليها - وأنهم ببساطة لا يرغبون في أن تبقى قوات أمريكا على أراضيهم، كما أن من حقهم أن يرفضوا الاستمرار في الحياة التي ظلوا يحيونها طويلا باستثناء بضع سنوات بعد هزيمتهم.

وهذا منطق يناسب أعضاء نادي الكريزانثيمم، لأنه، على سبيل المثال، يعفي الباحثين التقليديين من الانشغال بالسؤال المحرج المتعلق بالقمع، الذي كان يمارسه في أثناء الحرب أصدقاء واشنطن الجدد في طوكيو. ولكن هذه المقولة مجافية للمنطق. فلم يكن اليابانيون شعبا مفعما بالروح العسكرية أكثر أو أقل من أي شعب آخر. وكانوا يعانون نظاما عسكريا ليست لهم عليه سيطرة. كذلك لا تصمد النتائج التي توصل إليها رايشاور أمام المعايير المنطقية. فأولئك الذين يُشك في صدقهم هم، بالضبط، الواقعون تحت سطوة الآخرين. أما أولئك الذين ساندوا الدكتاتورية بإرادة منهم، فهم وحدهم المرشحون للانقلاب من الروح العسكرية إلى نقيضها. والحق أن الكثير منهم لم يغير موقفه، فقد سمح الأمريكيون لهم باعتماد النهج العكسي بأن يكتفوا بإخفاء مشاعرهم وإعادة تشكيلها.

ومن المفترض أنه لو اعتنق اليابانيون تلك الأممية لكانوا قد تخلوا عن ادعاءاتهم القومية السابقة. صحيح أن المذهب السلمي والحياد اللذين انتشرا بعد الحرب موجودان حتى اليوم. ولكن هذا يختلف عن تبني النزوع الأممي إلى درجة التخلي عن الهوية والكبرياء الوطنية، حتى لو كان الأمر يتعلق بشعب كره نفسه وتمنى أن تشق الأرض وتبتلعه. في هذا السياق فإن عبارة الأممية، بديلا عن الوطنية إن هي إلا معادلة مزيفة وإن كان يطرحها الجميع . وتركت هذه المعادلة اليابانيين أنفسهم في حالة تشوش وعجز عن التعبير عن مكانهم في العالم، وكذلك بالنسبة للتعبير المربك والواسع الانتشار: «اليابانوية»(*). ومن ثم لانتبه إلى أن اليابان، خلف مظهرها الهادئ، ما تزال تعاني من نفس القلق والعناء الذي كان واضحا حتى صيف ١٩٦٠.

إذا كان علينا أن نفهم اليابان اليوم أو ما يُنتظر لليابان من مستقبل، فيجب أن ندرك أن هذا القلق قد عاود الظهور مرة أخرى، بطبائع الأمور. وبعبارة أخرى، لقد أدرك اليابانيون أنه من المستحيل أن تنشق الأرض وتبتلعهم، أو أن يقوموا باختيار موهوم بين القومية والأممية. أو بتعبير ثالث: لقد تجاوز اليابانيون مشاعر القبح والإحساس بالنقص مع الآخرين. وقد أفضى هذا الوضوح اليوم إلى أن شرع اليابانيون في إعادة التعرف على أنفسهم.

(*) في الأصل Japaneseness، أي حالة كون الإنسان يابانيا، للدلالة على التميز السلبي للإنسان الياباني في مواجهة الضغوط الغربية (المترجم).

Bubble Economy». خمس سنوات من التنمية السريعة الهشة، القائمة على المضاربات. تضاعفت الأموال المتداولة في بورصة طوكيو إلى ثلاثة أمثالها. وارتفعت أثمان الأراضي إلى الضعف في سنة واحدة، ثم تضاعفت مرة أخرى في السنة التالية. وأوصلت الفقاعة اليابانيين إلى الأسواق العقارية ـ العالمية وعالم المنتجعات وصالات المزادات. واشترى المستثمرون استوديوهات هوليوود والمنشآت التذكارية الكبرى مثل مركز روكفلر، وأصبحت اليابان أكبر مانح للمعونات والمصدر الأول للقروض والائتمان. وفي مؤتمرات القمة الاقتصادية، بدأ العالم ينحني باتجاه طوكيو. هل ينكر أحد أن هذه الأحداث كانت شكلا من تأكيد الذات القومية، وأن اليابانيين، إن صح التعبير، أخذوا يثبتون حضورهم مرة أخرى.

وبشكل ما، كانت أواخر الثمانينيات أشبه باحتفالية كبيرة، كما فهم كثير من الغربيين الذين كانوا يعيشون في طوكيو في تلك السنوات. وكما في معظم الاحتفاليات، كانت مناسبة للتذكر والنسيان معا. تذكر اليابانيون أهم شيء، تذكروا أنفسهم. أصبحوا أكثر ثقة بأنفسهم في الداخل والخارج ـ كأمة وكأفراد. وبدأوا يؤكدون وجودهم السياسي لأول مرة منذ الحركة المناهضة لتجديد اتفاقية الدفاع المشترك العام ١٩٦٠. ولكن الدوار الذي أصابهم حينذاك، أنساهم الظروف والملابسات التي كانوا يرزحون تحت عبئها. نسوا النفوذ الهائل الذي كانت أمريكا ما تزال تمارسه على اليابان. نسوا أن اليابان كانت قد وضعت كل إيمانها، لا في الديموقراطية، وإنما في الكفاءة والتكنولوجيا، وأن التحدي الأكبر أمامهم كان هو اتخاذ قرار عكسي. ونسوا، أيضا، أن كل الصفقات التي يبرمونها في العالم لن تغير حقيقة أن اليابان كانت أمة تمتلك «قوة بلا هدف»، وذلك تعبير ذاع صيته في نهاية العقد.

في ١٩٩٠، تسرب الهواء من الفقاعة، عندما تعثرت اليابان في حالة من الركود الاقتصادي، ولكن شيئا أكثر حدة من مجرد هبوط الخط الاقتصادي لليابان أعاد اليابانيين إلى عقولهم. ففي الثاني من أغسطس ١٩٩٠ اجتاحت القوات العراقية أرض الكويت. وعندما بدأت الولايات المتحدة الأمريكية تعبئ الدعم الدولي لرد عسكري على صدام حسين، أصبح الخليج العربي ساحة حرجة بالنسبة لليابان. كان السؤال هو: ماذا على اليابان أن تعمل في إطار الكوابح الدستورية التي تمنعها من الاشتراك في أي أعمال عسكرية؟

كذلك بدأ الأمريكيون العاديون ينجذبون لوجهة نظر المراجعين، وإن لم يكن دائما في الاتجاه المستحب نفسه. في أوائل التسعينيات قررنا فجأة أننا نواجه طبعة أخرى من «إمبراطورية الشر»: ذلك أنه مع انهيار الاتحاد السوفييتي، أثيرت مناقشات جادة حول أن اليابان يمكن أن تحل محله كالعدو الرقم واحد. ولم يعد أمامنا إلا أن نفكر في كيف يستطيع الأمريكيون أن يقوا أنفسهم شر ذلك البلد المتآمر القابع عبر الباسيفيك.

ولمثل هذه الأفكار تاريخ طويل. فلأكثر من قرن تأرجحت أفكار أمريكا عن ا ليابان كالبندول. منذ مائة عام كان السؤال المطروح هو إلى متى سيظل اليابانيون البدائيون الأبرياء على حالهم قبل أن يتحولوا إلى اعتناق المسيحية والديموقراطية؟ ثم جاء زمن الخطر الأصفر، الذي طُرح فيه اليابانيون كعسكريين متوحشين يتملك عشق السيف أرواحهم. وفي أثناء الحرب أصبحوا ببساطة «حيوانات متوحشة» - وفقا لتعبير الرئيس هاري ترومان. وبعد ذلك أصبحوا مدمني عمل قليلي الثقة بأنفسهم. ثم ها نحن الآن نعود مرة أخرى، نفرخ مزيدا من النظريات التآمرية. وبغتة نتبين أن كل ما يحدث في اليابان ليس مصادفة. فمطار طوكيو الدولي، ناريتا، مساحته محدودة، لأن اليابان تريد أن تحدّ من تدفق الأجانب إليها، ومن سفر اليابانيين إلى الخارج. ولم نصدق أن اليابان ولجت فترة من الركود الاقتصادي في أوائل التسعينيات، وإنما كانت «تُعتِّم» علينا، كأسلوب لهجوم غادر، أسلوب محسّن لتحقيق السيطرة الاقتصادية. صحيح أن هذا الرأي تراجع لأن اليابان كانت، بالتأكيد، تعاني ركودا، ولكن من الأرجح أن يعود للبروز بمجرد أن تعود مشكلاتنا التجارية إلى البروز.

والمراجعة مسؤولة جزئيا عن هذا النوع من جنون الارتياب - وإن لم يكن المبادرون بالفكر المراجع هم المسؤولين، فلتقع المسؤولية على المروجين لتلك الأفكار بين الناس. فلِمَ حدث هذا الارتباك؟ لماذا لم تكن المراجعة علامة على بداية فهم عميق وأصيل لليابانيين، ومن ثم نهاية للأساطير والقصص التي تروّج حول تلك الأنماط المختلفة من «اليابان»؟

إن أخطاء المراجعين لها علاقة بالتوقيت، ذلك أنهم ظهروا بعد أن كانت اليابان قد أنهت لتوها، رُبع قرن من استقرار رتيب باهت الملامح، كانت الأمور كلها تبدو وكأنها لا تتغير. طبيعي أنه لا يوجد مجتمع في حالة سكون، فذلك

يفضله كثير من المراجعين، وهذا يصل بنا إلى خطئهم الأساسي. فشل كثير من المراجعين، مثلهم في ذلك مثل أعضاء نادي الكريزانثيمم، في إدراك الطبيعة المركبة والملامح الإنسانية لليابان. وبدلا من ذلك، اعتبروا أن اليابان هي بلد مؤسسات ـ أنها يابان المركز، يابان الحزب الليبرالي الديموقراطي، يابان الشركات الكبرى، يابان التراضي والتوافق العفوي، تلك الصورة عن اليابان التي بذلت أمريكا كل هذا الجهد لخلقها، وتلك هي اليابان التي وصفها كنزابورو أو بأنها اليابان «الرسمية» التي قوامها تقاليد الساموراي والكفاءة. ومن الخطأ أن نقبل هذه الصورة بمعانيها الظاهرية.

رسم **كنزابورو أو** خيطا مميِّزا وفاصلا عندما تحدث عن اليابان الأخرى، عن «المساحة البيضاء التي يعيش فيها اليابانيون»، (حسب تعبيره)(*)، وكان يعني بذلك يابان أكثر أصالة وإن كانت غير مألوفة لنا في الغرب. إنها بلد يقطنها بشر عاديون لهم رغبات عادية، بشر ليسوا أكثر ولا أقل كفاءة من غيرهم، ليست فرديتهم أقل أو أكثر من فردية غيرهم، وليسوا أكثر ولا أقل مراعاة للفنون والطقوس الإقطاعية. وإذ استعرنا بعض المصطلحات من التاريخ البوذي وطوَّعناها، يمكن أن نسمي اليابان الرسمية المألوفة لدينا يابان «التقاليد الكبرى»، وأسفلها توجد يابان «التقاليد الصغرى»، وهي اليابان التي لا نتبينها بسهولة.

والفرق بين يابان التقاليد الكبرى ويابان التقاليد الصغرى قديم جدا، ولا شك في أنه فارق عالمي وإن اختلفت أشكاله. ولكنه لم يكن بهذا التأثير، وعلى مدى كل هذا الزمان، كما هو في اليابان. فمنذ أن بدأت اليابان في كتابة تاريخها، فقد وُجدت دائما المفارقات بين الراقي في «القمة» والعادي في «القاع». ومن الأمثال الشهيرة في العصر الإقطاعي المتأخر مثل يقول: «وقِّر المسؤولين، واحتقر الشعب». وقد ظلت هذه الفكرة الفجة موجودة طيلة عصر الميجي باعتبارها خطا واضحا يميز بين «الكان kan والمين Min»، أي المسؤولين والعامة. ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا إنها ما تزال حاضرة في اليابان حتى الآن. وثمة أمر آخر يستحق الذكر: لقد كانت التقاليد الكبرى دائما تعكس ما استعارته اليابان من الخارج، ومن ثم فهي شيء مستورد مفروض، بينما «التقاليد الصغرى» كانت دائما محلية بطبيعتها.

(*) قول «كنزابورو أو» المشار إليه في بداية هذا الفصل.

عصف بعلاقات اليابان بالأمريكيين الذين تجاوزوا في سلوكياتهم حدود الضيافة. هكذا استطاع جنود ثلاثة وهم يقضون عطلة ليلة واحدة، أن يفرضوا إعادة النظر في نظام الدفاع المشترك بين طوكيو وواشنطن منذ نهاية الحرب العالمية الثانية.

وقد أثار هذا الحادث ذكريات التظاهرات التي قامت ضد معاهدة الدفاع المشترك AMPO التي عصفت باليابان منذ خمسة وثلاثين عاما. وسرعان ما أصبحت القضية هي قضية الوجود العسكري الأمريكي برمته ـ التي هي جوهر صفقة يوشيدا. ماذا يفعل كل هؤلاء الأمريكيين في اليابان؟ ولأن أهل أوكيناوا أكثر تعودا على الأجانب وأقل تأثرا بالتقاليد اليابانية، فقد كانوا أكثر اندفاعا من اليابانيين في الجزر الرئيسية. باختصار، كان ذلك حدثا تاريخيا مشؤوما بالنسبة للأمريكيين. لأن مظاهرات الاحتجاج التي عصفت بأوكيناوا أكدت بالدليل القاطع مرة أخرى أنه أصبح من المحتم، إن عاجلا أو آجلا، أن تتغير طبيعة العلاقات بين اليابان وأمريكا.

وليس من السهل أن نخفي عن الأعين قوات تعدادها خمسون ألفا لمدة تقرب من نصف قرن ـ خاصة عندما يكون ثلاثون ألفا منهم يديرون سبعين قاعدة عسكرية متفرقة، ومنتشرة على خُمس الأراضي القابلة للاستخدام، كما هي الحال في أوكيناوا. كانت واشنطن وطوكيو قد تمكنتا ببراعة ومقدرة ولمدة طويلة من إخفاء هؤلاء الجنود عن الأمريكيين، كما كانتا بارعتين في إخفائهم بعيدا عن الأنظار في اليابان. وكان هذا هو أحد الأسباب التي جعلت ثلاثة أرباع القواعد العسكرية الأمريكية في اليابان متمركزة في محافظاتها النائية الواقعة في أقصى الجنوب. وكان هو السبب في أن حادث الاغتصاب كان تحديا آخر لفكرتنا المبسطة عن اليابان وعن الأساليب التي كنا ندير بها تحركاتنا هناك. كانت أوكيناوا ـ بطريقتها ـ علامة أخرى على «نهاية ثقافة النصر»، وهي العبارة التي جعلها الكاتب توم إنجيلهارت Tom Engelhardt عنوانا لكتابه الذي أخذنا منه هذا التعبير المفيد.

ومنذ خمسين عاما اعترضنا مسيرة اليابانيين، لقد هزمناهم، طبعا، وسمحنا لهم بمهلة زمنية قصيرة، اتخذوا فيها أولى خطواتهم في محاولة إنهاء التراجيديا التي كانت قد وصلت إليها عملية التحديث، ثم لم نلبث أن قررنا تعطيل هذه المحاولة تعطيلا استمر خمسين عاما. فإذا أردنا أن نصحح

2 التاريخ المُخبّأ

في كانازاوا Kanazawa ، وهي مدينة واقعة على بحر اليابان ومعروفة بحي السامواري القديم فيها، توجد عائلة تُرجع تاريخ أسلافها إلى أربعة قرون مضت، واسم العائلة ميبوزو Meboso، وكانوا يصنعون إبر الخياطة وسنارات الصيد على مدى تسعة عشر جيلا.

وآل ميبوزو فخورون بلقب أسرتهم غير المألوف بقدر ما هم فخورون بحرفتهم، فاللقب والحرفة مترابطان، ذلك أن لفظ ميبوزو مشتق من ميبوزو ـ باري meboso-bari، التي تعني «الإبرة ذات العين الضيقة». وقد بلغت مهارتهم في القرن السادس عشر حدا جعل السيد الإقطاعي المحلي، دايميو daimyo، يسمح لهم باتخاذ لقب للعائلة وبحمل السيوف. وعندما كان تادايوشي ميبوزو يشرح هذا الأمر لي، قال: «هذا شرف غير عادي»، وأكمل موضحا: «فمن النادر أن يتخذ أحد من طبقتنا لقبا أو يمتلك سيفا». وفي أيامنا هذه، يبيع آل ميبوزو أجهزة صيد السمك وعلب الإبر التي يستخدمها الخياطون

أمعن النظر، سوف ترى أي تشكيلة هائلة من الأنماط البشرية ممثلة في الحشد الكبير.

شيماي فوتاباتاي

«السحب المتدافعة»، ١٨٨٩

لنفسه دورا... دورا مرسوما في الجماعة، وأقنعة اليابانيين ترمز أيضا للتماثل. وباستخدامها يوحى اليابانيون لأنفسهم بأن لا اختلافات بينهم، وأن عدم وجود اختلافات هو جزء من معنى أن يكون الإنسان يابانيا.

من بين الرواد الغربيين الذين عاشوا في اليابان، راهب يسوعي يسمى جوايو رودريجز Joao Rodrigues. ويبدو أنه ـ ويا للغرابة ـ فهم القناع الياباني فهما جيدا. جاء رودريجز إلى اليابان في ١٥٧٦، في الوقت نفسه، تقريبا، الذي اتخذ فيه آل ميبوزو هذا اللقب لأسرتهم، واستقر فيها أكثر من ثلاثين عاما. وكان يتحدث اللغة اليابانية بطلاقة، وقام أخيرا بدور المترجم للسيدالإقطاعي (الشوجون shogun). وذهب رودريجز إلى أن للإنسان الياباني ثلاثة قلوب: «قلب زائف في فمه ليراه العالم كله، وقلب آخر بين ضلوعه لأصدقائه، وقلب ثالث في أعمق أعماقه، يدخره لنفسه فقط ولا يبوح بمكنوناته قط لأي مخلوق».

هل هناك وسيلة أفضل من وضع قناع أمام الآخرين، لطمس السمات الفردية تماما؟ هل هناك إجراء أفضل للدلالة على مدى البراعة التي تعلمت بها الشخصية اليابانية أن تنفذ بنظراتها من خلال الشقوق الرفيعة التي تتخلل الرقائق ذات الملامح التي تخلو من التعبير قصدا، والتي تخفي الوجه الحقيقي، عن نظر الآخرين؟ لقد تلبست اليابانيين هذه العادات الذهنية والجسدية تماما، إلى درجة أنهم حتى وقتنا هذا يجدون صعوبة في طرح أساليب تفكيرهم ومشاعرهم للمناقشة. لكن أمة تتكون من شخصيات مطموسة المعالم تختلف عن أخرى تكون شخصيات أفرادها ـ على نحو شديد الغرابة ـ لا وجود لها أصلا.

لم تكن الروح الفردية ولا الحس التاريخي بمفتقَدين في تلك الادعاءات التي ينتحلها اليابانيون في حياتهم، ولا كانا مفتقدين في الماضي أيضا. إنما كان هذان الوجهان للحياة الإنسانية، ببساطة، محتجبين. وهكذا يمكن استخلاص نتيجة أدق من حال الأغلبية التي لم تتخذ لقبا والتي ولدت وقضت في اليابان حتى قرن مضى. حينذاك، وكما هي الحال الآن، لم تكن الروح الفردية هي المفتقدة بقدر ما كانت الروح الفردية مفتقدة في العمل العام، وإنما بالأحرى أن المفتقد هنا هو التعبير الصريح عن الذات، الذات التي انتزعت عن وجهها القناع في الجماعة. وبالمثل، ما كان اليابانيون

كان جوانيو رودريجز، اليسوعي الذي اكتشف ثلاثة قلوب في جوف الياباني، أكثر ذكاء منا اليوم، من وجهة معينة. فتصورنا لليابانيين يدعونا إلى افتراض أن لا فردية للشخصية اليابانية ـ هكذا ببساطة ـ وأن اليابانيين مختلفون، على نحو ما، عن البشر في أنهم قانعون بالحياة مثل قطعان البنجوين أو اللمنج(*)، بلا أي تمييز بين فرد وآخر لقد أدرك أن السمة الفردية لم تكن إلا مخبأة. غير أن رودريجز وقع في خطأ من نوع آخر. ليس ثمة ما هو «زائف» في الوجوه والواجهات التي يظهرها اليابانيون للعالم، على الأقل فيما يتعلق بهم، ولا شيء يذكر عن أفكار ومشاعر غير مشتركة تجعلها أكثر صدقا أو قيمة. وهذا خطأ لا يقع فيه إلا الغربيون، فنحن، مثلنا مثل الأب رودريجز، لا نشارك اليابان في فكرة أن الجماعة هي القيمة الأسمى.

ومن الصحيح أيضا أن اليابانيين يحتفظون بمكان خاص لما هو مخبأ. إنهم كُتَّاب يوميات متفانون لسبب بسيط هو أن جزءا كبيرا من الحياة لا بد أن يكون خفيا. وأحد التقاليد الجمالية اليابانية، والتي يشتهر القيام بها في حديقة أحد المعابد في كيوتو، تُسمى ماي جاكوري mie gakure، المرئي والخفي. يوجد في الحديقة خمسة عشر حجرا ناتئا في بحر من الحصى المرتب، ولكن ليست هناك زاوية يمكن منها رؤية الحجارة الخمسة عشر جميعا؛ فحيثما تقف هناك دائما واحدٌ منها خفي. ورأيت ذات مرة، في مكتب أحد الأصدقاء، رسما بالحبر لفلاحَين يجذبان مقودا يصل متدليا إلى نهاية الصورة؛ ولا شيء غيرذلك. وعندما ورد ذكر الصورة مع صديقي، ابتسم وقال: «بلى، هل تستطيع أن ترى العربة؟».

وتعبير ماي جاكوري، إذا وُصف به الناس، يكون من بين معانيه أيضا «أن يظهر المرء ويختفي» أو «أن يخبئ ذاته». وليس هناك شيء اعتاد اليابانيون على تخبئته أكثر من أنفسهم ودواخلهم. أما القلب الحقيقي، واسمه كوكورو kokoro، والمشاعر الإنسانية، نينجو ninjo، فنادرا ما يُفصح عنها، إلا أنها هي الأكثر قيمة. فالعواطف نقية وبريئة، وهو ما يجعل اليابانيين، حين يظهرونها، يبدون منفعلين بشكل طفولي ـ مثلا ـ إذا شربوا، أو إذا غنوا وهم في الحانة (كاراوكي) فالعواطف جزء من «أورا الأورا»، أعمق الأعماق،

(*) البنجوين، طيور البطريق، ومعروف أنها تحيا حياة جماعية. أما حيوانات اللمنج أو اللاموس lemmings ، فهي نوع من القوارض قصير الذيل، يقوم بسلوك غريب جدا أحيانا، إذ ينتحر بشكل جماعي من فوق قمة جبل.

السيد ويلسون بنسبته إلى شركة فوجي فيلم، أو السيد سميث بنسبته إلى جريدة الهيرالد تريبيون الدولية. ذلك أن أي شخص يعتبر جزءا من جماعة، كما هي الحال مع أي ياباني. ولكن الأجانب سرعان ما يتبينون أن اليابان بمثل ما هي أمة من الأشخاص الداخليين، فإنها بالقدر نفسه أمة من «الآخرين».

ولا يبدو أبدا أن هناك ما يكفي من الجماعات لخلق «آخرين» جدد، أو خارجيين جدد. ويبدو كما لو أن الناس يلجأون إلى أي حيلة للتعتيم على مسألة الشخصية العامة، وفي هذا الصدد، تحظى العلوم الزائفة بشعبية في اليابان. ذات مرة جلس أحد الموظفين الأوروبيين مع مديره الياباني لمقابلة المتقدمين للتوظيف، وكان المدير، بعد الأسئلة التقليدية، ينهي اللقاء بسؤال: «وما فصيلة دمك؟» وأجاب كل المتقدمين بذكر الحقيقة دون إبداء دهشة، ما عدا واحدا، (ضحك، ولم يكن يعرف). وبعد ذلك استفسر الجايجين (الأوروبي) عن مدلول هذا السؤال الغريب. فأوضح له المدير بأنه من الأفضل ألا يجتمع أشخاص من فصائل دم مختلفة في المكان نفسه في العمل. وتحظى هذه الفكرة بالقبول من الكثيرين؛ وأحيانا ما تُقَيِّم الصحف حكومةً جديدة بناء على كون أعضائها من فصيلة A أو B أو O أو فصائل الدم الأخرى.

عندما وصلتُ طوكيو وبدأت أختار الموظفين للعمل في مكتب الجريدة، تبينت أن كثيرا من الشباب الياباني يغريهم إمكان العمل في شركة أجنبية. ففي ذلك شيء من الإقدام على المغامرة والخروج على المألوف، بل التحدي. لقد جعل اليابانيون من مجتمعهم رَحِما. ولكن عندما يكون إغراء الخروج منه قويا، يتبين الأغلبية أن المخاوف ما تزال أقوى. صحيح أن الرحم سجن، لكنه آمن، ومن ثم يظل أغلب اليابانيين كما هم، يولدون. وعندما التقيت كاي إيتوي Kay Itoi، التي عملت معي في الهيرالد تريبيون طوال طوافي في اليابان، فهمتْ أنني كنت أبحث عن شخصية تتحلى بشجاعة خاصة، فضلا عن القلق، ونفاد الصبر.

إن القلق ونفاد الصبر والإغراء بالمخاطرة هي الحالات التي تساعدنا على أن نجد مفاتيح لألغاز صراع الشخصية الفردية مع الشبكة التي تحتويها، ليس هذا جديدا؛ إنما هو خيط طويل ممتد في تاريخ اليابانيين، وحين نصف اليابانيين في زماننا، فإننا لانفعل أكثر من تسجيل الوضوح والأهمية الجديدة التي يكتسبها هذا الخيط في نسيج الأحداث التاريخية. إنه نوع من التوتر

على الأمور، هو الذي أدى إلى إذعانهم عندما طرح الحكام الديكتاتوريون في الحرب غطاء أيديولوجيا عليهم، ودفعوا الأمة إلى الكارثة، ومن ثم فإن جوهر مشروع ما بعد الحرب كان جوهرا سيكولوجيا. وأفضل تفسير للاستقلالية يذهب إلى أنه: «لابد من أن يحدث إصلاح داخلي للبنية النفسية للمجتمع الياباني».

صاحب هذه الكلمات رجل يدعى ماساو ماروياما Masao Maruyama، المتوفى في ١٩٩٦ في الثانية والثمانين من عمره. ولا جدال في أن ماروياما كان أوسع المفكرين اليابانيين تأثيرا في هذا القرن، وفي المناقشات الواسعة التي دارت حول الذات الفاعلة (شوتاي ـ ساي) كان على رأس معسكر يسمى «التحديثيين»، الذين افترضوا وجود نوعين من الاستقلالية. الأولى فردية: ألا وهي استقلالية الذات الشخصية، والأخرى هي الاستقلالية الاجتماعية حيث الفرد الحر الذي يدرك مكانه داخل الكل الأكبر. وقُدِّمت هاتان الفكرتان للاستقلالية في مقابل الفكرة القديمة للجماعة، حيث لا هوية للناس ولا اختيارات حرة. وما كان هدف كل هذا التنظير ليزيد أو يقل شيئا عن الديموقراطية؛ أي نقيض النزعة الجمعية الشاملة. دعا التحديثيون إلى خلق «نموذج ياباني إنساني ديموقراطي من نوع جديد»، ومن السهل إيجاز وجهات نظرهم في أن: الديموقراطية لا تكون في غياب الحرية الفردية، والحرية الفردية يستحيل تعزيزها دون سياق ديموقراطي.

انهارت المناقشات حول الذات الفاعلة (شوتاي ـ ساي) في أواخر الأربعينيات. لم يظهر طراز الإنسان الديموقراطي الجديد قط، فقد أصبح أحد ضحايا النهج العكسي. وتحت حكم نخبة ما قبل الحرب التي أعيدت إلى الحكم في النهج الجديد، لم يستطع اليابانيون أن يتخلصوا من الفكرية الانغلاقية للجماعة، ومن ثم، أخذت اليابان بالآليات الديموقراطية بعد الحرب دون أن تتوفر على أي ديموقراطية حقيقية أو أصيلة. وفي مناخ الحرب الباردة وقعت عملية تطهير للكثيرين ممن دعوا إلى فكرة الاستقلالية بين اليابانيين، ومنهم ماروياما، باعتبارهم يساريين خطرين. وهنا نصل إلى واحدة من المفارقات الكبرى المثيرة للأسى والسخرية في الطريقة التي ننظر بها إلى اليابانيين المعاصرين. حقا كان ثمة يسار ياباني نشيط بعد الحرب ـ يسار متعدد الألوان والاتجاهات، ولكن ماذا في ذلك؟ فحين نتأمل اليوم واقع

الطيبة الكبرى والطيبة الأقل، التأدب الأكبر والتأدب الأقل... إلى آخر القائمة في كتالوج الحكمة الصيني للعدالة والاستقامة الصارمة.

بدأ العصر الإقطاعي في نهاية القرن الثاني عشر، عندما دفع محاربو الأقاليم (الساموراي الأوائل) الإمبراطور إلى الظل، وأقاموا دكتاتورية عسكرية استمرت سبعة قرون يتعاقب على إمرتها الجنرالات (الشوجون). وقد أصبحت ملامح وسمات الساموراي مألوفة لدينا: الانضباط والتقشف، الجماليات البسيطة المحكمة، الالتزام بنظام من قواعد الشرف شبيه في خطوطه العريضة بفروسية العصور الوسطى في أوروبا. وكانت قواعد الساموراي تراعي الكونفوشية بدقة، بما تتضمنه من نظام معقد للواجبات والالتزامات المتبادلة: نظام للأخذ والعطاء المتبادلين يهدف إلى منع الساموراي ـ وهم القتلة المحترفون المكرسون لفنون الحرب ـ من تدمير بعضهم لبعض. وبمرور الوقت أصبح الشوجون يوجهون الساموراي إلى ما يلبسون، وكيف يحسمون المناوشات والمنازعات، وكيف يعدون الوجبات، أي نوع من الأواني الفخارية يستخدمونها في البيت، وكم ينفقون على الهدايا. كانت القواعد واللوائح هي كل شيء، كانت الرتب و «البيوتات» المحددة ألوانها، وطرز بنائها وكذا طرز الملابس الشخصية، كانت هذه أيضا هي كل شيء.

كان الساموراي، بالنسبة للأغلبية التي لا ألقاب لها، هم مادة للأساطير البطولية، الذين ينهضون بالمهام الباهرة، غير أن كلا منهم لم يكن، في الحقيقة، فردا بذاته، ذلك أنه ما إن يتمثل أحدهم القواعد واللوائح في ذاته إلا ويكون قد بنى صرحا في داخله. فكل فعل، أيا كانت خطورته وتضحياته، هو علامة على التميز بقدر ما هو تأكيد للالتزام بالقواعد واللوائح، فالفعل من تجليات الإرادة التي تتمى، هي أيضا، وفقا للقواعد واللوائح. ولنأخذ مثلا، موضوع الولاء، كان الحكيم واضحا في حديثه عن الفضائل، ولم يكن الولاء هو أولاها ـ وإنما كانت الأولوية للطيبة أو حب الخير، والولاء كان يعني الإخلاص المتوافق مع الضمير، ولكن الساموراي جعلوا الأولوية للولاء دون أن يسمحوا للصوت الداخلي بالتدخل، في المفهوم الياباني، كان الولاء ووفاء الأبناء يقتضيان الطاعة، حتى لو كان ذلك على حساب العقل أو الضمير، فلا عجب أن كانت بوذية الساموراي هي بوذية «زن»، وتلك طائفة فُرِّخت محليا في اليابان. ومن تعاليم زنْ: تفريغ العقل، قمع الذات بإعمال الإرادة إلى أقصاها، إلى درجة تجعل الفعل ممكنا دون إعمال التفكير الواعي.

وأصبح «تعلم اللغة الهولندية»، الذي أبيح لقلة مختارة، هو المصدر الوحيد للمعرفة الخارجية، وكانت عقوبة أي شخص يحاول مغادرة اليابان هي الموت؛ ومُنع بناء سفن تزيد حمولتها على ألف كوكو koku(*)، وهذا بمنزلة منع بناء سفن تخرج إلى المحيط. وكانت مراسيم العزل (ساكوكو) من صنع أسرة من الشوجون تدعى توكوجاوا Tokugawa، كان أولهم إياسو Ieyasu قد تولى السلطة في ١٦٠٣، ونقل الحكومة العسكرية من كيوتو، العاصمة الإمبريالية التي تدهورت حالها، إلى قرية صغيرة سَبخة كانت تسمى إدو، والتي أصبحت طوكيو الحالية (العاصمة الشرقية).

استمر حكم التوكوجاوا في اليابان لمدة قرنين ونصف القرن، حتى ١٨٦٨. وفي عهدهم، عرفت اليابان أشد أشكال الإقطاع حدّة في تاريخها، كان اليابانيون يعيشون كما لو كانوا تماثيل صغيرة في لعبة ميكانيكية محفوظة في ناقوس زجاجي، مغلق عليهم في وضعياتهم الموروثة، وفي الدورة الزمنية العتيدة لحياة الأعيان والفلاحين. وعائلة توكوجاوا هم أعظم مستشرقين كانت اليابان قد أنتجتهم، ففكرتهم عن اليابان فكرة غريبة وضد طبائع الأمور، لا مكان فيها لأي حركة أو تغيير، بمرور سنوات عصر الإدو وقرونه أصبحت الفكرة أكثر بعدا عن واقع الأمر، ومن ثم بحاجة إلى مزيد من الإرادة البيروقراطية لفرضها.

كانت اليابان في عصر إدو مجتمع تمايز، يخفي تحته حالا من التوافق الراسخ مع الأعراف، حيث كانت من أوضح الأنماط الجمعية للتكوين الاجتماعي، فكلٌ مرتب في مكانه وفقا لطائفته: الساموراي، والفلاحون، والحرفيون، والتجار، وكل طائفة مكرَّسة لدورها. وكل منها معزول ومميز عن الأخرى بالزي، ووسائل النقل، وبما لا يحصى من التفاصيل الأخرى، فمثلا لم يكن يُسمح إلا للساموراي بحمل السيوف، السيوف الطويلة في الريف، والقصيرة في الحضر، ولم يكن يُسمح للساموراي بأي اتصال بالفلاحين، ولا للفلاحين بالاتصال بأهل الحضر، وكانت أزياء أهل الحضر (الكيمونو) يجب أن يكون طولها كذا، والفلاحون يجب أن يستيقظوا في الساعة كذا، يجب أن يأكلوا كذا وكذا في الوجبة، وألا يشربوا الشاي، وعليهم أن يزرعوا أعواد البامبو على مسافة كذا من أكواخهم، وأن يحفروا الغائط على بعد كذا.

(*) الكوكو وحدة تزيد قليلا عن خمس بوشل، وهو مكيال للحبوب يعادل نحو ٣٢ ليترا ونصف الليتر (المترجم).

إدو باعتباره «عصر اليابان الحديث المبكر»، وليس باعتباره - وفقا للتعبير المستهجن - «عصر الإقطاع المتأخر»، وفي هذا القول تظاهر لا مثيل له بالجهل، ذلك أنه منذ عصر إدو درج قادة اليابان، بطريقة أو بأخرى، على محاولة إرجاء الدخول الحقيقي لليابان في العصر الحديث.

ولا يمكن إنكار ما أحرزه عصر إدو من تقدم، فقد بدأ فيه شكل من التصنيع البدائي، حيث أرسى التجار المثابرون أساسا لتجارة حديثة، وبدأت ثقافة شعبية نابضة بالحياة (الكابوكي)، وفنون المسرح ترسي جذورها في الأحياء الترفيهية من مدن إدو وأوزاكا وكيوتو، إلا أنه لم يكن ثمة سلام في عصر إدو بل كان هناك نوع من الاتفاق والتعايش الفيدرالي بين الشوجون والدايميو، ولكن فيما عدا ذلك فقد تميز العصر بالاستغلال الذي لا يعرف الرحمة، وفرض الحرمان المتعمد، والقهر والقمع البوليسي الجنوني، والعنف السلطوي شبه الدائم يقابل ذلك مقاومة شعبية شبه دائمة، ومن المفيد أن يُقارن عصر إدو في اليابان بما انتهى إليه الاتحاد السوفييتي في أواخره: بما في النظامين من إرهاب وشمولية وبيروقراطية جاثمة، وتلاعب بالمعرفة، كما يمكن أن يُقارن بنظام الخمير الحُمر khamer Rouge، في كامبوديا بما عصف به من أحلام جامحة بأفضلية المجتمع الزراعي الشرقي.

وبقي من أفضال التوكوجاوا أنهم وضعوا اليابانيين على عتبات العصر الصناعي ومن حولهم الصرح الإقطاعي يتداعى، وإن ظل قائما داخل كل منهم. فاليوم هناك الساموراي «الشركاتي» الذي يتملكه هاجس «البيت» والتراتبية hierarchy مثله في ذلك مثل المحاربين القدامى. ولا يزال اليابانيون يحتارون كثيرا في أمور مثل التحديد الدقيق لقيمة الهدايا التي تُقدم مقابل خدمات محددة قيمتها بدقة، أو تحديد الأزياء المناسبة لكل مناسبة محددة، والمكان المحدد للجلوس حسب المكانة الاجتماعية، ودرجة البعد والقرب.

ويضمر كثير من اليابانيين نوعا من الشعور المصطنع بالحنين لعصر إدو، ونقول مصطنعا لأنه معدل ومنقى ومصفى. ومن بين الأمثال القديمة التي لا تزال تتردد في الريف، مثلا، قولهم: «ثلاثة منازل في الواجهة، ومنزل على كل جانب»، وهو نصيحة بسيطة بعدم الشروع في العمل قبل إجراء مسح لكل ما حولك، وهو وصف دقيق للكيفية التي يعمل بها النظام المعقد للواجبات والالتزامات، وكثيرا ما يقدم هؤلاء الذين يقيمون بالقرى القديمة هذا المثل

الأنثروبولوجية روث بنيديكت Ruth Benedict، نادي **الكرايزانثيمم والسيف** The Chryzanthemum and the Sword، الصادر العام ١٩٤٦. تذهب بنيديكت إلى أن اليابان تتميز بنوع من ثقافة الإحساس بالعار التي هي مختلفة عن ثقافة الشعور بالذنب: «تقوم ثقافات الإحساس بالعار على إعطاء الاعتبار للرادع الخارجي بضمان السلوك القويم، وهي في ذلك تختلف عن الثقافات الحقيقية للشعور بالذنب، التي تقوم على اقتناع داخلي بالذنب».

لا يمكن ألا نأخذ هذه الملاحظات في الاعتبار، لكنها بمثل ما تكشف عن أمور تخفي أخرى. فاليابانيون يداخلهم إحساس بالعار عندما يتجاوزون حدود السلوك القويم، لأنهم يجلبون العار على بيوتاتهم. ولكن هل يوجد في العالم بشر لا يعرفون وخزات الشعور بالذنب، أي بشر بلا ضمير؟ ويمكن أن يكون الولاء شيئا مرغوبا، ولكن فكرة اليابان عن الولاء، ذلك الولاء الذي لا يسمح بأي أسئلة، أفضت بها إلى حرب عالمية، كذلك لم يكن العمل الدؤوب الجاد، عبر التاريخ، إلا أمرا تستوجبه الضرورة القصوى. أما عن تبجيل السلطة، فيمكن فهمه بشكل أفضل باعتباره خنوعا ولّده الخوف.

إن صورة واضحة للماضي تفضي إلى إحدى الأفكار الأساسية عن اليابانيين، إلى مفهومات تغير كل شيء، فمتى ما اكتشفنا الصراعات المخبأة تحت السطح، فإن ذلك يقودنا إلى فهم إن الهوية الجمعية تستند إلى القهر والسلطة أكثر مما تقوم على التقاليد والثقافة. ومن ثم يتعين أن نعيد التفكير في استنتاجاتنا عن الخصائص التي يتميز بها اليابانيون، والتي نحن مدعوون إلى الإعجاب بها. والسؤال هو: هل هي صفات تدعو إلى الإعجاب بدرجة تدفعنا إلى محاكاتها؟ إن ما يدعو إلى الإعجاب حقا، وبكل المقاييس، هو النضال الطويل المخبأ ضد الإرهاب والطغيان الإقطاعيين، وهو النضال نفسه الذي نعجب به في تاريخنا. إن الخصائص النفسية السائدة بين اليابانيين قد تفاجئنا حقا، كما لاحظ لافكاديو هيرن Lafcadio Hearn منذ حوالى قرن من الزمان. ولكن يجب أن نستنتج أنه ليس هناك ما هو «ياباني» بشكل خاص فيما نطلق عليه الشخصية اليابانية، وإنما يمكن لنا أن نتحدث، فحسب، عن أناس تعرضوا لظروف معينة، وردود أفعالهم تجاه هذه الظروف.

كانت العادة البدائية للتقييد والإبعاد، والتي استقرت في أثناء عصر إدو، هي ما حاول اليابانيون أن يتغلبوا عليها في دواخلهم، عندما تأملوا مسائل

الأوائل، لم يكن التحديثيون الأوائل في اليابان ليهتموا إلا بالأشياء الـ (مونو mono) فقط، أي بالأدوات المعدنية.

ولكن كما أن اليابان كانت دولة ولجت مجال التنمية متأخرة، فإنها كانت أيضا مبكرة وسبّاقة، والحق أنها كانت الأسبق. فعلى الرغم من أن اليابان بين دول العالم المتقدمة، تكاد تكون هي الأخيرة، فإنها بين دول العالم الثالث هي الأولى. كان اليابانيون هم الأوائل من بين الشعوب غير الغربية الذين استوعبوا أشياء العالم الغربي. ولم يفعل قادة اليابان المحدثون أكثر مما فعله كثير من قادة العالم الثالث منذئذ: فقد تبنوا الأساليب التكنولوجية للغرب، بينما حافظوا على الهوية الاجتماعية والروحية والنفسية للماضي. ومنذ قرن، أطلق اليابانيون على هذا واكون يوساي wakon yosai، أي الروح يابانية، الأشياء غربية، أما اليوم فلعلهم يدّعون الاعتقاد في «القيم الآسيوية»، تمييزا لها عن القيم العالمية.

وسرعان ما سارت اليابان في ركاب المعتقد الغربي باغتراب الإنسانية عن الطبيعة، ومن ثم بدأت في إخضاع العالم الطبيعي، وكان ذلك من المتطلبات الأساسية للتصنيع، لكنها رفضت فكرة الغرب التي تُعلي من شأن الفردية. وعوضا عن ذلك، حاولت اليابان أن تبقى مجتمعا جماعيا ــ ومن هنا جاءت فكرة «الدولة العائلة» ــ حيث يعتمد الفرد على سلطة الجماعة. وبعبارة أخرى، رفضت اليابان فكرة أن الناس هم صُنَّاع تاريخهم، وأنهم وسائط مستقلة للعقلانية والحكم على الأمور والتمييز. فما كان لمثل هذه الفكرة إلا أن تمنع من اجتياز الحدود، مثلها في ذلك مثل خضراوات مُصابة بالأمراض النباتية، أو صحف أجنبية لم تسمح بها الرقابة. وباختصار، لم تصبح اليابان عصرية بقدر ما أصبحت مستهلكة لما هو عصري.

هل يعني هذا الكلام أنه بمثل ما كان للغرب عصر تنوير، فإنه يتحتم أن يكون لليابان ولغيرها من بقية بلاد العالم عصور تنوير مناظرة؟ ذلك هو الخطأ الذي وقع فيه نادي الكريزانثيمم «ونظريته عن التحديث»، التي تتلخص في أن التحديث مرادف للتغريب، وأنه يتعين على الجميع ـ إن آجلا أو عاجلا ـ أن يسيروا على دربنا نفسه، ولكننا لا نريد أن نقع في الخطأ العكسي، والذي يتلخص في الذهاب إلى أن تحرر الفرد شيء مميِّز للمجتمعات الغربية وحدها في لحظة تاريخية بعينها. حقيقة إن اليابانيين لم

حتى العام ١٨٦٧ كان العرش قد أصبح غائبا عن الحياة العامة، ولم تكن سلطته المبهمة إلا أسطورة. ومع الإحياء، خرج الإمبراطور فجأة من الظلال الواهنة وعاد ليحتل مكانه في واسطة المسرح. وهكذا، في قلب كل خطوة إلى الأمام توجد ردة إلى الوراء، فالإمبراطور الذي كان مقدّرا أن يصبح ملكا عصريا، كان أيضا ملكا ـ إلها ـ من النوع الذي لم يشهده الزمان منذ القدم.

كانت الأحداث التي أفضت إلى الإحياء الإمبراطوري شديدة الغرابة، ففي ١٨٦٦ شهدت الساحة السياسية تشابكا بين القوى المساندة للشوجون والقوى التي تدعم العرش، واضطرمت نيران الشوفينية المعادية للأجانب، والتي كان البيروقراطيون يغذونها لمدة طويلة. وتسبب ضعف المحاصيل والنمط الجديد للتجارة الخارجية (استيراد السلع المصنعة، وتصدير الذهب والفضة)، تسببا في انهيار الاقتصاد. وكان القلق الشعبي قد وصل إلى الذروة، حيث تواترت كل شهر معدلات انتفاضات الريف إلى أكثر من مائة مرة، واضطرابات المدن عدة مرات، وتخلل كل هذا فيض من نُذُر قائمة على الخرافات الشائعة. وفي ذلك العام مر بالسماء مذنب اعتبره الناس علامة على تغيُّر وشيك لا يُعرف مداه.

في أوائل العام ١٨٦٧، سار كل شيء بهدوء غريب، توقفت الاضطرابات الأهلية تقريبا، ولكن لم تلبث اليابان، في الخريف، أن انفجرت في حالة من المرح والانتشاء: مزيج من هياج الشوارع والهيستيريا الدينية، واحتساء الساكي، والرقص العفوي المعربد، وازدانت البيوت بكعك الأرز والزهور وأشغال القش الزاهية الألوان، وامتلأت الشوارع بأصوات ورنين الأجراس والنواقيس والطبول والصفافير والمزامير، يرقص على إيقاعها الراقصات والراقصون، الصغار والكبار، وأقدم السوقة والسكارى على انتهاك حرمة بيوت المتيسرين والأثرياء دون أن يخلعوا أحذيتهم، وترددت الأهازيج الشعبية تتغنى بلذائذ الطعام والساكي والجنس، وكنت ترى الناس يخلعون على الغرباء ثيابهم ويبعثرون في الطرقات نقودا. اجتاحت هذه النوبة الجنونية البلاد من إدو إلى هيروشيما بعد أن بدأت آلاف من التمائم والرقى الورقية المرسوم عليها صور الآلهة البوذية والشنتوية تسقط من السماء.

لم يفسر أي من المؤرخين كيف أمطرت السماء تمائم، لكن التمائم لم تكن الملمح الوحيد الغريب لهذا الفاصل المسرحي الجماعي المدهش، فارتداء الملابس الغريبة وتداولها كان منتشرا. وعلى الرغم من كل الغضب المكبوت

تمتلك قيمة تفوق الوصف تسمى كوكوتاي kokutai، «الروح القومية». ولكونها عائلة ـ دولة، ولأن لديها إمبراطورا هو سليل الآلهة، ولأن لديها هذا الشيء الفريد المسمَّى بالروح القومية، فإن كل ذلك جعل اليابانيين شعبا مختارا. ونُشرت هذه الأفكار بألف طريقة مختلفة. وبدلا من تشجيع الفكر النقدي، وتزكية الفرد كعنصر فاعل في تشكيل المجتمع، عمد الأيديولوجيون إلى تشجيع سلوكيات الفعل المنعكس الشرطي، حيث الفرد مجرد شيء يتعامل به المجتمع. وهكذا لم يحصل اليابانيون إلا على الأيديولوجية، عوضا عن الديموقراطية والاستقلالية.

كان المطبخ الأيديولوجي لليابان حافلا بالتلفيق، غير أن النخبة اليابانية لم تكن متفردة في اختراع التقاليد، فقد كانت ألمانيا الجديدة في عهد بسمارك تفعل الشيء نفسه. فالأمتان كانتا باحتياج إلى الشرعية، باحتياج إلى أداة تجعل الناس يشعرون بأنهم «ألمان» هنا، أو «يابانيون» هناك. وإذ كان قادة اليابانيين أنفسهم من الساموراي السابقين، فقد لجأوا إلى ماضيهم لخلق اليابانيين الجدد. فلتكن اليابان أمة من المحاربين النبلاء، الجميع في خدمة الإمبراطور، وفقا للمفهوم القديم نفسه المميز للولاء، وكل أشكال التشدد العتيد. وغالبا ما تُفتقد هذه السمة من سمات العصر الحديث، وإن تكن جوهرية، فبينما كانت اليابان مشغولة بالتغريب، فقد كانت مشغولة أيضا بتأكيد «ساموريتها». وقد قام هيروبومي إيتو Hirobumi Ito، أول من تولى منصب رئيس الوزراء، وهو ساموراي سابق بدأ يحمل سيفه في سن الثالثة عشرة، في الوقت الذي وصلت فيه سفن الكومودور بيري، قام بشرح هذه النقطة لزملائه في ثمانينيات القرن التاسع عشر قائلا:

إن المهمة الرئيسية التي تواجهنا اليوم هي أن نغرس في أذهان الأهالي كلهم روح الولاء والتفاني والبطولة، التي كانت في السابق ترتبط بطبقة الساموراي، وأن تجعل هذه القيم قيمهم. وهكذا يجب أن نعلم الناس العاديين أن يعملوا ويدرسوا باجتهاد من أجل أحيائهم وقراهم، وألا يترددوا أبدا في أمور قد تؤدي إلى تدمير عائلاتهم، وفوق ذلك لابد ان ينمّوا شخصية مطيعة وسلمية، وأن يحترموا القانون، ويظهروا تفهما لقيمنا الأخلاقية النبيلة، والمشاعر القومية الرفيعة.

إن أمة من الساموراي سوف تكون شيئا مختلفا تماما عن اليابان التي كانت في السابق، ستكون مكانا للصراع بين العظيم والضئيل، بين الخاصة والعامة،

مساهما في تكوين أمة عصرية، فكرة شديدة الجاذبية بالنسبة لقوم كانوا حتى وقت قريب جدا مجرد عبيد بلا ألقاب.

غير أن ذلك لم يستطع، بالطبع، أن يحل مشكلة الشخصية العامة التي كانت واضحة بشدة في وقت الإحياء الإمبراطوري. فماذا صار إليه كل هؤلاء الأفراد الذين ارتفعت أصواتهم حينذاك؟ ومهما كان النظام الإمبراطوري قادرا على احتواء كل شيء، فإننا نخطئ إذا اعتبرنا اليابانيين جميعا، إلى آخر فرد فيهم، أصبحوا تابعين متفانين للأيديولوجية الإمبراطورية، لأننا بذلك ننكر عليهم أي قدر من تعددية التكوين النفسي والاجتماعي للبشر. فالحقيقة أنه بدأت لعبة خداع بين المثل العليا المعلنة للميجي من جانب، وحقائق الحياة العصرية من جانب آخر، وهي لعبة كان أبطالها الأفراد المتخفين حول الأقنعة الجمعية العامة، فعلى الصعيد العام، كان الفرد في اليابان الجديدة يكافح من أجل الإمبراطور والدولة، وعلى الصعيد الشخصي، كان يكافح من أجل نفسه.

لم يتمكن إلا عدد قليل من اليابانيين من حل التناقض الذي صادفهم بسبب تلك الحالة من التحديث المبتسر لعصر الميجي. ومسألة (أن تكون يابانيا)، فضلا عن أن تكون شخصية متفردة، كادت تكون معضلة ميئوسا من فهمها. ولا عجب أن تزايد عدد المتهوسين الأيديولوجيين الشاكين من تفشي روح الأنانية، لأن لعبة الخداع كانت منتشرة جدا، ولا عجب أيضا في أن سوسكي ناتسومي Soseki Natsume، أحزنه المشهد العام حزنا شديدا. (وناتسومي هو الروائي العظيم للفترة العصرية المبكرة، وهو كاتب عظيم بكل مقياس في أي عصر وفي أي أمة). والارتباك المتفشي بين اليابانيين اليوم تمتد جذوره إلى ذلك الزمان.

عاش سوسكي حياة مضطربة، وكثيرا ما وصلت معاناته إلى حافة الانهيار الوجداني، وسافر في العام ١٩٠٠ إلى إنجلترا، حيث بذل جهدا كبيرا لمعرفة كل ما يستطيعه عن الغربيين وآدابهم، ثم توصل إلى الاكتشاف الذي سيحكم حياته كلها فيما بعد: إن الدرس العميق الذي يتعين على اليابانيين أن يتعلموه، هو ألا يحاولوا أن يكونوا مثل الآخرين، وإنما أن يكونوا أنفسهم، وأن يعيشوا فرديتهم الأصيلة الخاصة بهم. وكرس سوسكي حياته ككاتب محاولا أن ينقل هذه الحقيقة البسيطة، لكن العبء ظل دائما ثقيلا على كاهله. كانت القضية نعمته ونقمته، لأن الذين فهموه كانوا أقل القليل.

الرجال الجدد»، بأن تحدث «إعادة بناء عقلاني لليابان المعاصرة». وشهدت العشرينيات فترة من الحكم الحزبي، وهو ما يرقى إلى مستوى المواجهة المباشرة للأوليجاركية الحاكمة العتيدة. وحينذاك انتقل اليابانيون من التركيز على المؤسسات إلى التركيز على النواحي النفسية: ذلك أنهم بدأوا في مناقشة الذات الاستقلالية (شوتاي ـ ساي) في العشرينيات. لكن عصر «ديموقراطية تايشو» كما يسمونه، كان قصير العمر، فقد كانت البنية الاجتماعية والسياسية لا تقوى على دعم وتحمل كل الأفكار الجديدة ـ والتي لم تكن في التحليل النهائي إلا أفكارا مستوردة. وبينما كان رد فعل المثقفين هو رفض المنابع الأجنبية للأشياء التي ألهمتهم، شرع الديموقراطيون في التحول إلى وطنيين واشتراكيين وطنيين(*).

وسرعان ما جاءت الثلاثينيات، حين استولى العسكريون على السلطة في اليابان، وأطفأوا الأنوار وأنهوا، من بين أشياء أخرى، التوجهات الديموقراطية والكلام عن الذات الاستقلالية، وما إلى ذلك. وكان يتحتم أن ينتظر كل هذا حتى نهاية الحرب القادمة: «الحرب الشاملة» ضد الغرب.

* * *

ذات يوم في ديسمبر ١٩٤٥، كان أحد الصحافيين الأمريكيين، ويدعى مارك جاين Mark Gayn، يتجول في حي شيمباشي Shimbashi، جنوبيّ محطة طوكيو ومنطقة جينزا Ginza. وكان شيمباشي، كشأنه حتى الآن، حيًا محموما يمور بالنشاط، مخصصا للمشروعات التجارية والصناعية الصغيرة، وإن كانت الحرب لم تكن قد خلفت ـ حينذاك ـ إلا سوقا سوداء صاخبة. سجّل جاين ملاحظاته عن الرحلة في كتابه **يوميات عن اليابان** Japan Diary. ومن بين ما جاء فيها أن: «سائقي الترام يجدون صعوبة في منع الناس من التدخين، على الرغم من لافتات «ممنوع التدخين»، فقد كان المدخنون يقولون: «أليست عندنا ديموقراطية؟»

وفي ذلك أحسن تعبير عن التشويش والخلط اللذين كانا في انتظار الأمريكيين، فقد كان السؤال المطروح هو: ما هذا الشيء الوارد من الخارج

(*) يلمح الكاتب هنا إلى الحزب الاشتراكي الوطني الألماني فيما بين الحربين العالميتين، وهو الحزب النازي الهتلري نفسه (المترجم).

اليابان كان يمكن أن تكون أفضل حالا لو لم تجئها سفن الكومودور بيري السوداء، فلربما صارت أفضل حالا لو لم يجئها احتلال، على الأقل كما ظهر فيما بعد. حدث في ١٩٤٥ أن فتح الأمريكيون الأبواب مرة أخرى، لكنهم لم يلبثوا أن أغلقوها بفرض النهج العكسي. وأصبحت الديموقراطية ـ مرة أخرى ـ شيئا للعرض، لأننا جعلنا من المستحيل على اليابانيين أن يبنوا مجتمعا مدنيا. منحنا اليابانيين دستورا جديدا مليئا بالحريات الليبرالية والحقوق المدنية، لكننا لم نلبث أن أعدنا نخبة ما قبل الحرب إلى الحكم، وهم الأساتذة المجربون في اللعب بما يسمونه «التقاليد الجميلة»، فجعلوا من اليابان ما هي عليه اليوم: نموذجا عصريا للمجتمع الجمعي.

ليس هناك وصف لسنوات ما بعد الحرب قادر على تعمق صراعاتها الأساسية، مثل رواية **الرحلة** The Journey، التي كتبها جيرو أوساراجي Jiro Osaragi في أواخر الخمسينيات. ولا يستخدم أوساراجي مصطلح شوتاي ـ ساي، لكنه كان هو موضوع روايته الحقيقي، فالشخصيات الرئيسية في روايته تناضل ضد كل الأعراف القديمة، وهم يناضلون من أجل أن يتخذوا قراراتهم بذاتهم، وأن يعتمدوا على أنفسهم، وأن يسيروا وراء أفكارهم ومشاعرهم الخاصة. هؤلاء هم أبطال اليابان، هكذا يخبرنا البروفيسور العجوز الذي يتحدث الروائي من خلاله. وفي إحدى الفقرات يقتبس البروفيسور عبارة مأخوذة عن أحد أساتذة طقوس حفلات الشاي التقليدية، حيث يقول: «إنني أحضُّكم على أن تفعلوا كل ما في هذا العالم من أفعال رديئة». وفي هذه الكلمات كما في «الفازات» الإغريقية الأثرية ثمة نوع من التقدير للعيوب التي تكون علامة على أصالة الأشياء الجميلة ذات القيمة – ذلك أن البروفيسور يستطرد قائلا:

تتلخص الفكرة الجوهرية في أنه إذا كان المرء لا يستطيع أن يفعل شيئا سيئا في هذا العالم، فهو لا يستطيع أيضا أن يفعل أي شيء جيد. ليس مطلوبا أن يتكون البشر من المظهر الجذاب والأداء المتناسق فقط. يجب ألا نصبح مثل يرقات الناموس التي تُربى بالتوالد في الماء الفاتر تحت الشمس... لا نريد مثل هذا الأسلوب للتربية! لا نريد ذلك النوع من الأشخاص الذين ليس لديهم إلا مقررات التعليم المتمدنة التقليدية. إن ما نحتاج إليه هو أناس مخربشون، خبثاء بقدر، ولكن شخصياتهم متفردة.

في هذا الوقت، وانشغلت ببحث مشكلات وقضايا تبدأ من البيئة والطاقة النووية وصولا إلى إعادة فحص الكتب المدرسية والاستقلال السياسي المحلي، وكلها قضايا تعبر عن رغبة واسعة للإفلات من أسر الكوابح القديمة. وعبرت إحدى المناضلات عن تلك الفترة تعبيرا واضحا قائلة: «لقد أردنا أن نعيش دون حاجة لأن نتلفت دائما حولنا ذات اليمين أو ذات اليسار وهنا وهناك، وهي عادة كانت مغروسة في أعماقنا جميعا». وليس بمستغرب أن الذات الفردية المهتمة بالقضية العامة أصبحت بوضوح قضية سياسية. والحق أن الشخصية العامة كانت دائما قضية سياسية. ولم تلبث التشكيلات الجماعية الصغيرة أن اختفت، وسارت حركات الاحتجاج في الستينيات في المسار الذي أفضى بها إلى ما أفضى بأشباهها - إلى طريق مغامرة راديكالية والعمل في الظلال. لكن المهمة أمام اليابانيين لم تتغير مقدار ذرة منذئذٍ: وتظل هي مهمة خلع الأقنعة وهدم الجدران الداخلية.

ذات مرة، أجرى العالم النفساني روبرت جاي ليفتون Robert Jay Lifton، الذي أمضى سنوات كثيرة في دراسة اليابانيين، أجرى لقاء مع طالب تقدمت به السن في الستينيات. وكمعظم أبناء جيله، كان الطالب مشوشا للغاية حين يتأمل أمر اليابان التي يراها ويفكر في مكانه فيها. فقبل أن يبلغ الخامسة والعشرين، تقلب هذا الشاب بين كونه: وطنيا متعصبا، وديموقراطيا غربي النزعة، ومتحمسا لفنون القتال، وطالبا محبا للصداقة مع أمريكا، ومسيحيا، ويساريا راديكاليا، ثم عاطلا متسكعا. وكانت هذه كلها بالنسبة للطالب بدائل متنوعة للذات، أساليب مختلفة للكينونة، إلا أنه فيما يبدو لم يندمج اندماجا كاملا في أي من هذه الحيوات المتتابعة. لم تكن بالنسبة له إلا أدوارا، أو ربما على الأصح، ماركات متنوعة للحياة العصرية موضوعة على الرف يسهل تناولها وتجربتها. وأخيرا انساق إلى وظيفة مكتبية في إحدى الشركات الكبيرة.

كشف ليفتون عن حالة متفشية بين اليابانيين المحدثين، حالة النزوع أو الميل للإغراق في الأحلام، وكانت أحلام اليابانيين بعد الحرب شبيهة بأحلامهم في عصر الميجي، كانت أحلاما بالهروب. كان رجال الساراري(*) يحلمون ببداية جديدة لحياتهم، ملكا لهم، ووفقا لرغباتهم. ولديهم تعبير

(*) «المحاربون من أجل الشركة»، و ورد الحديث عنهم في الفصل الأول (المترجم).

أيضا من أجل الديموقراطية. وحيث إن اليابان ليس لديها تجربة الفردية العامة ولا آليات التعبير عنها، فقد اندفعت مرة أخرى إلى تجربة مشوشة. علق ليفتون على ذلك في أواسط التسعينيات بقوله: «إن أحشاء هذا المجتمع البالغ التأنق بدأت تطفو على السطح»، ويستطرد: «إن اليابانيين في حالة غليان داخلي». والحق أن هذا توصيف صادق، وإنما بقي أن نتبين أن اليابان كانت تغلي منذ مدة طويلة جدا، ولا تزال.

ولما كان تخلل شبكة الاحتواء عملية تدريجية بطيئة بطبيعتها، بل إنها تزداد بُطئا، (إلا أنها عملية لا تخطئها العين، يراها المراقب في المدارس وفي الأحياء والمكاتب، وفي تكاثر الثقافات الفرعية بكل أنواعها) يقل تعريف الناس وفقا لانتماءاتهم إلى الجماعات التقليدية. وأصبح الساموراي موظف الشركة ـ الوفي، المتفاني، مثال الياباني المنتمي ـ في سبيله إلى أن يكون شخصية تمُتُّ للماضي. ويرى المرء الدليل على هذا التغير، خاصة في الحياة السياسية، فوراء كل الفوضى الظاهرة والتي تتمثل في التحالفات المتغيرة باستمرار، وفي ظهور وانهيار الأحزاب السياسية والتآلفات والوزارات، وراء كل هذا عملية بناء نظام قادر على احتضان البزوغ التاريخي للذات المدنية وتنميتها، والمقصود بالذات المدنية هو «النموذج الجديد للإنسان الديموقراطي»، وفقا لتعبير التحديثيين من أتباع مارورياما بعد الحرب، هو الفرد المشتغل بالحياة العامة، الذي نزع القناع عن وجهه.

لقد لاحظنا الظروف العملية المحيطة بهذا التغير الخطير، فقد أصبحت اليابان ندا للغرب بالحسابات المادية؛ وكذلك انتهت الحرب الباردة. غير أن المجتمعات لا تتطور أي تطور جوهري لأنها حققت نجاحا اقتصاديا، أو لأن المناخ العالمي قد تغير، وإنما هذه العوامل، مثلها مثل السفن السوداء التي جاءت منذ قرن ونصف القرن بقيادة بيري، ليست إلا محفزات لعوامل التغيير التي كانت تتجمع من قبل، فالمجتمعات تتغير لأن الناس فيها يريدونها أن تتغير. وتلك هي الحقيقة التي تلقفها اليابانيون ويتشبثون بها في أيامنا هذه، وهي حقيقة صادمة بمثل ما هي مُحرِّرة: فالناس يغيرون المؤسسات، وفي التحليل النهائي، ليست المؤسسات هي التي تغير الناس.

ويميل اليابانيون بشدة للتمييز بين الأجيال، حتى يبدو كل جيل مرحلة انطلاق، وكأن كل جيل مكلف مهمةً معينة. وفي السنوات الأخيرة أصبح من

الماضي قد انتهى على نحو ما، وأنهم قطيعة حاسمة معه. كان أهاليهم قد أكملوا المشروع التحديثي، وكان الجنس الجديد هو الذي استطاع أخيرا، بمسافة البعد التي تفصله عن التاريخ، أن يرى ويدرك الثمن الباهظ الذي دفعه اليابانيون لتحقيق النجاح المادي. وتلك كانت المفارقة التي واجهوها: كانوا يستهلكون ببذخ، لأن تلك هي متعة الحياة الوحيدة، ولكن يبدو لي أنها كانت دائما تبدو متعة ممزوجة بقدر من الازدراء المرير للاستهلاك.

ولا شك في أن عددا كبيرا من الجنس البشري الجديد الآن قد انخرطوا في عداد رجال الساراري، وانساقوا في الحياة الجماعية باللامبالاة نفسها التي انساق بها الطالب المتردد الذي أجرى عليه ليفتون دراساته. لكن ليست هذه هي القضية، ذلك أنه عندما يتبادل المرء معهم الحديث، فإن أبناء هذا الجيل وبناته يكادون يجمعون على أن همهم الأساسي هو أن يروضوا زمنهم، فما الذي يقصدونه بذلك؟ من المؤكد أن المعنى لا يتعلق بمجرد تمضية الأيام والساعات، إنما يتعلق بالأسلوب الذي يقسم به الناس وقت الحياة العصرية في اليابان. وفي هذا السياق فإن ترويض الوقت يعني تأكيد إدارة الناس لحياتهم الشخصية كأفراد، يعني أن يعيدوا رسم الخط الفاصل بين ما هو عام وما هو خاص - وأن يجعلوا حياتهم الشخصية أمرا مقبولا، لا سريا ولا مختلسا، وأن يعيشوا حياتهم في العلن كشخصيات متفردة مستقلة جديرة بالثقة.

بهذا المفهوم، يكون الجنس البشري الجديد اسما على مسمى، ويبدو لي أنه علامة على بداية إعادة النظر في شروط وأعراف حياة اليابانيين. إن ما يريدون التخفف منه ليس أقل مما يسمى روح الجماعة التي طالما كبلت حياة اليابانيين، ومن ثم يقدمون أسلوبا جديدا لتحقيق وجودهم الفردي، وهو أمر يختلف عن الفكرة القائلة بمعنى أن تكون شخصا هو أن تكون شخصا يابانيا. يكاد يكون من المحقق أنهم سيظلون أعضاء في الجماعة، ولكن أعضاء باختيارهم. وجعلوا رفض لبس الأقنعة يتجلى، لا في شخصية بطل يتسلق الجبال، وإنما في شخصية الإنسان العادي. وهكذا شرعوا بكل هذا، في صياغة الفصل الأخير من تاريخ اليابان المخبأ، وهذا هو السبب في أنه لا يكاد يخلو وجه من أوجه الحياة في المجتمع الياباني اليوم من التدفق والتغير المتواصلين.

يشرح أحدهم الموقف قائلا: «ليس صحيحا أننا نرفض القيام بأي جهد». ويستطرد: «إنما نحن مكرسون لاكتشاف أشياء جديرة بأن تُبذل الجهود من

وربما ما تزال كذلك. كانت أعمالها مزدهرة، تؤجر مهمات المكاتب، وماكينات الصناعة، تمتلك ثلاثة مصانع، ولديها ١٦٠ مكتب تسويق وما يقرب من ألفي موظف، ويتبعها فرع في شيكاغو وبانكوك، ومدرجة في بورصة طوكيو، ووصلت إيراداتها السنوية إلى ٦٠ مليون ين، أي حوالى ٦٠٠ مليون دولار.

كان الرجل الذي أعطاني البطاقة في حوالى الثلاثين من عمره، أي واحدا من أبناء «الجنس البشري الجديد». على أحد وجهي البطاقة مكتوب «تارو هونمارو»، مدير عام، وعلى الوجه الآخر مكتوب: «اسمي الحقيقي هو: كيشي ناكامورا». فما معنى أن يكون لمدير ياباني شاب، اسمان؟

لقد بدأ النظام بشكل طبيعي تماما. ذلك أنه بعد أن وظف رئيس الشركة ابن عمه في الشركة، وكان يحمل اللقب نفسه، فإن الرئيس سرعان ما ضاق بالخلط الناتج من ذلك. ومن ثم أطلق على ابن عمه اسم «إيمافوكو - سان Imafuku-san»، وفقا لاسم مسقط رأس هذا القريب. وتصادف ان كان شكل الحروف التي تكتب بها كلمة إيمافوكو لها معنى آخر هو «محظوظ»، وكان ذلك من محاسن المصادفات، لأن ذلك يصلح لأن يكون لقبا دائما. وهكذا تطور النظام، كان الرئيس يدعى كين (سلحفاة)، بسبب طباعه الخشنة. وكان ثمة أحد المديرين من قرية جبلية سمى نفسه كوداما - سان، وكوداما هو اللفظ الياباني الذي يعني الأصداء التي تتردد بين القمم الجبلية. كما وجد أحد مشجعي الفرق الرياضية يسمى ريكيشي - سان (لأن ريكيشي هو تسمية أخرى لأحد مصارعي السومو) وكذا شخص آخر يسمى هيتومي - ساكورا (زهرة السوسن الوردية). والمدير العام الذي شرح كل هذه الأمور هو هونمارو - سان، لأنه كان يعمل في قسم التخطيط في المكتب الرئيسي. وهونمارو هي الأبراج المركزية في قلاع الدايميو الإقطاعيين.

وكان هونمارو - سان طويل القامة، طفولي التركيب، مولعا باستطلاع الطرائف: الخلط والارتباك في فنادق رجال الأعمال، ودليل الكومبيوتر حيث تجرى المطابقة بين الأسماء الحقيقية والأسماء المنتحلة. ولم يكن يبدو عليه أنه يعرف ما يمكن فهمه من مثل هذا النظام عن اليابان واليابانيين، أو ما معنى أن يكون الاسم الحقيقي للشخص يمثل الذات الشخصية الأصيلة، وأن الاسم المنتحل يمثل الذات العامة، أو، القناع. ومن بعد، ونحن نجلس متقابلين

3 تنشئة النيهونجين(*)

إنه ربعة، ذو نظرة يقظة، وشعر قصير كثّ قُصَّ على طريقة البحارة، القصة التي يحبها أكابر القوميين. وفي الحوار، لا يعرف التردد، ولا يتوقف للتفكير. إنه يوزوكي كوباياشي، الجالس مع ستة من زملائه حول مدفأة كيروسين، وينصب من نفسه متحدثا باسمهم، مبتسما بغير تكلف، ولكن، إذ هو نجل مزارع، يتصرف بكبرياء وثقة في النفس.

ويوزوكي كوباياشي في السابعة من عمره، تلميذ في الصف الثاني بمدرسة ساكاي الابتدائية، وهي مبنى حجري من طابقين مقام على طريق منحدر ضيق في قرية فوجيمي Fujimi، التي يشي اسمها بمشهد جبل فوجي الذي تطل عليه من بعيد.

وفوجيمي مجتمع من المزارعين وعمال المصانع في مقاطعة ناجانو Nagano، درجة

(*) هذا الفصل مخصص لدراسة وتأمل العملية التعليمية في اليابان، وقد لجأ الكاتب إلى كلمة نيهونجين اليابانية nihonjin والتي تعني الشخص الياباني، للتأكيد على خصوصية ملامح الإنسان الياباني، كما تبرمجه وتدربه العملية التعليمية والتنشئة الاجتماعية (المترجم).

التعليم في اليابان ليس الهدف منه تكوين أناس يتقنون تقنيات العلوم والآداب والفنون، وإنما هو تصنيع الأشخاص المطلوبين للدولة.

أرينوري موري،
أول وزير للتعليم في اليابان، ١٨٨٥.

التزلج الصفراء، الجوارب الحمراء، السويترات الخضراء، والطواقي الصوفية من جميع الألوان.

«من أرسلكم هنا؟»

يجيب يوزوكي كوباياشي: «لقد جئنا بأنفسنا».

«ألم يطلب ذلك منكم أحد»

«ابتلت أقدامنا، هذا منطقي!»

«جئتم هكذا، دون أن يوجهكم أحد؟»

«قلنا للمدرس قبل أن نجيء».

ذهبت إلى ساكاي لألتقي بتلاميذ المدارس اليابانيين. لقد كان يوزوكي كوباياشي وأصدقاؤه يابانيين طبعا ـ مولودين في اليابان، لآباء وأمهات يابانيين، ولكن كان من الصعب أن نرى فيهم أي شيء ياباني بالمعنى الذي ألفناه، كانوا يملكون زمام شخصياتهم المستقلة تماما، وهي فكرة يراها أغلب اليابانيين محيرة، لم يكن لديهم أي مواقف أو سلوكيات محددة تجاه السلطة، ،ولم يكن يعنيهم كثيرا أن يكونوا جزءا من الجماعة، وما كانوا يلبسون أي أقنعة.

وتوجد مدرسة مينامي غير بعيدة من مدرسة ساكاي الابتدائية، وهي ـ أي المدرسة الإعدادية ـ مؤسسة أكثر خشونة بكثير، مدخلها الأمامي مفتوح على اتساعه ومعرض للبرد: وكأنه امتحان مادي لترويض الإرادة. الممرات غير مدفأة، أرضياتها من خشب متقادم، وإن يكن شديد النظافة: فالممرات والأرضيات تُمسح كل مساء بواسطة فرق من الطلاب، الذين يغمغمون مرحبين: نهارك سعيد (كونيشيوا Konichiwa)، بنبرة رتيبة، وعيونهم إلى الأرض في حياء.

يلبس جميع الطلبة في مدرسة مينامي السترات الغامقة نفسها (وهي من طراز السترات العسكرية البروسية القديمة) القمصان نفسها والسراويل نفسها ذات الحمالات، وطريقة قص الشعر نفسها، والأحذية الكاوتش نفسها، والجوارب من الماركة نفسها والطول نفسه، وتعلق حقائب الكتب المتماثلة على المشاجب الخشبية في غرف الدراسة. وتشرح اللافتات الجدارية الطرق الصحيحة للمذاكرة: تنصح إحداها باستخدام أقلام الرصاص السميكة، وتبين أخرى المسافة المناسبة التي يجب أن تفصل العين عن الصفحة المقروءة (٣٠ سنتيمترا).

وتثير التوجيهات المتعلقة بدراسة التاريخ المحلى شيئا من الدهشة، حيث توحي بالتخلي عن اليد الثقيلة للرقابة المركزية المميزة للمدارس اليابانية. أما عن الاستبيان، فإنه يتطلب شيئا من التفكير والخيال. هذا بينما كانت العادة قد جرت على أن يسير التعليم وفقا للتلقين والصَّم، والتقدم يتم ببساطة بتكرار وحفظ ما يُلقنه الطلاب.

أما عن عدم الثقة الذي تنم عنه حصة اللغة الإنجليزية فإنه قريب مما كنت أتوقع رؤيته في مدرسة مينامي. صحيح أنها كانت السنة الأولى لدراسة اللغة (حيث الحد الأدنى للدراسة ست سنوات)، ولكن للوقفات والسكتات العصبية تفسير آخر، إذ هي تكشف عن الارتباك الذي يشعر به اليابانيون عادة عندما يواجهون كل ما هو غير موجود سلفا في الخطة. فاليابانيون متعلمون ومدربون على أن يقوموا ـ فحسب ـ بالأدوار المكتوبة نصوصها سلفا، ولكن إن وجدوا في موقف يتطلب استجابة مرنة ـ كأن تُوكل إليهم الفكرة التالية أو العبارة التالية أو الحركة التالية فإنهم يفقدون الاتجاه. وكم تفترق تلك الحال عن حال السيد كوباياشي الصغير وأصدقائه في ساكاي ـ الذين يفكرون لأنفسهم ويدبرون أمورهم الصغيرة بأنفسهم.

يعتبر اليابانيون أن الحرية ليست إلا من حق الأطفال الصغار وحدهم. ترسم اليابان دائرة حولهم تحتويهم، حيث لا يتعرضون لأي كوابح أو حدود اجتماعية أو نفسية، وهم في داخل هذه الحاوية أباطرة الحياة اليومية. والصينيون أيضاً مشهورون بإعزازهم وتدليلهم لأطفالهم. ولكن اليابان وحدها هي التي يمكن أن تسمع فيها الأهل يقولون: «إن صغارنا أحرار، لأننا نعرف كم سيكون عبء الحياة عليهم ثقيلا فيما بقي من حياتهم».

كثيرا ما يسمع المرء التعبير عن هذه المشاعر، ولكن الأطفال الصغار، في التحليل النهائي، لا يتمتعون إلا بنوع هش من الحرية، لأنها حرية تُعطى لهم (ثم لا تلبث أن تؤخذ منهم) بواسطة الكبار ـ الأهل، المعلمين، الإداريين. فعلى الرغم من كل ما يتمتعون به من روح استقلالية فإن يوزوكي كوباياشي وأصدقاءه كانوا أيضا يتلقون دروسهم الأولى في الاعتماد على الغير ـ الاعتماد على السلطة الذي كان من السمات المميزة للشخصية اليابانية لقرون عدة.

ذلك أنه بمجرد أن يغادر الأطفال الدائرة التي كانت تحتويهم، فإن الحرية تُسحب منهم بالتدريج وتبدأ الشخصية الخاضعة في التشكل لتبقى حتى آخر

الاقتصادية للأمة ومتطلباتها تغييرات جذرية إلى درجة تجعلنا نستبعد الوصول إلى أي نتائج أخرى. ولكن الأمر يتطلب وضوحا وتصميما، وقرارا لن يكون سهلا أو سريعا.

ولقد أصبحت المدارس اليابانية في أيامنا هذه ميادين قتال. وليس في هذا ما يدعو إلى الدهشة، ذلك أن معظم المؤسسات اليابانية تعاني - تحت السطح - من الظاهرة نفسها. ومربط الفرس في كل ما يجري - عندما يصطدم المصلحون بالإداريين البيروقراطيين، ويتزايد عدد التلاميذ المتسربين من النظام التعليمي، وعندما يلجأ المثقفون لرفع دعاوي قضائية على وزارة التعليم لتعديل محتوى المواد في الكتب المدرسية - مربط الفرس في كل هذا هو الخلاف حول نوعية البشر التي يُسمح لليابانيين بأن يكونوا على شاكلتها، وليس أقل من هذا.

أليست هذه المدارس اليابانية هي التي أنتجت الرجال والنساء الذين أقاموا ثاني أكبر اقتصاد في العالم؟ الإجابة هي نعم. والمشكلة بالتحديد هي معادلة الخط المستقيم التي يتضمنها هذا السؤال. فبالنظر إلى التعليم من منظور تنمية الشخصية الفردية، نرى أن مسار التعليم الحديث في اليابان أصبح مسار الفرص الضائعة، والتنمية المبتسرة للشخصية، ولم تعد المدارس إلا مجرد أماكن للاعتداء المستمر على الفرد الذي كتب على اليابانيين أن يتقبلوه كجزء من الأعباء التي يتحملها الكبار.

وكان للسيد إيجيما، مدير مدرسة مينامي الإعدادية، النحيف الأصلع الشديد التنبه، كان له وجهة نظر أكثر تحديدا ودقة من السيد هوسونو، فيما يتعلق بالنظام التعليمي الذي كان يعمل فيه، على الأقل في الوقت الراهن، حيث يقول: «أن نعلِّم النشء الصدق والحقيقة، هذا أمر مهم، ولكن الأمر الأهم هو أن نعلمهم أن يكونوا يابانيين».

* * *

ونحن في الغرب لا نرى الخطر الكامن في نظام مكرس لتأسيس وبناء جماعة سكانية لخدمة الأمة. فنحن نربط العملية التعليمية بالقيم الليبرالية - المعرفة والبحث العقلاني، والتهذيب، وتوجهات المجتمع المدني. ولدينا مناقشاتنا ومساجلاتنا التي تدور حول ما يجب أن نعلمه وكيف، ولكن ليس لدينا نزوع للنظر إلى التعليم باعتباره وعاء «فارغا» يمكن أن يُملأ بأي شيء،

يه إن لم يكن لقيمته فلفوائده. ولكن كلام
د في العقيدة الجديدة. وفي العام نفسه
، الياباني اليوم»، نشرت محاضرة في جامعة
Merry Whi، كتابا بعنوان **التحدي التعليمي**
و الطفولة The Japanese Educational
Challenge: A، وهو كتاب طرحت فيه عددا

تعتبر مجرد شأن عائلي، فالحق أن الأمة كلها معبأة من أجل
الذي يتملك الأمة من أجل الأطفال يمكن أن يكون مصدر فخر
اجس الذي يمكن أن يكون مسؤولا عن أطفال تلتقي آفاق
حيواتهم ومستقبلهم مع معاييرنا. وباختصار، الطريقة التي ينتهجها اليابانيون في رعاية أطفالهم وتنمية ملكاتهم هي من الأمور التي يجب أن نحسدهم عليها.

فما منابع تعظيم فرص الحياة أمام الأطفال؟ وكيف يعكس الالتزام الكبير تجاه الأطفال منظور الأمة وفكرتها عن ماضيها وحاضرها ومستقبلها.

ومن المؤسف أن الدراسة التي قامت بها هوايت لا تلقي بالا للإجابة عن الأسئلة الممتازة التي أثارتها، بل إن الكتاب يجنح إلى تقديم إيضاحات لظواهر مثل «نقص الموارد» التعليمية، ومشاعر عدم الإحساس بالأمن المنتشرة في مجتمع زراعي، ووفقا لمقولة أحد المعلمين «الفطرة الأخلاقية المميزة لليابان».

وثمة إحصاءات كثيرة تدل على تفوق المدارس اليابانية، فتلاميذ المدارس اليابانيون يقضون في المتوسط سبع ساعات في الفصول الدراسية كل يوم، بالإضافة إلى ساعتين لعمل الواجبات المنزلية. أما متوسط التلاميذ الأمريكيين فهي خمس ساعات وعشرون دقيقة في المدرسة، وخمس وعشرون دقيقة للواجبات المنزلية. والتلاميذ اليابانيون في سن التعليم يقرأون في المتوسط خمسا وعشرين دقيقة كل يوم، وذلك أعلى مرتين ونصف قدر متوسط قراءة الأطفال الأمريكيين. والمعلمون اليابانيون مُعَدُّون إعدادا أفضل من نظرائهم الأمريكيين. وهكذا بكل المقاييس يعتبر الطالب الياباني أفضل من نظيره الأمريكي في التحصيل والمواظبة.

ولكن كيف ولماذا يصبح التلاميذ اليابانيون على هذا القدر من الانضباط، ومن أجل أي هدف؟ وما العادات الذهنية التي يكتسبونها؟ وما

١٩٩٥ إلى اثنتي عشرة حالة. وفي المتوسط، يبلغ عدد الطلبة المتسربين من كل مدرسة ثانوية في البلاد إلى عشرين حالة كل سنة؛ ويعاني من إدمان الكحوليات طالب واحد من بين كل ستة؛ وتبلغ نسبة حالات الزوغان حوالى ٥٪ من مجموع عدد الطلاب، ذلك أن التلاميذ الذين يُعدون بعشرات الآلاف يرفضون الخضوع للنظام التعليمي. والملاحظ أن هذه الأرقام والمعدلات تزايدت بشكل دراماتيكي في أثناء عشرية ١٩٨٠، ووصلت إلى أرقام قياسية في أواسط التسعينيات.

ولدى المعنيين، ليس ثمة رواج أو تشجيع لفكرة أن الزوغان والعنف والإدمان أمراض متوطنة في المدارس اليابانية. وحينما يرد ذكر هذه الأمور، فإنها تنحى في مكان ما بين الهوامش الإحصائية - باعتبارها أحداث شذوذ وانحراف قمينة بأن تحدث في النظم كبيرة العدد. صحيح أننا نخطئ حين نرى أن المدارس اليابانية أماكن خطرة أو خاوية، فهي ليست كذلك. ولكننا مرة أخرى لا نستطيع، ببساطة، أن نهمل شأن هذه الإحصاءات ونتركها هكذا، بلا تفسير، فمظاهر العنف ومعدلات التسرب وغيرها من المشكلات، هي أعراض لخلل واضطرابات تؤثر في حياة عدد كبير من الطلاب الذين لا تنبئنا الإحصاءات بشيء عنهم.

وتفصح المشكلة الجوهرية عن نفسها في المصطلح الياباني نفسه المستخدم للدلالة على «التعليم»، وهو «كيوإيكو kyoiku»، الذي يكتب في حرفين (رسمين)، ويعني الأول «نقل المعرفة»، والثاني يعني «التطوير أو التنمية». وفي الفرق بين الاثنين، يكمن سر الفشل المأساوي للمدارس اليابانية. إن وزارة التعليم هي التي تقوم بإقرار طرق التدريس والكتب المدرسية والمناهج من أول مناهج التربية الأخلاقية والتاريخ إلى التدريبات الرياضية الصباحية. وكلها تعنى بالتأكيد على إملاء المعارف مع إهمال العناية بقدرات الطالب على التحكم في زمام المعارف، أي الاهتمام بالكيو kyo على حساب الإيكو iku، أي أن التلاميذ يتعلمون ألا يفكروا، بل أن يكدسوا أكواما هائلة من حقائق متفرقة يمكن استعادتها عند الطلب، ولكن يستحيل الربط بينها، ولا يحدث هذا مصادفة أو عن غفلة، وإنما الاستظهار عن ظهر قلب هو الدرس الثاني الذي يتلقاه الأطفال في الاعتماد على الآخر. فالتفكير فعل استقلالي بينما الحفظ عن ظهر قلب هو الاعتماد على السلطة.

التي يجب أن تتوافر في النيهونجين الناجح: الاحتفاظ بذاتيته الفردية ضمن اطار خصوصياته، والمثابرة والتعسكر في مواجهة الخصم، والتواؤم والتكيف. وهذا يفسر لماذا يظل الترويع والعقاب البدني ممارسات مألوفة على الرغم من أنها مدانة رسميا. ولا تبذل وزارة التعليم إلا أقل الجهد في هذا الصدد باستثناء حالات قصوى، لأن الترويع والعقاب البدني هما أفضل الطرق لحمل رسالتها.

قابلت في مدينة كوبي طبيبا نفسيا اسمه ماساو مياموتو Masao Miyamoto تلقى تعليمه في كلية الطب في كورنل، ومارس المهمة في أمريكا لمدة عشر سنوات قبل العودة إلى اليابان، ثم اشتغل لمدة سبع سنوات في وزارة الصحة. وكانت مشكلة مياموتو بسيطة، تتلخص في أنه نأى عن حياة العشيرة. كانت حياته جحيما إلى أن تعلم كيف يتعامل مع المتطلبات القاهرة للحياة المنمطة من خلال مقاومتها ثم تجاهلها، وأخيرا الكتابة عنها. درج مياموتو على اتخاذ أربطة عنق ذات ألوان زاهية براقة، والذهاب للغداء مع رئيسه وزملائه وطلب أطباق مختلفة عما يطلبه الآخرون. لم يكن يعمل وقتا إضافيا، وكان يقوم بكل أيام راحته وإجازاته. والثمن الذي دفعه هو وقوعه تحت طائلة النبذ والترويع (إيجيمي). وعندما بدأ في نشر ملاحظاته عن الصعوبات والمضايقات التي صادفها في اليابان بعد أن عاش سنوات في الخارج، طلب منه أن يستقيل. ليس لأن ملاحظاته كانت مجافية للحقيقة، ولكن لأنه كشف دخائل جماعته لمن هم خارجها.

ولا ينتهي الترويع بعد التخرج، فالترويع بشكل أو آخر جزء من حياة كل نيهونجين، بدءا من أيام الدراسة وإلى آخر العمر. ويصف مياموتو الترويع بأنه: «نزوع سادي يهدف إلى إعادة الخراف الناشزة إلى القطيع». ولكن من الناحية الأخرى، كيف يرى رئيسه الأمر، يقول: «هذا ليس ترويعا، نحن نسميه انضباطا. فلأننا نحبك، نريد أن نجعلك تتأقلم مع البيئة المحيطة بأسرع ما يمكن. أنت ـ ببساطة ـ لا تفهم مشاعرنا».

وهذان التفسيران لتعبير إيجيمي لا يتناقضان، فالترويع قسوة ومحبة في الوقت نفسه، لأن الاثنين ينبتان من جذر واحد، هو النرجسية. فأن يكون المرء على قدر من النرجسية لهو جانب أساسي من أن يكون المرء نيهونجين: فالمرء يتحمل الخوف من الاختلاف مع الآخرين من جانب، ومن جانب آخر الرغبة في أن يرى صورته منعكسة في الآخرين جميعا. ألا تتضمن عملية تحويل

الكثيرون في التمسك بهواجسهم ورعايتها بعد أن يخرجوا إلى ممارسة مهنهم في العشرينيات من عمرهم. والانتساب للأوتاكو هو باختصار الملاذ الأخير لخصوصية الفرد، ورفض كل ما قد ينال من الذات المحصنة، واعتراف بعدم القدرة على تحقيق علاقة إنسانية أصيلة وحميمة. وعضو الأوتاكو (وكلهم تقريبا من الذكور) يرسم دائرة حول نفسه ـ وذلك نزوع ياباني أصيل ـ وينسحب داخلها، ويرفض السعي للمعرفة الدقيقة بأولئك الذين يشاركونه اهتماماته، لأن تفاصيل حياة أي فرد، حتى الشريك في الأوتاكو، ستفضي إلى أنه ليس إلا «الآخر».

وفي هذا أدق ما يمكن تخيله من تجليات النرجسية الكامنة في المجتمع الياباني. فالأوتاكو يرغب في تحقيق توحد مثالي مع الآخرين، وفي الوقت نفسه، استقلالية لا لبس فيها ـ وهما النزوعان التقليديان للنرجسية. ويوحي مظهر الأوتاكو بأنه «ما بعد حداثي» وهامشي، ولكنه تقليدي في أعماقه حيث هو يرفض ما ليس مألوفا. وكان الطلبة في مدارس احتفاليات الشاي التقليدية يشبهون الأوتاكو، حيث كان كل عضو صورة مرآة لكل عضو آخر. ومن ثم يعبر الأوتاكو عن نوع من التمرد حيث يؤدي دورا هزليا للتعبير عن التواؤم.

ولكن، كيف يقضي الأوتاكو وقته؟ إنه، شأنه شأن النمط المألوف للطلاب اليابانيين، يقضي وقته في تكديس معلومات وحقائق غير مترابطة (ومن ثم غير ذات فائدة). إن ما يشغله على نحو شبه مرضي هو نوع من سخرية ما بعد الحداثة ـ مربط الفرس فيها هو تبين الـ «لا معنى» فيما يحسب الناس أنها أمور لها معنى في اليابان المعاصرة. إنه يحتج على ما «تعلمه»، وعلى طريقة تعليمه، وفي الوقت نفسه يؤدي دور التواؤم والخضوع إلى النهاية. إن المثابرة فضيلة يُحسد المرء عليها، ويمكن اعتبار أن التواؤم أحد أشكالها. ولكن الأمر يختلف إذا فهمنا كيف غُرست هذه الصفات ورُسخت. ويثبت لنا الأوتاكو أن ما يتصفون به من المثابرة والتواؤم، مثل التعليم، أي يمكن أن يكون خيرا أو شرا.

وفكرة أن الخريجين اليابانيين ينتظرهم مستقبل زاهر يحسدون عليه لا تنطبق إلا على شريحة تبلغ ٤٠ في المائة من طلاب الجامعات ـ مثل خريجي جامعة طوكيو وحفنة من المعاهد الأخرى. ولكن علينا أن نتساءل إذا كان حتى الأقلية المحظوظة جديرة بأن تُحسد، فاليابان التي نفترضها، يابان الكفاءة الإنتاجية، تقوم على صورة زائفة. ذلك أن خريجي جامعة طوكيو (والتي غالبا ما يسمونها توداي Todai) يتعرضون لوطأة الضغوط الكئيبة نفسها لكي يتواءموا

الذكريات خانته الدموع. يضاف إلى ذلك الأعمال البدنية الشاقة ـ روتين الإعاشة اليومي، التدريب على الفنون الحربية، ومناورات عسكرية في الظلام أحيانا. وظل مقيما حتى سن الثامنة عشرة في ثكنات المنطقة العسكرية التي كان يخدم فيها والده.

ثم قضى موري معظم سنوات العقد التالي في الخارج، في إنجلترا والقارة الأوروبية، وأمريكا، وتمخضت هذه السفريات عن مولد شخصية أخرى. تُظهر صورة فوتوغرافية أخذت لموري العام ١٨٧٢، بعد أربع سنوات من الإحياء الإمبراطوري، تُظهر رجلا وسيما شديد الثقة بالنفس ذا نظرة نفاذة، وشعر منسق على الطريقة الإنجليزية، وبنية قوية، ولحية مشذبة بعناية، يلبس سترة ذات قلابات واسعة وربطةعنق حريرية أنيقة تحيط بالرقبة. كان موري، حينذاك، في الخامسة والعشرين من عمره في منتصف جولة استمرت ثلاث سنوات كأول سفير ياباني لواشنطن.

فهل كان، والحال هذه، نموذجا للمدنية، أم نموذجا للساموراي المعادي للأجانب؟ أو ربما نستطيع أن نطرح السؤال بطريقة مختلفة: هل كان مبهورا بالغرب مقلدا له؟ أو لعله كان حارسا فوق العادة للتقاليد اليابانية العظيمة؟

ومن المسلم به أن موري تعرف على الغرب تعرفا حميما أكثر من أي شخصية أخرى في عصر الميجي. وكان يدعو بوضوح زائد إلى فكرة أن اليابان بحاجة إلى أن تستوعب كل ما تستطيع من معارف الغرب. وكان ينصح الشباب اليابانيين الذين يدرسون في الولايات المتحدة بالزواج من أمريكيات لتحسين الصفات الوراثية للأمة اليابانية، وكان يرغب في نبذ نيهونجو nihongo («لغتنا اليابانية الفقيرة») لكي يتمكن اليابانيون من التخاطب بالإنجليزية بعد ذلك وإلى الأبد. وكان أول ياباني يتزوج على الطريقة الغربية ويمنح زوجته الحقوق التي تتمتع بها النساء في أمريكا، ويحررها من العقيدة الكونفوشية للإحساس بالدونية والمهانة، وكان يفضل قضاء وقت فراغه في لعبة البلياردو، التي تعلمها (من بين أشياء كثيرة أخرى) من هربرت سبنسر، عالم الاجتماع الإنجليزي في النادي الثقافي بلندن (Athenaeum Club). وقد أطلق هيروبومي إيتو، أول رئيس وزراء ياباني، على موري صفة «الغربي المولود في اليابان».

ولم يلبث أن ظهرت شخصية أخرى لـ «موري». أقدم على الطلاق، وأعاد الزواج على الطريقة اليابانية، وأصبح وطنيا متعصبا، وتحولت مدارس موري

كانت حياة موري نوعا من السيرة الذاتية لعصر الميجي، ويمكن أن يطلق اسم موري على العصر بأسره. وكان الخلط الذي وسم حياته يسم حياة كل الناس في عصره، وكانت «البنية المزدوجة لروحه وفكره» (حسب تعبير رقيق لأحد المؤرخين المتأخرين)، كانت هي بعينها البنية المزدوجة لليابان الحديثة. ولكنه لم يكبر قط ليتجاوز كونه «ساموراي» تحت التدريب، ومن ثم انتهى إلى إصابة البلاد كلها بصورة وأثر من تجربته الشخصية. وتجلت التراجيديا الإنسانية للمشروع التحديثي ـ بكل فرصه الكبيرة الضائعة ـ أقصى ما تجلت في نظام موري التعليمي.

عند عودته من واشنطن في ١٨٧٣، شرع موري في تأسيس «جمعية ميجي ستة» Meigi Six Society، والتي أطلق عليها هذا الاسم لأنها أُسست في العام السادس للتقويم الإمبراطوري، أي في العام السادس لعصر الميجي. كان أعضاء الجمعية مثقفين ليبراليين ينشرون مجلتهم بأنفسهم. وسرعان ما أصبحت الجمعية مركزا لحركة التمدن والتنوير. وكان يوكيشي فوكوزاوا، وهو المدافع عن «الروح الاستقلالية» من بين أعضائها المرموقين، وكان صديقا لموري. ولكن كان لكل منهما موقف متعارض حين انقسمت الآراء في عصر الميجي حول التعليم، وكانت الخلافات قد بدأت بينهما وهما عضوان في الجماعة.

في العام ١٨٧٥، أصدرت الحكومة الجديدة أول قانون من قوانين العيب والتشريعات المنظمة للصحافة، تهدف كلها إلى الحد من حرية التعبير وكبح انتشار الجدل السياسي بين اليابانيين العاديين: كانت التشريعات فضفاضة وصياغتها ملتبسة، وتنذر بتغيير وشيك في توجهات اليابان. انعكس هذا على جمعية «ميجي ستة» حيث نصح موري أقرانه قائلا: «لم يكن الهدف الأصلي عند تأسيس جمعيتنا أن تدور مناقشاتها حول الشؤون السياسية المعاصرة. وعليه فلنأخذ حذرنا في المستقبل، ونتجنب التورط في مثل هذه المساجلات».

أليس هذا شبيها بأن نطلب إلى الناس أن يناقشوا اكتشافهم للبحر دون أن يرد على لسانهم ذكر للماء؟ كيف يمكن للمرء أن يناقش مولد اليابان الحديثة من رحم الإقطاع دون مناقشة السياسة؟ من ثم، استشاط فوكوزاوا غضبا، ورأى أنه لم يعد ثمة أي معنى للاستمرار. وبعد أن ظلت جمعية «ميجي ستة» لمدة عامين لها صوت مسموع في اليابان الجديدة، توقفت عن إصدار مجلتها السنوية بعد وقت قصير من حديث موري، ولم تلبث أن انحلت تماما بعد ثلاثة أشهر.

تراجم مباشرة عن الكتب الأميركية، ولكن الكونفوشيين لم يلبثوا أن أحلوا، بالتدريج، كتبهم عن التعليم الأخلاقي محل تلك التراجم. وإذ أثار هذا سخط موري، فإنه عمد ببساطة إلى إلغاء نصوص علم الأخلاق من أي نوع. وإذ كان موري متهما من قبل بسبب الصبغة الغربية في تفكيره، ويُنظر إليه كعدو للروح اليابانية الحقيقية، فإنه أصبح منذئذ هاجسا يتملك المحافظين.

ولكننا نصل هنا إلى واحدة من مفارقات موري الفكرية، فما الذي كان يريد أن تعلمه المدارس؟ في العام نفسه الذي ألغيت فيه نصوص علم الأخلاق، قال: «إننا نقع في خطأ كبير إذا تصورنا أن الأهداف الأساسية للتعليم يجب أن تنحصر في **القراءة والكتابة والتذكر**(*) كان موري يريد أن تنتج المدارس «الرعايا الصالحين». وما مواصفاتهم؟ يطرح موري هذا السؤال على نفسه ثم يجيب: «يجب أن يكونوا رعايا للإمبراطور ينهضون بواجباتهم على أكمل وجه، ومعنى هذا أن يكونوا على استعداد لتلبية النداء والتضحية بحياتهم من أجل الدولة».

ربما يكون موري قد التبس عليه فهم المحافظين، كما التبس عليهم فهمه، ولكنه قدم لهم المدارس التي يريدونها. ولم يترك للإدارات المحلية في النظام الذي بني في أواخر سنوات ١٨٨٠ـ لم يترك لها إلا قليلا من حرية التصرف في اتخاذ القرارات. أما المناهج والكتب المدرسية والمعايير والمستويات فأصبحت جميعا من اختصاص وزارة التعليم (مومبوشو Mombusho). وقام المفتشون، من طوكيو، بالرقابة على جميع مدارس اليابان. وأُغلقت غالبية المدارس الخاصة؛ ولإلغاء دور المدارس الباقية، أصدر موري مرسوما يقصر التقدم لامتحانات الالتحاق بالجامعات على خريجي المدارس الحكومية. وبعد ذلك يأتي دورالمعلمين، ومن بينهم الكثير من الليبراليين والشعبيين، ممن لا يؤتمنون على القيام بتنميط اليابانيين المحدثين. ومن ثم، فإن «لوائح السلوك الواجب مراعاتها من جانب مدرسي المدارس الابتدائية» نصت على حظر المناقشات السياسية. وحرصا على جعل المعلمين قنوات توصيل يُوثَّق بها للروح القومية (كوكوتاي kukutai)، وضع موري التدريب المهني للمعلمين تحت إدارة المومبوشو (وزارة

(*) في الأصل الإنجليزي: الراءات الثلاثة (the three "R"s)، وهي إشارة دارجة إلى read, write, and remember (المترجم).

نهاية عصر الميجي، حين وصلت نسبة المسجلين من الأطفال إلى ما يقرب من ١٠٠٪. وقبل سنوات كثيرة من الديكتاتورية العسكرية - بل قبل أن ينتهي عصر الميجي - كان التعليم يُعرَّف قانونا، ليس كحق للطفل، أو كمسؤولية على أولياء الأمور تجاه أطفالهم، وإنما كواجب على أولياء الأمور تجاه الدولة. ومن ثم، كان يمكن أن يقال إن «الأمة كلها معبأة من أجل الأطفال وتعليمهم».

وفي القمة أنشئت الجامعات، أماكن للدراسة وليست للتعليم. ولا يمكن ممارسة استكشاف الأفكار إلا في الجامعات، فيما يشبه مناخا منفتحا، بحيث يمكن التعامل مع الثقافة المحايدة كنوع من التجارب الإشعاعية. كان ثمة سبع جامعات إمبراطورية وعدد قليل من الجامعات الخاصة، (وكان فوكوزاوا في ١٨٦٨ هو صاحب فكرة تأسيس إحداها، وهي جامعة كيو Keio التي ما تزال بين أفضل الجامعات في اليابان)، وكان هذا العدد القليل كافيا، فاليابان كانت محتاجة إلى نخبة، ولكن لتكن نخبة قليلة العدد، يمكن توظيفها بسهولة. وكانت جامعة توداي في أعلى القمة، وصدر في ١٨٨٧ أمر إمبراطوري يمنح خريجي الحقوق في جامعة توداي، وحدهم، الحق في أن يتقدموا للالتحاق بالمراتب الوظيفية العليا، وهو امتياز ما يزالون يتمتعون به حتى اليوم.

كان النظام شبيها، من ناحية الشكل، بمجتمع عصر الميجي، بهرم سفوحه شديدة الانحدار، وأصبحت المدارس على الحال التي هي عليها حتى الآن، ساحات قتال رهيبة، يزيد من فظاعتها أن الجنود فيها صغار السن جدا. كانت مدارس موري الساحة المركزية لما أسماه الباحثون أيديولوجية النجاح، أو أيديولوجية بذل أقصى الجهد - والمقصود بذلك المنافسة الشرسة الناجمة عن إطلاق الرغبات والطموحات في مجتمع طبقي، وسيظل كذلك. فبينما كان التعليم الأساسي عاما للجميع، فإن العدد الذي كان يصعد لما بعده لم تكن نسبته تزيد على ١٥ في المائة. وأصبح النظام المدرسي، أيا كانت مكوناته، وأيا كانت أشخاص المسؤولين، أصبح هوسا يتملك قوما، مُنحوا أخيرا طريقا للصعود، وإن يكن شديد الضيق.

* * *

ظهر جنون التعليم أول ما ظهر، في عشرية ١٨٩٠. أفرخ هاجس النجاح عددا كبيرا جدا من الطلاب المتطلعين من أبناء العوام الذين يرون أن المدرسة هي الطريق الوحيد للانعتاق من فلاحة الأرض وزراعة الأرز. امتلأت المدارس

وتعد مراكز التقوية أو مدارس التقوية، المسماة جوكو juku، من المفارقات الغريبة الأخرى(*). وتشكل هذه المراكز نظاما موازيا للنظام التعليمي الذي يمنح الشهادات، ولا يقل عنه أهمية. ويتردد على هذه المراكز سبعون بالمائة من تلاميذ المدارس الابتدائية والإعدادية (أو قد يتيسر للبعض أن يكون عندهم مدرسون خصوصيون)، وتصل النسبة في التعليم الثانوي إلى ٨٠ في المائة. وتعتبر مراكز التقوية (جوكو) مجالا للاستثمارات الكبيرة حيث تصل المصاريف إلى بضعة آلاف من الدولارات في العام. وتحظى اليابان بإطراء البعض لأنها تقتصد في ميزانية التعليم، فهي صاحبة أقل ميزانية تعليم في العالم الصناعي المتقدم. غير أن طوكيو تعتمد اعتمادا كبيرا على الجهود الخاصة التي تنهض بالعملية التعليمية. وتنفق الأسرة اليابانية في المتوسط ربع دخلها على تعليم أبنائها، ويذهب أكثر من نصف نفقات التعليم قبل الجامعي إلى مراكز التقوية والدروس الخصوصية ومتعلقاتها.

وفيما مضى، كانت تلك المراكز (جوكو) تفي ببعض الضرورات العلمية، وفي ذلك كانت تتشابه ومدارس المعابد في عصر إدو، حيث كان الدارسون يتعلمون مبادئ الحساب والكتابة لكي يتمكن أطفال العوام حين يكبرون من أن يدبروا بعض الشؤون المحلية. وبعد الحرب كان المعلمون يتعهدون أبناء ملايين العمال الذين وفدوا إلى المدن ولم يكن ثمة قرويون يشاركون في حمل العبء، ولا أجداد وجدات يرعون المنزل، ولكن الجوكو لم تلبث أن تجاوزت هذا المسار. لم تصبح مجرد جزء من الهاجس القومي؛ ولكنها أصبحت، على نحو ما، قوة دافعة له بما هي تغذي قلق أولياء الأمور فيما يتعلق بنجاح أبنائهم في الامتحانات العامة.

في إيكيبوكورو Ikebukuro، وهو حي تجاري في شمال غربي طوكيو، يوجد أحد مراكز التقوية يسمى شينجاكاي Shingakai (نادي البراعم النامية)، يشغل نصف طابق في عمارة «الشمس المشرقة ٦٠»، (سميت هكذا نسبة إلى عدد طوابقها). وبفضل ارتفاعها الشاهق، وذلك أمر غير مألوف وسط منازل طوكيو الواطئة المتناثرة في غير نظام، فإن الطوابق العليا الموجودة على ارتفاع كاف من سحابة التلوث الكثيفة، تستمتع بالضوء وصفاء

(*) في الأصل الإنجليزي cram schools، وكلمة cram تعني كما ورد في قاموس المورد، حشو الدماغ، وعلى ذلك فإن هذا التعبير يكاد يكون مطابقا تماما لما نعرفه عندنا باسم مراكز التقوية (المترجم).

تدريب طويل، فإن هذا المظهر اهتز عندما بدأنا في الحديث عما يسمونه امتحانات التجربة. قال لنا: صحيح أن شينجاكاي تجري امتحانات تجربة، ولكنها لا تطبق النظام الإسبارطي(*) الذي تسير عليه بعض مدارس التقوية الأخرى. ويستطرد: «نحن نعتني عناية خاصة بتنمية قدرات كل تلميذ، والتعليم يجري خلال اللعب».

بدأت امتحانات التجربة في منتصف سنوات ١٩٦٠، عندما شرعت الشركات الخاصة للامتحانات في إجراء تحليل كومبيوتري للامتحانات التي تنتجها للمدارس. وكان الهدف من امتحانات التجربة تدريب التلاميذ على امتحانات القبول الحقيقية. ولكن باستخدام الكومبيوتر، استُخدمت امتحانات التجربة لتقدير «درجة انحراف» كل مدرسة كل عام: فالامتحانات في البداية تُدرَّج على أساس الصح والخطأ، ثم تعاد لتحديد ترتيب كل طالب في مدرسته. وترتيب كل تلميذ يحدد المدرسة التي يمكنه دخولها. كل هذا يكون إعدادا للتقدم لامتحانات القبول الحقيقية.

وتعد امتحانات التجربة واحدا من أهم مكونات النظام التعليمي، ويعد مقياس درجة الانحراف نوعا من الإدانة ـ إدانة المدارس والتلاميذ على السواء. وغالبا ما يُستخدم لحمل التلاميذ على دخول مدارس لا يرغبون في الالتحاق بها. ويرى غالبية المشتغلين بالتعليم أن هذا من أهم الأسباب التي تجعل ١٢٠ ألفا من تلاميذ المدارس الثانوية يتسربون من مدارسهم كل عام. وفي شينجاكاي، تُستخدم امتحانات التجربة لتحديد أي مدرسة من مدارس رياض الأطفال يمكن أن يلتحق بها خريجوها، وهم بعد أطفال يبلغ عمرهم خمس سنوات.

وانضم إلينا ـ ماتسوزاوا وأنا ـ السيد كيجين فوجيموتو، رئيس مدارس شينجاكاي، وهو رجل أكثر معرفة بمهمته التعليمية، كان قد بدأ حياته العملية بالعمل في الجانب الآخر من النظام التعليمي، في تدريب خريجي الجامعات وقد أصبحوا «كائنات اجتماعية»، وتعلم بالفعل أشياء بسيطة وواقعية. كانت مهمة فوجيموتو أن يدرب الخريجين على أن يمثلوا شركاتهم، وصدم بالحال التي وجد عليها المتدربين.

(*) Spartan الإسبارطي نسبة إلى «اسبارطة القديمة»، وتطلق هذه التسمية كصفة على أي شخص متسم بالبساطة وبالبعد عن الترف وبضبط النفس والصرامة والجلد (المترجم).

المربون في هذه المراحل الأولية بقادر على أن يعفي هؤلاء الأطفال - وهم من بين أبناء العائلات الأكثر غنى وطموحا وتميزا في اليابان - من المعاناة.

وقفت أرقب الأطفال وهم يجمعون الكرات الحمراء والزرقاء كلا مع الأعلام التي من اللون نفسه. كانت ملابس الأطفال جميلة، وسلوكهم ممتازا، وهم يلعبون وفقا للقواعد السليمة. كانوا قريبين يمكن أن يُلمسوا باليد، ولكن كان يبدو وكأنهم موجودون على مسافة بعيدة جدا. فقد بدوا في تلك اللحظة أقرب لأن يكونوا أطفال تجارب أكثر من كونهم أطفالا حقيقيين، والمكان الذي يحتوينا ليس غرفة عادية، ولكنه نوع من «الحضّانة» في معمل.

كانت ثمة فكرة مغرية هي أن نرى الأطفال ضحايا لأولئك الذين يقفون حولهم عن كثب: المعلمين، والإداريين، والأمهات المدرسات، وإن كانت الحقيقة أن الجميع ضحايا. يحب المعلمون أن يروا في هذه الفصول ملاذا من النظام، كما يحب أولياء الأمور أن يروا أنهم اختاروا لأطفالهم بذكاء. لكن الأمور كلها لا يمكن أن تكون هكذا، تقريبا، في النظام الياباني. فالمدارس في التحليل الأخير ليست إلا مجرد درجات على سلم الصعود، وليست شينجاكاي إلا الدرجةالأولى.

في صباح يوم مشرق وصاف في طوكيو، زرت مدرسة ثانوية. كان ذلك في أواخر فبراير، في نهاية الفصل الدراسي في اليابان. جلست مع أربعة من طلبة السنة النهائية في غرفة الدراسة التي لن يعودوا إليها بعد هذا العام، كان الجميع سبق لهم الالتحاق بمدارس التقوية لسنوات عدة، وكان من بينهم طالبة التحقت بمدرسة تقوية لفترة من أجل أن تلتحق بمدرسة تقوية أخرى أفضل منها. حدثتني عن روتين حياتها اليومي: «أدخل المدرسة في الثامنة صباحا، وأنهي الدراسة في الثالثة مساء، ثم أذهب إلى المنزل، وبعد ذلك أذهب إلى مركز التقوية من السادسة إلى التاسعة مساء، لأكون في المنزل في العاشرة لأذاكر وأعكف على واجباتي المنزلية حتى الواحدة بعد منتصف الليل». ذلك أنها كانت تريد أن تلتحق بمدرسة ثانوية خاصة، ذات «قيمة انحراف» أعلى من المدرسة التي كنا نجلس فيها، ولكنها فشلت في امتحان القبول. ثم قالت: «إنني أريد أن أترك هذه المدرسة منذ مدة طويلة».

كانت هذه الطالبة تدعى آي أوجاوارا. وبعد قليل احتدم النقاش بين آي وبقية المجموعة. وذكرني هذا بأن اليابان ربما تشبه الساعة السويسرية في أشياء، أو هي تشبه بعضا من اللعب الميكانيكية التي فيها تسقط كرة، لترفع

الاتجاه المعاكس للعمل المهني بالنسبة لليابانيين العاديين. وهي مثال جيد تماما للدلالة على ما قصدت إليه آي أوجاوارا عندما قالت إن تعليما أفضل في اليابان يعني في التحليل النهائي حكومة أفضل.

يبدأ التقرير بتأكيد أن اليابانيين يجب أن يتعلموا ألا ينسوا أنهم يابانيون قبل أن يكونوا «بشرا عالميين»، ويجب أن يقدموا فروض الاحترام للإمبراطور، ويكرسوا أنفسهم للعمل، لأن «الإنتاج هو علة وجود المجتمع». وفي المقابل عليهم أن يتبينوا أنهم يعتمدون في حياتهم على «الدولة، والمجتمع، والعائلة».

«إن سعادة الفرد وأمنه يعتمدان اعتمادا هائلا على الدولة. والسبيل للإسهام في الجهد البشري العام، يمر خلال الدولة. وإن نحب الدولة يعني أن تكون على ولاء لها بحق».

كانت **صورة الياباني المطلوب**، فكرا ووجدانا، عودة لزمان ما قبل الحرب، كانت نصا أدبيا مسطورا في الحنين إلى الماضي. ففي سطوره أسى خفي على فقدان الروح القومية بعد الهزيمة. ويتوجب على الأمة أن تبعث من جديد هذا «الشعور السامي»، وتبعث «الإرادة الصلبة» اللذين صيغت منهما «التقاليد اليابانية الجميلة». «فإذا استطعنا أن نعمق هذه المشاعر السامية ونوسعها، فبإمكاننا أن نكون يابانيين، يتحلون بالقوة والشهامة والجمال».

كانت لغة الخطاب هذه هي السائدة قبل ١٩٤٥. وحتى جاءت الهزيمة والاستسلام، كانت المدارس، بالإضافة إلى المؤسسة العسكرية، هما القناة المركزية لنشر أيديولوجية الدولة. وكانت وزارة التعليم، المكتظة بالقوميين المتطرفين، تعد من بين أعتى الأجهزة البيروقراطية وأعلاها صوتا في طوكيو. ولم يكف المنادون بحرية التعليم من مدرسين وغيرهم، عن محاولة أن يخففوا أو يتحللوا من قبضة الرقابة الوزارية منذ عقد ١٩٢٠، غير أن العملية التعليمية اختزلت في الواقع إلى مجرد عملية غسل مخ.

في ظروف أخرى ـ أو لو قُدِّر لليابان أن يختلف مسار تاريخها الحديث ـ لأصيب المرء بصدمة حين يقرأ تعازيم استدعاء «التقاليد اليابانية الجميلة»، في أواسط سنوات ١٩٦٠، سيصدم المرء لأسباب ليس أقلها أن الرجال الذين صاغوا تقرير صورة الياباني المطلوب هم القائمون على إدارةالنظام الذي نحن اليوم مدعوون إلى الإعجاب به. ولكن التعليم كان قد انتهى به الأمر إلى أن يصبح ضحية تراجيدية للنهج العكس، ومن ثم، ليس في «الياباني المطلوب» ما يدعو إلى الدهشة على الإطلاق. لم يكن مقر قيادة الأركان G. H. Q. قد أغلق بعد، حين

العناوين في الصحف المعبرة عن وجهات النظر الرسمية في معظم فترة ما بعد الحرب. غير أن العناوين وحدها تكشف عن الأفكار المفتاحية المطلوب اتخاذ قرارات بشأنها في المعارك الدائرة أبدا حول التعليم: التنوع، التحررية، تنمية الشخصية الفردية، الاختيار، الإبداع، المبادرة.

تلك هي المعايير والقيم الجديدة المفترض أن تكون وزارة التعليم قد تبنتها في الوقت الذي قال فيه هاتوياما هذا الكلام، وكتبت فيه تلك التعليقات والافتتاحيات الصحافية. حينذاك، أعلنت طوكيو أنها تعد لجعل المدارس اليابانية تماشيا مع المطالب الشعبية، ولم يكن ذلك بالشيء الهين، حيث أسماه كبار المسؤولين البيروقراطيين في وزارة التعليم «الإصلاح التعليمي الثالث». وكان الإصلاح في عصر الميجي هو الإصلاح الأول، والثاني في سنوات ما بعد الحرب.

ولكن من المهم أن ندرك ماذا يعنيه المسؤولون بالضبط، لأننا نخطئ إذا سلمنا بالمعنى الظاهري لما يعلنون، فأحرى بنا، إن أردنا الدقة، أن نعتبر الإصلاح التعليمي الثالث ليس إلا محاولة أخرى لتشكيل «الياباني المطلوب». ويكمن الفارق الوحيد بين الياباني المطلوب في عشرية ١٩٦٠، والطبعة الجديدة منه في عشرية التسعينيات، في نوعية الياباني الذي يعتبر مطلوبا.

بدأت اليابان تعيد التفكير في مستقبلها بعد أول ارتفاع فجائي في أسعار البترول في ١٩٧٣. كان من غير المتوقع أن تحقق اليابان معدلات النمو العالية التي حققتها في العقدين السابقين. كان القادة المفكرون في مجتمع الأعمال، رجالا من طراز كونوزوكي ماتسوشيتا Konosuke Matsushita، مؤسس شركة الإلكترونيات الكبرى التي تحمل اسمه، كانوا يرون مستقبلا لليابان، أقل اعتمادا على الحماية الضرائبية في المنافسة مع الخارج، وهي التي نشأت منذ عصر الميجي واستمرت، ولم تعترض عليها واشنطن في أثناء فترة إعادة البناء وتوترات الحرب الباردة. فمثل هذه الوضعية المركبة كان لابد أن تنتهي عاجلا أو آجلا، وأن تصبح اليابان قادرة على المنافسة بالأصالة عن نفسها. هكذا في سنوات ١٩٨٠، انتشر وراج تداول تعبيرين يصفان توجه الصناعة، الأول: جو كو تشو داي ju ko cho dai، أي صناعة ما هو ثقيل وسميك وطويل وكبير. والتعبير الثاني يصف التوجه المستقبلي إلى ما هو خفيف ورفيع وقصير وصغير (كاي هاكو تان شو Kei haku tan sho). فلم يعد لليابان أن تستمر في نسخ المنتجات التي ابتكرها وصممها آخرون، وتعديلها، وإنتاجها إنتاجا كبيرا، وإنما أصبح يتعين

نفسها التي كانت تنتج بها في الماضي رجالها المخلصين في الساموراي والجنود والبحارة وعمال المصانع؟ عبر ناكاسوني عن أدائه المميز في شأن هذا التناقض: حيث كان متفانيا في إيمانه بالخصخصة التي هي الموضة في زمانه، ولكنه في الوقت نفسه كان يحبذ الإشراف الصارم للدولة على النظام المدرسي.

ترك ناكاسوني منصبه في رئاسة الوزارة العام ١٩٨٧. ومن بعده سمعنا حلولا كثيرة لهذا التناقض/الأحجية: التوسع في التنوع والاختيار؛ اهتمام أقل بالامتحانات وأكثر بالمحيط الإنساني. وأصبح من الواجب أن تنتهي الإجراءات الإدارية والتنظيمية المراهقة والتجانس والتلقين والحفظ عن ظهر قلب. وفي نظام أقل تنافسية، يخصص وقت أكبر لتكوين الشخصية مثل الرياضة وأنشطة أوقات الفراغ. ويجب إحياء المجالس المحلية للمدارس. ومن الواجب أن تتجه الإصلاحات من القاعدة إلى المراتب الأعلى، وليس العكس. ولكن على الرغم من أننا الآن في العقد الثالث من الإصلاح التعليمي الثالث، فإنه لم يُنجز من هذه الإصلاحات في الواقع إلا قليل. ولا شيء من هذا القليل وجد حلا للسؤال المركزي على أي نحو. وذكرني الأشخاص الذين قدموا إجابات علي، وهم كبار المسؤولين البيروقراطيين في وزارة التعليم، بأرينوري موري وتفكيره المشوش. ولا تزيد إجاباتهم على كونها سطورا أولى في دراما لن تصل إلى نهايتها إلا في القرن الواحد والعشرين. وباعتراف الوزارة نفسها، فإن المعنيين كانوا يتحسسون طريقهم، مجربين هذا الحل أو ذلك ـ وهم في ذلك لا يختلفون عن دعاة التربية الحديثة الأوائل إلا قليلا.

على بعد ساعة ونصف الساعة بالقطار غربي طوكيو، توجد جامعة جديدة، اسمها جامعة تسوكوبا Tsukuba. وقد بُنيت هذه الجامعة لتكون طبعة يابانية من معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا M.I.T. ، حيث التركيز على الأبحاث العلمية الأساسية، وتفريخ المكتشفات الجديدة في مجال التكنولوجيا المتطورة، وهو المعهد النمطي الذي تحتاج إليه اليابان وهي تلج مرحلة تطورها الاقتصادي المقبلة. غير أن تسوكوبا لا يمكن أن تقارن بنظيرها الأمريكي (M. I. T.)، والسبب الأساسي هو معدن الطلاب الذين يرسلهم النظام التعليمي لمدرجات تسوكوبا ومعاملها. ومن ثم تفتقد تسوكوبا الشحنة الثقافية الفكرية اللازمة، وهو افتقاد يتضح للمرء حين يتمشى في حرمها الجامعي، بمثل وضوح هندستها المعمارية غير الموحية.

ويبدو أن إيزاكي لم يكن ليهتم بشيء من هذا. من المعروف عنه أنه كان المتحدث الأول باسم الإصلاح التعليمي الثالث. قدم لي لمحة عن مدارس المستقبل ـ أو بالأحرى هي مدارس المستقبل من وجهة نظر القائمين عليها، إلا أن كلامه لم يكن وصفا للمستقبل بأي حال، ولكنه كان وصفا للماضي. كان يتحدث بلغة عصرية لا لبس فيها، ليس عن نظام جديد، أو حتى عن نظام معدل، ولكن عن النظام الإمبراطوري القديم، حين كان التعليم والدراسة شيئين منفصلين تماما، وحيث لم يكن ثمة أي مشكلة تُعالج من القاعدة فصاعدا. ففي عالم إيزاكي، تعودالمعرفة مرة أخرى لتكون هي السلطة.

استطرد إيزاكي بإصرار: «الأمر أكثر بساطة في مجال العلم. نحن بحاجة إلى أسلوب أفضل لاختيار البشر. ومن بعد، ثمة التعليم الجمعي، ولكنني أكثر اهتماما بتعليم الصفوة ـ البحث العلمي، كما تعرف».

* * *

من المستحيل أن نشارك إيزاكي والأجانب المعجبين بالمدارس اليابانية أفكارهم التي يتحمسون لها، حيث يرون أن الإصلاح التعليمي يعني الإبقاء على ممارسات تمييزية وقمعية وضعت أسسها أقلية أوليجاركية حاكمة تنتمي إلى القرن التاسع عشر، وأحكمت ضوابطها الديكتاتورية العسكرية، وإن تكن هذه الممارسات، منذ خمسين عاما، فقدت مشروعيتها مؤقتا لوقت قصير.

ولكن يبدو أن التعليم غير وارد في أفكار ليو إيزاكي عن المستقبل، وذلك لأسباب من بينها أنه لم يعد من الممكن إحكام الرقابة على المعرفة. وسبب آخر هو أن ثمة طاقة هائلة كامنة في القاعدة. فالنظام المدرسي أشبه بمارد في قمقم لم يُفتح بعد. وقدر كبير من هذه الطاقة سلبي ومشوه وحرون. ومع ذلك، إذا قمنا بجولة في هذا النظام فإننا سنصادف كنوزا نادرة. فثمة خلف واجهة التجانس ما يوحي بأن اليابانيين، طال الزمان أو قصر، سيدركون أنهم بشر ذوو شخصيات متفردة قبل أن يكونوا يابانيين، وتلك حقيقة راسخة لن تتغير أيا كانت الوسائل.

على مسافة ساعة من طوكيو بقطار الضواحي، توجد مدرسة تسمى جيونو موري (مدرسة غابة الحرية)، التي أطلق عليها هذا الاسم لأنها محاطة بعدد كبير وكثيف من أشجار الصنوبر. زرتها في عصر يوم من أواخر الشتاء، في الوقت الذي كان ينتهي فيه اليوم الدراسي. من الصعب المبالغة في وصف غرابة ما رأيت. عندما فتحت الباب الأمامي جاذبا إياه في مقاومة الريح، استُقبلت

كبير من أمثاله، من جيله من اليابانيين: أناس عاشوا حياتهم يكفرون عن إخفاقهم في النضال ضد الديكتاتورية، والحرب، و«الثوابت» الأيديولوجية التي لا تمس(*). وبعد هزيمة اليابان في (الحرب العالمية الثانية) اشتغل إندوه لمدة عشرين عاما في مدرسة خاصة تقدمية في طوكيو: إلى أن قرر أنه على الرغم من كل النوايا، فإن هذه المدرسة (مثل غيرها كثير) لا تستطيع أن تقاوم أن تكون مهمتها هي تحويل الطلاب إلى مجرد أدوات لأداء الامتحانات.

ثم، في أوائل الثمانينيات، أنشأ إندوه مدرسة جيونو موري (مدرسة غابة الحرية)، بعد أن جمع لها اكتتابا قدره أربعة بلايين ين، أي حوالى ٤٠ مليون دولار، كان نصفها لا يزال دينا، غير أن هذا الاكتتاب مكن المدرسة من اجتياز الحاجز الهائل في طريق تعليم بديل. ذلك أن المدارس الخاصة لا تكون مؤهلة لطلب دعم حكومي إلا إذا كانت تتوفر على حياة أربعة بلايين ين. والآن، يبلغ عدد التلاميذ في مدرسة جيونو موري ألفا ومائتين، من أول مراحل التعليم ما قبل الجامعي إلى الثانوية العامة. قال إندوه، بعد أن قدم شرحا للأرقام: «نحن نحاول أن ندرب التلاميذ على التفكير والنظر في الأمور، وهو الشيء المطلوب لتقييم حال المجتمع، والتأثير فيه».

ولج وكيل المدرسة باب الغرفة، وهو يصغر رئيسه إندوه بسنوات عدة: كان الوقت متأخرا، والوكيل يدعوني لحضور بروفة حفلة موسيقية (ريسيتال) يُحضِّر لها تلاميذ الصف العاشر، تقام في قاعة دار البلدية بعد يومين.

تجمع الكورس الذي سيقوم بالأداء في الجيمنيزيوم، وسرنا من مكتب إندوه إلى الجيمنيزيوم عبر نوع من الفوضى المحكومة. استقبلنا أحد الطلاب بقذف كرة سلة نحونا تلقفها وكيل المدرسة بذراعيه، واندفع تلميذ آخر نحوه بحركة مصارعة يابانية حتى كادت قدمه تصيب وجه الوكيل، وقابل الوكيل كل هذا مبتسما ومحاولا ألا ينقطع خيط الحوار بيننا، ولم يلبث أن ودعنا عند باب الجيمنيزيوم، واختفى وسط كوكبة من الطلاب.

بدأت أتساءل هل مدرسة غابة الحرية هي تعبير مبالغ فيه، محاولة بلا هدف ـ هل هي نوع من الخروج المتعمد على النظم المرعية كرد فعل لجمودها، وإن تكن عاجزة تماما عن أن يكون لها أي تأثير في المستقبل.

(*) في الأصل الإنجليزي («Black box» of ideology) (المترجم).

4 أسوار في القلوب

في العام الأخير من إقامتي في طوكيو، انتقلت من شقة في حي يسكنه الأجانب إلى حي آخر في وسط المدينة، وإن كان لا يزال محتفظا بطابعه القديم. وكان سمسار العقارات المحلي (فودو سان fudo-san) واسمه شيينو، شريكا لوالده في العمل. وكانت الغرفة التي يعملان فيها مزدحمة بالمكاتب والكراسي، وخزانات الملفات، وآلات الفاكس والتليفون، والدفايات المتحركة، ومنضدة قهوة صغيرة مغطاة بمفرش بلاستيكي، تُنجز الأعمال حولها وعليها. وتبلغ مساحة الغرفة ستة تاتامي tatami، وهي مساحة نمطية، تماثل تقريبا مساحة حمام فسيح في الغرب. وعلى النافذة في الواجهة أُلصقت لوحات ورقية عليها كتابة يدوية سريعة تعلن عن الشقق المعروضة للإيجار.

وكان ثمة واحدة إيجارها ٨٥ ألف ين، أي حوالى ٧٠٠ دولار في ذلك الوقت، في حارة في مينامي أوياما Minami Aoyama. والأرجح أنها كانت عتيقة الطراز، وإن كان إيجارها أقل مما كنت أتوقع، وكان لي صديق يسكن بالقرب منها.

ويخامر الفتى شعور، كأن روحه وجدت لنفسها سكنا غريبا.

سوسكي ناتسومي
«كوكورو»، ١٩١٤

ومجاله جميع الجزر اليابانية. حتى الإمبراطور نفسه كان مهاجرا وافدا. وائتلفت في طوكيو الرسميات المميزة للساموراي مع ما استجد من أشياء غريبة لخلق مقولات غريبة على اليابانيين العاديين: الإحساس بالبعد، وعدم الألفة، والقلق المديني، وفي الأعماق كان الإحساس بالعزلة الذي أصاب سكان المدينة الجدد انعزالا عن الذات، لأنهم حولوا أنفسهم إلى «آخرين».

وبين السهل المحيط بطوكيو، والمسمى كانتو Kanto، وفي اتجاه الجنوب الغربي وصولا إلى سهل آخر يحيط بأوزاكا وكيوتو يسمى كانساي Kansai، يوجد ممر محدود يسمى «أوموتي نيهون omote nihon» (واجهة اليابان). ويظل هذا الممر، بعد قرن وربع القرن من عمليات تحديث عاصفة، تجسيدا لما نعنيه عندما نتحدث عن اليابان واليابانيين. إنه الواجهة وساحة العرض «للمعجزة» اليابانية. يعيش ثلثا سكان اليابان في هذه المساحة التي تقدر بـ١٤ في المائة من مجموع مساحة الجزر. تنتج هذه المساحة ثلاثة أرباع الإنتاج الصناعي لليابان، الأمر الذي يجعل هذا القطاع الكائن على الحافة الأمامية للبلاد مكافئا لنصف الحجم الاقتصادي لألمانيا. هنا مقر كل بنوك الدولة تقريبا، وشركات التأمين، والأسواق المالية، والمكاتب الرئيسة للشركات الكبرى، والناشرين والجامعات ووسائل الإعلام والمنشآت الصناعية. وإن كان ثمة عدد قليل من المنشآت الكبيرة التي أقامت مكاتبها الرئيسة في أماكن أخرى (مثل ماتسودا التي تنتج سيارات مازدا، وكوماتسو التي تنتج معدات البناء)، فإنها تحرص على أن يكون لها حضور قوي في طوكيو لتكون قريبة من المركز البيروقراطي للسلطة.

توجد مدن أخرى تشبه طوكيو، منها باريس مثلا، التي يفد إليها عدد كبير من الفرنسيين قادمين من أقاليم بعيدة، وإنما ليصيبوا شهرة أو يكوِّنوا ثروة ليعودوا إلى بلداتهم التي لم يهجروها في الحقيقة قَط، أو ربما يغادرون باريس إلى منتجعاتهم أحيانا. صحيح أن باريس، مثلها مثل طوكيو، تعتبر قرية شديدة التضخم، ولكن هذه هي الصفة الوحيدة التي تجمع بينهما. فالفرنسيون لا يصبحون غرباء على أنفسهم عندما يذهبون إلى باريس. بينما هكذا أصبحت أجيال عدة من اليابانيين الذين ذهبوا إلى طوكيو.

لقد خلق العصر الحديث للعاصمة اليابانية، شأنها في ذلك شأن مدن أخرى على ساحل الباسيفيك، وجهين متمايزين، أو ـ بالأحرى ـ خلق للمدينة

عن بعضهم البعض، حيث لم يعد بينهم التماثل الذي يسم القرويين، واختفى الطين من مداسهم.

في ثمانينيات القرن العشرين، صدرت رواية للكاتب هيكاري أجاتا Hikari Agata عنوانها: احتفال عائلي A Family Party، تحكي عن أم وأبنائها يعيشون في حي يجري تطويره وتحديثه. واليوم ينتصب فندق من ثمانية عشر طابقا على أرض كانت ملكا للأسرة، وتزحف حالة الإحساس بانعدام الجذور المدينية. يقول الراوي: «كان هذا الحي يعطي دائما إحساسا بالفوضى»، لكنه يستطرد:

«ومع ذلك كنت دائما أحس بالارتياح كلما عدت إليه من غابة العمائر الشاهقة. فقد كان حيا تمتزج فيه برقة ونعومة الرماديات والبنيات، وكانت الألوان الطبيعية لطيفة على بشرتي».

ولكن أهالي طوكيو يكشفون أحيانا عن بقايا تعلق وحنين لشوارعهم الخلفية (أورا دوري). فما تزال البيوت القديمة غير المجهزة بوسائل الراحة ـ ويا حبذا لو كان الزمان والتقلبات الجوية قد نالت منها ـ ملاذا وسكنا. وفي الأثناء، تمثل الكرة الحديدية التي تستخدم في هدم المباني واحدة من أكبر المحن التي نزلت بالمدينة في العصر الحديث. وأصبح من الأمور العادية أن نرى أحياء كاملة تختفي في أسابيع قليلة، وفي مكان المنازل الريفية تقوم مبان جديدة من ألف نوع وطراز. ومكانَ الأخشاب بألوانها من جميع درجات البنيات والرماديات، تفد الخرسانة المسلحة والجرانيت المظلل بسواد الفحم، وهي خامات ما بعد الحداثة التي يفضلها المعماريون اليابانيون.

في أثناء إقامتي في طوكيو، حركت هذه التغييرات إحساسا ملموسا بالتسارع المثير لعمليات تحديث اليابان. فقد كان من الممكن أن أغيب عن سكني أسبوعا واحدا، وأعود لأجد أن شيئا مختلفا يقوم مكانه، وقد بُني نصفه بالفعل. ويتكرر المشهد مرارا وتكرارا. مشهد الهدم وإعادة البناء في المدينة، الذي يمتد ليصيب أساليب حياة اليابانيين وطرائق عملهم في مدنهم.

«نحن نحيا حياة بلا حرية، وننوء بأعباء غير طبيعية، ونعاني عبء نظام غير عقلاني». هذا بعض ما كتبه أحد عمال ميناء طوكيو في مجلة نقابية العام ١٩٢٢. ويستطرد:

يابانيا حازما صعب المراس وفقا لتقاليد يراها مراوغة، حتى إن استغرقته تماما. ولكن البطل يصبح خلال هذه المحاولات - ووفقا لما يقول الراوي - مجردا من إنسانيته. «أقيموا أسوارا في قلوبكم ضد الخواطر الهائمة والأفكار البعيدة» - تلك إحدى قواعد حياة الساموراي الموصى بها منذ قرون عدة. والمقصود هنا إقامة أسوار ضد الأفكار العادية. ونتبين أن هذه هي حال المحارب الياباني العصري نفسها أيضا. فثمة شيء مجاف للإنسانية في المثل الأعلى المفترض أن يكرس نفسه من أجله.

ذهبت ذات مرة إلى مبنى إداري في طوكيو لمقابلة رجل يدعى تيروتاكا كاواباتا، وهو سليل عائلة من الساموراي. كان كاواباتا نحيفا وَخَطَ الشيبُ شعره، يشغل وظيفة في الإدارة العليا لدوائر الأعمال، وعلى الرغم من اقترابه من سن الستين، فإن حيويته وحركته تجعلانه يبدو أصغر كثيرا. كنا في قاعة في الدور الأرضي ذات أرضية خشبية تشبه أرضية ستوديو للباليه. كنا نتفرج على التدريبات التي ينظمها مساء الأربعاء في رياضة الـ يايدو Yaido، وهي شكل قديم من رياضة الكندو Kendo، «المبارزة». وبينما نحن نشرب الشاي الأخضر ونتجاذب أطراف الحديث، كان ستة من رجال متوسطي العمر، يلبسون زيا متماثلا، يتدربون على أداء الحركات المحددة التي تتركب منها رياضة اليايدو، كل منهم يكرر بدقة متناهية حركاتها وإيقاعاتها القديمة. وكأنهم يستدعون ذاكرة مختزنة في الأذرع والسيقان. كانت الوجوه مفرغة من التعبير - الشفاه مزمومة، والأعين نصف مغلقة وباستثناء الأصوات الصادرة بين برهة وأخرى لاصطدام السيوف أو ارتطام الأقدام العارية بالأرض الخشبية، باستثناء ذلك كانت الغرفة صامتة صمتا تاما. همس كاواباتا: «الموضوع هو أن تتحرك حركة تبلغ أقصى حد من الكمال والجمال. وهذا شيء يجب أن تتعلمه. ليس بإمكانك أن تبتدعه».

لم يكن كاواباتا، في ذلك، من الهواة، وإنما كان معنيا بالحياة خارج هذه القاعة المغلقة التي كنا نجلس فيها. قال: «أنا أستخدم في تسيير الأعمال ومع الأصدقاء التكنيك نفسه الذي أستخدمه في اليايدو، فأنا دائما مستعد للاستجابة. ويرغب اليابانيون في حماية أنفسهم من تغيرات الحياة، ولكن من المهم أن يتعلموا التكنيك اللازم لذلك». وواصل الحديث في هذا السياق إلى أن انتهى الطلاب من تدريباتهم. كانوا عاملين في شركات أسماؤها مألوفة لديّ.

جعل المتدرب يكتشف روحه: روح العمل الجاد الدؤوب. من الصعب أن ينهض رجل الساراري بما يعهد إليه بإخلاص وحماس. ونحن نغوص في أعماق نفسيات متدربينا. وأهم نقطة نتبينها هي أن الناس ليسوا على صلة حميمة بأنفسهم. إنما هم ينهضون بما يوكل إليهم، لأنهم مضطرون إلى ذلك. ونريد أن يتبين المتدربون إلى أي حد حياتهم كئيبة ومفرغة من المشاعر الصادقة».

في كل يوم يعيشه المرء في اليابان، يرى رجال الساراري في طوكيو وأوزاكا وكوبي وغيرها من المدن الصناعية على طول شاطئ المحيط الهادي. وفي كل مكان نرى الصراع الدائر لاجتياز الفجوة المتزايدة التي تفصل بين المثالي والواقع، الانفصال نفسه عن المهمة القومية الكبرى لتعظيم الإنتاج الاقتصادي، والتحسس نفسه غير الواثق من أجل العثور على حافز. أليس هذا الانفصال عرضا متوطنا في العالم الصناعي؟ ولكن في اليابان وحدها، حيث يتداخل الشأن العام والشأن الخاص إلى هذه الدرجة، تلح على الناس فكرة أن توفير الحالة النفسية الملائمة أمر ضروري وحيوي ليس فقط من أجل نجاح الاقتصاد القومي، ولكن من أجل الوجود والحياة في «الواجهة اليابانية». فما يزال الياباني يفترض الانطلاق للحياة من القناعات الداخلية نفسها التي كانت تحرك الساموراي. ولكن لم يعد ثمة إلا عدد قليل من رجال الساراري تتوافر لديهم الحماسة والمشاعر التي يتحلى بها رجال السيف من أمثال تيروتاكا كاواباتا. هكذا، فإن غياب الدوافع الملائمة يعتبر مرضا يصيب الأمة.

ومن الميئوس منه أن يفهم الأجانب ذلك، الأجانب الذين يعتبرون أن رجل الساراري النموذجي هو الشخصية الأصيلة. فمحارب الشركة الدؤوب هو الحلية المركزية في «اليابان» التي صُنعت في خيالنا. وتلك صورة بغيضة، لأنها تجعل من اليابانيين ـ وفق تعبير سوسكي ـ كائنات غير إنسانية، ومن ثم مرهوبة، والواقع مختلف تماما، وهو الواقع الذي أدركه عامل الميناء في طوكيو (المشار إليه آنفا)، وكما تبينه المقارنات المألوفة الخاصة بالإنتاج بين العمال اليابانيين ونظرائهم الأمريكيين. الواقع أن ليس ثمة شيء بطولي في رجل الساراري الذي يكدح ويظل يكدح أبدا. عندما أبدى الطبيب النفسي ماساو مياموتو ملاحظات عن عدم كفاءة العمل في وزارة الصحة، أجاب المدير العام بكلمات فيها وصف لماح للنظام كما هو في الواقع: «إن تراكم عدم الكفاءة هو الذي يفضي إلى الكفاءة».

أول لقاء لي مع رجل ساراري خارج العمل حدث ذات مساء مطير، حيث كدت أتعثر فأسقط عليه، كان ذلك بالقرب من إحدى محطات مترو الضواحي، وأمطار الربيع تنهمر غزيرة، نظرت إلى أسفل فرأيت رجلا في بدلته الزرقاء ممددا على أرض الشارع، كان في أواسط عمره، وقد ظهرت التجاعيد على وجهه قبل أوانها. كان ثملا ومبتلا تماما، ولكن على قيد الحياة. وعندما فتح عينيه واكتشف أن ثمة شخصا أجنبيا يحملق فيه من أعلى، حاول أن يلتقط أنفاسه وأن يتماسك، وكأننا انخرطنا معا في لقاء عمل روتيني.

لا يستطيع المرء أن يستخلص نتائج كثيرة من مثل هذا الحادث الصغير. إن مرأى رجال الساراري الشاربين المهرولين للحاق بالقطارات الأخيرة يعتبر من المناظر المألوفة في المدن اليابانية. ولكن هذه بالضبط هي النقطة التي أتوقف عندها. يجب أن نركز على حقيقة أن الشرب بعد ساعات العمل في رفقة الزبائن والزملاء هو جزء لا يتجزأ من روتين رجل الساراري، بل إنه من لزوميات المهنة. وأن يكون المرء شاهدا على العادات الحياتية لرجل الساراري من قرب، لأمر يعادل التحقق من الهوة الكبيرة التي تفصل الصورة التي تروِّج لرجل الساراري (كنموذج رفيع في التفاني وضبط النفس)، والواقع الذي غالبا ما يكون متدنيا.

لفترة طويلة، ظل المثل الأعلى الذي يجسده «المحارب من أجل الشركة»، خدعة، ليس فقط للأجانب الذين يرون الأمور من الخارج مثلنا. وإنما خدعة أيضا لليابانيين أنفسهم حيث تتابعت أجيال كثيرة من اليابانيين المتطلعين على شاكلة السيد «ك» (بطل رواية سوسكي). وعلى مدى قرن وربع القرن بعد أن قررت الأقلية الأوليجاركية الحاكمة أن تجعل من اليابان أمة من الساموراي، خاض اليابانيون النضال باستخدام الأسلحة الأكثر رفاهة، ومحاولين أن يتواءموا مع الصورة المرسومة لليابانيين. وفي سنوات إقامتي في اليابان كان إنقاذ المحارب من أجل الشركة صناعة رابحة. وكان معهد التدريب الإداري عند سفح جبل فوجي معروفا باعتباره أعتى معسكرات جهنم، ولكن كان ثمة عدد كبير من الشركات الأخرى التي تخصصت في غرس وتنمية الروح العميقة لرجل الساراري في متدربيها. فهل صحيح أنه من الممكن أن يستحث كائن من كان في غيره مكنونا روحيا، أو أن يغرسه، أو حتى أن يستحدثه؟ أم أن الجهود المبذولة نفسها تفترض أن يكون المتدربون سلعا: مجرد «مادة بشرية»، وهو التعبير الذي أطلقه معهد جبل فوجي على متدربيه؟

بعد أن بدأ عصر الإحياء الميجي، وعندما سحب الحكام رواتب الأرز (الجراية) من الساموراي، وسرحوهم لكسب رزقهم بأنفسهم في المجتمع الجديد، اندفع هؤلاء الجنود القدامى للتوظف في المنشآت الناهضة للعصر، وسرعان ما اشتغلوا بالأعمال المكتبية في الشركات المرموقة، كما أصبحوا عمالة ماهرة في ترسانات بناء السفن ومصانع الذخيرة، مصانع الآلات المسماة (بلغة زماننا هذا) الصناعات الإستراتيجية. وما كانوا ليأبهوا بالفوارق بين العمل في المكاتب أو العمل في الورش والمصانع، وإنما كانوا (كما ظلوا) جماعة المحاربين معا.

وكان الساموراي المسرحون هم، بالدقة، نوع العاملين الذين تحتاجهم أمة في عجلة. كانوا يؤمنون بالولاء ويتوفرون على قدر من إدراك فكرة الهدف القومي. وكان من الطبيعي أن يحملوا معهم قواعد التفكير والسلوك الخاصة بالساموراي. فرجال الساراري الأوائل كانوا هم أول يابانيين محدثين يُكافأون بالترقي والعلاوات المنتظمة. وأصبحت الشركة هي البيت والعشيرة (آي ie)، وأصبحت المشاعر نحوها ترجمة حديثة للإحساس بالانتماء، الذي كان جزءا من سمات المحاربين في جيش السيد الإقطاعي المحلي (دايميو daimyo). ولكن لم يكن ثمة العدد الكافي من الساموراي. فقد كانت الصناعات تنتشر وتتوسع، وتبحث عمن يعمل فيها. الأشخاص العاديون لم يكن يتوافر لديهم إلا قليل من الفضائل القديمة، كما كان يفهمها الساموراي، فضلا عن فكرة الهدف القومي، ومن ثم فإن قصة جنود الشركات تعود في جوهرها إلى كيفية علاج اليابان لهذه المشكلة: حيث شجعت العوام على أن يتمثلوا «العادات الجميلة» الموجودة في قانون الساموراي.

وعندما بدأ النظام الحديث يأخذ شكله النهائي، في العشرينيات من القرن العشرين، لم يعد الولاء للشركات تطورا طبيعيا للولاء القديم، وإنما أصبح ولاء تشتريه الشركات، فتلك صفقة تمليها الحكمة. وجاء الوعد بتوفير العمل مدى الحياة لينتج مديرين ومستخدمين مستعدين للتفاني في خدمة الشركات المرموقة، ولم تكن تلك الشركات تبحث عن المواهب، وإنما عن شخصيات من طينة خاصة: طينة قابلة للتشكيل. ولم يكن يهمها ما الذي تعلمه طالب العمل في المدرسة، وإن كان لابأس من أن يكون قد تعلم بعض المهارات الأولية وقواعد الانضباط الأساسية، ويجري تدريب العاملين،

لطوكيو) على وعي تام فيما يبذلون من جهد ليجعلوا من الأغلبية/الرعية جمعا من المنتجين الكادحين المغلوبين على أمرهم. وشعارهم في ذلك: «لا تدعهم يعيشون، ولكن لا تتركهم ليموتوا». كان البيروقراطيون يبقون على العوام في حالة يرثى لها، بينما هم يفرضون فكرة مفارقة عن الالتزام الأخلاقي، حيث الفضيلة تُقاس بكمية الفائض المحصولي، والوفاء للآباء يعني تسديد الضرائب ودفع الإتاوات من محصول الأرز. ولم تكن إشاعة نظام قيم الساموراي لتفضي إلا إلى تأكيد الالتزامات المرعية. وهذا هو السبب في أن أصحاب الأعمال اليابانيين يفضلون التقاليد والعادات الجميلة على حكم القانون، ولهذا السبب، فإن قضية جون إيشيي، الموظف الثاني في شركة ميتسوي، كانت من بين رجع الصدى لأصوات تتردد منذ القدم.

كان توشيتسوجو ياجي، حين كتب يومياته، يعمل في وكالة إعلانات في مدينة طوكيو، متخصصة في الإعلان عن العقارات. وجاءت وفاته في ١٩٨٧ بالذبحة القلبية، بعد قليل من كتابة الفقرة الواردة أعلاه، وهي نتيجة غير مباشرة لجنون المضاربة على الملكية العقارية الذي بدأ مع اقتصاد الفقاعة bubble economy (انظر الفصل الأول) في ١٩٨٥، واستمر حتى نهاية ذلك العقد. وفي العامين الأخيرين من حياته، كان على ياجي أن يعمل على ملاحقة فيض الارتباطات الجديدة، ويدير فرعا ماليا جديدا للشركة، وأن يعمل وقتا إضافيا لتعويض انخفاض مرتبه، نتيجة لإجراءات تخفيض التكلفة الإنتاجية. ولأن منزله يبعد ساعتين عن مكان عمله، فإنه نادرا ما كان يعود إلى بيته قبل منتصف الليل.

وتلك حالة تحمل السمات المألوفة لممارسات الإدارة اليابانية. فالضغوط لتقليل التكلفة ضغوط دائمة بدرجة أو بأخرى. والعمل الإضافي، خاصة إذا كان في دورة اقتصادية قوية، عمل إجباري أو شبه إجباري. ولأن هذه الممارسات ضرورية للمنافسة في الساحة العالمية، فإنهم يطلقون عليها «الإغراق الاجتماعي»، بمعنى استخدام معايير أكثر استغلالية للإبقاء على أثمان المنتجات أدنى من أثمان نظائرها المنافسة. وقد رأيت مصنعا لإنتاج معدات البناء يعمل كل العاملين فيه ثلاثين ساعة إضافية كل شهر، ٣٦٠ ساعة كل عام. أي أن كل ستة عمال يقومون بعمل

ساعات طويلة. وحيث يكون من الصعب نقل الأبناء من مدارسهم، يضطر الآباء إلى القبول بما يسمى «تنشين فونين tanshin funin»، أي انتقال الوالد (رجل الساراري) للعمل في مدينة أخرى تاركا أسرته حيث هي. ولا توجد إحصاءات دقيقة من مصادر مسؤولة لهذه الحالة، ولكن المعروف ـ عامة ـ أن موظفي الشركات الإداريين والتنفيذيين الذين يعيشون بعيدا عن أسرهم لا يقل عددهم عن نصف مليون، وهؤلاء في الصف الأول من المهددين بالموت إرهاقا (بالكاروشي).

ذات مساء، في الشتاء، ناقش توشيرو يوياناجي Toshiro Ueyanagi، المحامي في مجلس الدفاع عن ضحايا الكاروشي، هذه الظواهر في مقر المجلس، الذي يقع في أحد شوارع طوكيو الضيقة، يقول: في سبعينيات القرن العشرين، كانت ظاهرة الموت ـ إرهاقا ـ مركزة في عدد محدود من الفئات: الصحافيين، العاملين في ورديات الليل، سائقي التاكسي. ولكن العدد تزايد بعد صدمات ارتفاع أسعار النفط، عندما بدأت الشركات تتحدث عن «خفض عدد العاملين الإداريين». ويضيف: وفي تسعينيات القرن نفسه، «أصبحت المشكلة في كل مكان»، وساعد التحديث التكنولوجي على انتشار ظاهرة الكاروشي، حيث أفسح في المجال لتخفيضات قاسية في قوة العمل. على سبيل المثال، خفضت شركة نيسان موتورز قوة عملها بنسبة ١٥ في المائة بين العامين ١٩٨٥ و١٩٨٨. ولكن لم تكن شركات السيارات وحدها في مثل هذا الإجراء. وعلى الرغم من المكانة الخاصة لهذه الشركات في اليابان، فإنها النموذج السائد، وكذلك حياة العاملين فيها. وفيما يلي وصفة لروتين الحياة العائلية كما ورد على لسان زوجة أحد العاملين في شركة تويوتا، في شهادتها أمام مجلس الدفاع عن ضحايا الكاروشي:

وردية الليل مرهقة للغاية. أعيش وأسرتي في غرفتين صغيرتين (غرفة مساحتها أربعة ونصف تاتامي، والأخرى ستة تاتامي)، ومطبخ، ولدينا طفلان عمرهما سنة واحدة وثلاث سنوات. وعندما يريد زوجي النوم، لا يستطيع الطفلان أن يرفعا صوتهما أو يلعبا، فضلا عن البكاء. لذلك نحرص على أن نكون خارج المنزل، ونأخذ معنا ما يلزم من غذاء وغيارات للأطفال، لنقضي الوقت في المنتزه. وهنا تمثل الأمطار مشكلة حقيقية، مما يضطرنا إلى الذهاب لزيارة الجيران أو الأصدقاء، ممن يعمل عائلوهم في الوردية الأخرى. هكذا نحاول التعاون فيما بيننا. وبعد حوالى ثلاثة أيام من بدء فترة وردية الليل يصبح زوجي، بسبب الإرهاق، متعكر المزاج، ويفقد أعصابه بشكل غير عادي. وهو

وتوشيرو يوياناجي، محامي أسر ضحايا الكاروشي، غير متفائل فيما يتعلق بتغيير هذه الممارسات، لأن لها جذورا شديدة العمق. يقول: «أشك في إمكان إجراء أي تغيير في النظام السياسي، أو جوهر النظام الاقتصادي، وهما المجالان اللذان يجب أن يبدأ بهما التغيير. ليس ثمة رغبة في رؤية حقائق حياة الناس العاديين، لأنه لا توجد رغبة في تغيير أحوال معيشتهم».

أعطاني المحامي يوياناجي رقم تليفون أسرة أوجاوا Ogawa، التي تعيش في شقة من ثلاث غرف، قائمة في أخر خط أحد قطارات ضواحي طوكيو. وتعرفت على تاكاماسو أوجاوا، وهو ربعة، أصلع، في التاسعة والخمسين من عمره، وهو لم يكن أحد ضحايا الكاروشي بالمعنى الكامل للكلمة. ذلك أنه كان قد نجا من الموت الذي كان يتهدده بسبب أزمة أصابته قبل ست سنوات من تعرفي به، ولكنه ولج بعد ذلك هو وأسرته حياة من العذاب والإحباط.

كان أوجاوا يعمل في شركة صغيرة تشتغل في المنتجات الكهربائية: شرائط التسجيل، واللمبات، والكيماويات، والأوراق المعالجة. وحين تُعبأ للبيع بالجملة، فإن وزن بعض العبوات يصل إلى مائة باوند، وكان أوجاوا يوصل الطلبات للزبائن في دائرة تتطلب قيادة السيارة لمسافة مائتي ميل يوميا. ووفقا لبطاقات جدول عمله، كان أوجاوا يشتغل ١٢ ساعة كل يوم، بالإضافة إلى ثلاث ساعات تقريبا يقضيها في المواصلات. وكان يأخذ إجازة يوم السبت مرة كل أسبوعين، ولكنه كان يقضي هذا اليوم في ضبط دفاتر حساباته.

قبل الانهيار الذي أصابه بأيام، لاحظت عليه زوجته يوشيكا أعراض توتر حاد، لم تفهم دلالتها إلا فيما بعد. ومن قبل، كان كثير الشكوى من الصداع، وكثيرا ما يغفو في مقعده ويتنفس بصعوبة في نومه. وفي الأمسيات التي سبقت ٢٨ مارس ١٩٨٧ مباشرة، كان يتحامل على نفسه بصعوبة من العشاء مباشرة إلى الفراش، عاجزا عن الصمود ساعته المألوفة أمام التلفزيون. في ذلك اليوم، بينما كان أوجاوا يناقش مع مسؤوله في العمل مشكلات أحد الزبائن المتعبين، أحس بألم فظيع مفاجئ في رأسه، ثم انهار في غيبوبة استمرت ثلاثة أسابيع.

كان من الصعب النظر إلى أوجاوا مباشرة، وهو جالس في كرسي بعجل بجوار منضدة المطبخ، وقد أصاب الشلل الجانب الأيمن من وجهه، والجانب الأيسر من بدنه، كانت ملامحه كبيرة دائرية، وشعره قصيرا دب فيه الشيب. وكانت صورته قبل سنوات قليلة تبرزه شخصا موفور الصحة ورياضيا. أما

مجرد عنوان إعلاني، فضمير الملكية (my-mai) يتضمن الإدراك اللماح للتوجه الجديد نحو الإشباع الذاتي. وسجلت الصحف العام ١٩٦٦ بوصفه العام الأول لظهور مصطلح maica، (my car، سيارتي).

وتكشف السيارة (maica) عن شيء أكثر من مضامين الظاهرة الاستهلاكية. فمن بين المخترعات الحديثة، لا يوجد ما يفوق السيارة في القدرة على حرث الأرض المليئة بالكوابح الكونفوشية القديمة. ففي أي مدينة، كبيرة أو صغيرة، يستطيع المرء أن يندفع مخترقا الشوارع المكتظة بسلوك عدواني فردي غير معروف صاحبه، مغلقا على نفسه بمعزل عن العالم الخارجي ـ بأعبائه والتزاماته ـ بمجرد غلق النوافذ. ومن المؤكد أن هذا يساعد على تفسير الشعبية المستمرة التي تحظى بها السيارة في دولة لا تكاد شوارعها تتسع لعدد السيارات التي يملكها الناس، كما يساعد على فهم لماذا نلاحظ أن أناسا يتمتعون بكل هذا القدر من التهذيب العفوي الموروث، يتصرفون بمثل تلك العدوانية والوحشية وهم خلف عجلة القيادة. وبعد سنوات قليلة من إعلان الصحف اليومية عن عام المايكا، أصبحت السيارة تعرف باسم هاشيرو كيوكي hashiru kyoki، أي السلاح الجامح.

ويتضمن الازدهار الاستهلاكي شكلا آخر من مفارقات الحياة في يابان ما بعد الحرب. ذلك أنه لم يؤد إلى أي شيء يحدث تغييرا في إحساس رجل الساراري باستقلاليته. وإنما لم يحدث إلا نوع من الانسحاب إلى الحياة الخاصة. وهذا أمر يختلف عن الاستقلالية، وشكل الحلم والاستهلاك، حيث يغذي كل منهما الآخر، ثنائية مكلفة. وبالطبع كان رجل الساراري هو الذي يسدد فواتير المقتنيات المنزلية المدينية. وعوضا عن إبعاد العمل عن السكن، أصبحت الحياة الاستهلاكية الجديدة الثغرة التي عادت لتدخل منها الشركات المنازل مرة أخرى. لم يُرسم الخط الذي يفصل الحياة العامة عن الحياة الخاص مرة أخرى، وإنما استمر طمسه. وأصبح من المألوف، في أثناء جنون السيارة في العقدين السادس والسابع من القرن العشرين، أن تنتزع الردهة الأمامية في مدخل البيوت المدينية المكتظة لتتحول إلى جراج للسيارة، وذلك تعبير بالغ الدلالة على حقيقة ما حدث لرجل الساراري في عصره الذهبي.

تصاعد الخط الاستهلاكي موصولا بقوة بين هاجس ضمائر الملكية في ستينيات القرن العشرين، ومهرجان الاستهلاك الصاخب في ثمانينيات القرن

وإذ سقط قناع التماثل بين الجميع، بدأ يظهر أن محارب الشركة، ناكر ذاته، آخر المتوائمين المحدثين في اليابان، قد أصبح كائنا تجاوزه الزمن، بل أصبح كائنا فيه شيء من البلادة والغفلة.

* * *

ولفهم تلك الحال، يجب أن نعود لنلقي نظرة سريعة على سبعينيات القرن العشرين، عندما تلقت اليابان بعض الضربات القاسية التي سميت شوكُّو shokku. أعيد تقييم سعر الين بالنسبة للدولار بعد عقدين لمصلحة الين. ثم بدأ الأخذ بنظام تعويم أسعار التبادل، ثم جاءت أولى صدمات النفط، وأحدثت الصدمات فوضى اقتصادية شديدة. ولم يحسن المهندسون البيروقراطيون لما سمي شركة اليابان المتحدة Japan Inc التعامل مع هذه الصدمات. انخفضت معدلات النمو وارتفعت معدلات التضخم، وتعين على طوكيو أن تُضيِّق على النهم الاستهلاكي للحد من الارتفاع المجنون في الأسعار. وعمدت الشركات إلى الكمون خلف متاريسها، كما عادت البطالة إلى الظهور لأول مرة منذ الارتباك الاقتصادي الذي شهدته أواخر الأربعينيات. وبالمناسبة، كانت تلك الفترة هي التي بدأت تظهر فيها حالات الكاروشي (حالات الموت بسبب إرهاق العمل).

وسرعان ما أفاقت اليابان من الصدمات، وعاد الاقتصاد حرا مرة أخرى إلى مسيرته في أواسط السبعينيات، ليتواصل النمو سنوات عدة قادمة. كانت اليابان تخوض معركتها بتوازنات حساسة، بهامش أضيق ومظهر متواضع، غير أن اليابان لم تُفقْ تماما من الصدمات، ولذلك فهي ما تزال عالقة بالأذهان. ولأول مرة بدأ اليابانيون يفصلون بين الشؤون الاقتصادية والحالة السيكولوجية. اهتز اليقين في إمكان أن يستمر النمو الاقتصادي إلى غير حدود، باعتبار ذلك مقولة تمتُّ إلى الماضي. وحتى قبل الصدمات، كان كثير من اليابانيين قد بدأ يطرح الأسئلة حول التكاليف الإيكولوجية والإنسانية لهاجس الإنتاجيزم GNPism، ومن ثم أصبح مجرد الاستجابة المادية لمعنى الحياة لا يبدو كافيا. حينئذاك، كان الاقتصاد الياباني قد ولج مرحلة النضج، (ولم تكن الصدمات إلا لهذا السبب)، وبدأت إعادة التفكير في وضعية الفرد ودوره عوضا عن الفكرة الجمعية القديمة. لهذا فإننا نحتاج، من أجل فهم هذه اللحظة المتفردة، إلى اجتهادات الباحثين الاقتصاديين والسيكولوجيين

نقص الكفاءة»، فإن معدل البطالة يزيد إلى ثلاثة أمثال، وذلك وفقا لتقديرات بعض الخبراء الذين يرون أن هذه النسبة ستستمر في الزيادة إلى أن تستعيد اليابان عافيتها الاقتصادية. يقول أوزاوا: «لقد أصبحت الحاجة ملحة إلى أن يتغير وعي الناس في اليابان». ويذهب أوزاوا إلى أن الأمر ملح، لأن العمل في شركة مدى الحياة، وعلاوات الأقدمية، وبقية قواعد عمل الساموراي في صيغتها العصرية، كل هذا لم يعد ميزة، وإنما أصبح عائقا.

ولكن ما الذي كان يقصده أوزاوا بالضبط؟ ومن الذي سيقوم بإجراء هذه التغييرات الهائلة؟ غالبا ما كانت التغييرات تحدث في اليابان من أعلى وليس من أسفل: على نحو أوتوقراطي، لا ديمقراطي. وهنا يكمن أشد التغييرات ضرورة. كتب أوزاوا ما كتب بصفته مسؤولا كبيرا في الحكومة المركزية، كرجل من رجال «القمة»، كرجل ينتمي إلى «التقاليد العظمى» great traditions، فماذا عن اليابانيين العاديين الذين ينتمون إلى «التقاليد الصغرى» Little traditions؟ كان أوزاوا على حق فيما يتعلق بالتعبير عن الحاجة إلى تغيير الوعي. ولكن من أي شيء يتركب أو يتشكل هذا التغيير؟ في هذا الصدد، كان ثمة أناس كثيرون أسبق من أوزاوا، كثير من رجال الساراري وعائلاتهم، وجيل « الجنس البشري الجديد»، فمن المستحيل تغيير النظام كما اقترح أوزاوا، دون وضع حد لاعتماد الناس على السلطة، الذي تعهده القادة اليابانيون بالغرس والرعاية على مدى الزمن. فتلك مرة أخرى، هي أشد الحاجات إلحاحا على الإطلاق. والسؤال الأهم هو: هل سيقبل رجال مثل أوزاوا، وأصحاب الشركات التي توظف جيش رجال الساراري، هل سيقبلون مثل هذا التغيير؟ ولهذا السؤال وجاهته. إن كثيرا من الدلائل تشير إلى هذا الاتجاه، في الوقت الذي هاجم فيه أوزاوا أسطورة المحارب من أجل الشركة.

في ١٩٩١، نشر أكيو كويزوAkio Kioso، وهو أحد رجال الساراري، كتابا آخر متميزا، عنوانه: مذكرات موظف في بنك فوجي **Record of a Fuji Bank Man**. لم يسبق أن كُتب إلا القليل عن حياة رجل الساراري والعلاقات الحقيقية بينه وبين الشركة التي يعمل فيها. حطم كويزو جدار الصمت الثقيل الذي كان جاثما فوق صدور محاربي الشركات، ثم تقدم بعده عدد آخر من رجال

التي تترك للناس حرية الانتقال من وظيفة إلى أخرى، أي أناس يكرسون ولاءهم لأنفسهم.

* * *

ذات مرت قمت برحلة إلى شاطئ بحيرة بيواكو Biwako، وهي كبرى بحيرات شمال شرقي كيوتو، حيث كان يتدرب أربعون شابا من الجنسين، بعد التحاقهم مباشرة بالعمل في شركة توراي، وهي شركة كبرى في مجال الألياف الصناعية. كان يوما من أيام أبريل الدافئة، بعد قليل من ظهور نتائج التخرج في الجامعات، وخلف منصة وميكروفون، كان يقف رجل ذو شعر رمادي يرتدي بدلة لونها أزرق سماوي، (سروال وجاكيت قصير طراز أيزنهاور). وعلى جيب الجاكيت العلوي بطاقة بيضاوية تحمل اسمه: مونيشي Muneishi.

وكان السيد مونيشي، وهو رجل ساراري متقاعد، يجمع بين دوره كشاويش تدريب، وصفته كمستشار للمعسكر. قسم السيد مونيشي الدفعة إلى أربع فرق، ويختار كل فريق من بين أفراده مندوب مبيعات وموظفة استقبال، ورجل ساراري، وكاشو (رئيس فريق). وكان برنامج التدريب بسيطا: يدخل مندوب المبيعات، يحيي موظفة الاستقبال، يطلب مقابلة الكاشو (رئيس الفريق)، يصطحبه أحدهم إلى مكتب رجل الساراري، رجل الساراري يبحث عن رئيس الفريق ويحضره، انتهى. في هذه الأثناء: كثير من الانحناءات، وتبادل بطاقات التعارف، وكلام عن الطقس، وحديث حول العمل، وما إلى ذلك. تستغرق هذه المسرحية الهزلية القصيرة بضع دقائق. وأحيانا كان الممثلون يتهامسون إلى درجة تكاد لا تسمعهم. بعد النهاية، يقوم السيد مونيشي بعمل التقدير وإعطاء الدرجات.

يعلن: «فريق أ، أسلوبكم حسن، ولكنكم نسيتم مناقشة السعر والمواعيد، وهذه أمور مهمة. مخصوم درجة واحدة».

تظهر الدرجات على سبورة، فيتململ الشبان والفتيات الجالسون حول منضدة الفريق أ. يواصل السيد مونيشي: «الفريق ب، مندوب مبيعاتكم لم يقدم بطاقة تعريفه، مخصوم درجة. ولم يقم الموظف الكتابي بتقديم بطاقته في الوقت الصحيح، مخصوم درجة».

وهكذا: نسي واحد من أفراد فريق آخر أن يقول: «شكرا جزيلا»، عندما قدم له الزائر بطاقته، مخصوم درجة. وقام آخر بوضع البطاقة التي قدمت له في جيبه، مخصوم ثلاث درجات: ذلك أن بطاقة التعارف يجب أن تظل

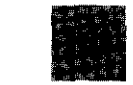

رسائل عمل، ويسجلون المواعيد ويجدولونها. وللإعداد لكل واحدة من هذه المهمات، كانوا يدرسون كتبا سميكة تربط النصوص المكتوبة بالصور التوضيحية، على طريقة كتاب **رجل المرتب في اليابان Salary Man in Japan** وسألت: هل يمكن أن أرى كتابا من هذه الكتب؟ والإجابة لا، لأنها ليست للتداول إلا بين «الناس في داخل المعسكر».

كان يجري تدريبهم ليصبحوا كائنات اجتماعية (shakai-jin). وصنع آلة فلوت يعلمهم شيئا من القدرة على الخلق، والعمل كل بمفرده، وكانوا يتعلمون أيضا كيف يمكن أن يكون الخطاب والتواصل مع الأغراب. وفي تمثيل تلك السيناريوهات، كانوا يبدأون في التعرف على قواعد السلوك في دوائر الأعمال، وهي القواعد التي كانت على القدر نفسه من البساطة والصرامة والدقة، كما كانت مراسيم بيروقراطيي عصر التوكوجاوا، التي صدرت منذ قرون لضبط سلوك الساموراي وحياة الفلاحين.

عندما بدأت زيارتي لمعسكر التدريب، استقبلتني جماعة من المسؤولين في شركة توراي، الذين لهم جميعاخبرة سابقة مع المستجدين، الذين يبدأون حياتهم العملية في الشركة. وكان يبدو لهم أنه لم يجدَّ جديد تحت الشمس، غير أن أحد المديرين من بينهم لم يوافق على ذلك تماما. كان رجلا ربعة، ذا ملامح صارمة، على عينيه نظارة معدنية، قال: «أرى شخصيا، أن الأجيال الناشئة لديها بعض الأفكار المتعلقة بالرغبة أو عدم الرغبة في البقاء في خدمة الشركة لمدة طويلة. ما يزال الأمر غير واضح، فهم غير ملتزمين وغير قادرين على اتخاذ القرار».

وقابلت شابة تسمى يوكيكو هاياشي، لم تكن من النازحين من الريف، ولكن مولدها ونشأتها كانا في طوكيو. تخرجت في قسم الاجتماع في جامعة واسيدا Waseda، وهي جامعة خاصة مرموقة في العاصمة. وكانت هاياشي قصيرة القامة، يقظة، ترتدي ملابس شبابية فضفاضة (كاجوال)، وعلى الرغم من أنها تخرجت، فإنها كانت ما تزال تتصرف بنوع من العفوية وعدم الاكتراث الذي يميز الطلاب الجامعيين. وليس من الصعب تصورها وهي تسير حاملة على ظهرها حقيبة مليئة بالكتب. قالت: «بالنسبة لي، كامرأة، الأولويات تختلف، فأنا أعطي الاعتبار الأكبر للجو السائد في داخل الشركة، ولا أهتم إلا قليلا باسم الشركة، وإنما يهمني ـ بصفة خاصة ـ أن أكون في شركة أعمل فيها بحرية».

5 السعادة في ركن خفي

عندما تبتسم ميشيكو فوكوشيما Michiko Fukushima، وهي غالبا ما تبتسم، تضيق عيناها حتى تكادا تبدوان مغمضتين، وتزداد الخطوط على جانبي عينيها وضوحا. كانت السيدة فوكوشيما ضئيلة الحجم، نشيطة، في الثانية والستين من عمرها، عندما قابلتها في أوائل تسعينيات القرن العشرين. وأثناء الحديث معها، كان فضولها يمتزج بشيء من الارتباك والحرص على الإبقاء على مسافة بُعد مع محدثها. وكان مكتبها في أحد أحياء طوكيو السكنية: غرفتين مزدحمتين بالكراسي القابلة للطي، رفوف الكتب والملفات، وحوافظ بكرات الأفلام، كما توجد منضدة كبيرة نوعا ما ذات أرجل قابلة للطي، من النوع الذي يمكن أن يوجد في قاعة اجتماعات مدرسية.

وليس في اليابان أواخر القرن العشرين نساء كثيرات مثل فوكوشيما: فهي سيدة لها استقلاليتها، شقت طريقها في الحياة بجهدها الخاص. وهي تعي تماما، مثلما يعي الآخرون

أسلافنا حجبوا الضياء عن الأرض في الأعالي، وخلقوا عالما من الظلال والأشباح، وفي أقصى الأعماق، وضعوا النساء، ليجعلوهن أشد الكائنات شحوبا.

جونيشيرو تانيزاكي
في تمجيد الظلال والأشباح، ١٩٣٣

في سنوات ما قبل الحرب على الشعارات الوطنية. وظل هذا الفيلم مصدر إلهام لكثير مما تتابع من تجارب في حياة فوكوشيما.

في العام الذي رأت فيه فوكوشيما ذلك الفيلم، تزوجت طالبا في كلية الهندسة، يسبقها بعام في الدراسة، وأنجبت منه طفلا. ولم يكن الزواج ـ على غير المألوف في ذلك الزمان ـ مرتبا من خلال خاطبة، وزيارات ومقابلات غبية، ومفاوضات عائلية. وإنما اختارت فوكوشيما زوجها، الذي وعد باحترام استقلاليتها. ولكن اتضح فيما بعد أن الزوج، وفق تعبير فوكوشيما، كان «يابانيا جدا». والتحقت فوكوشيما بالعمل في شركة إنتاج صغيرة، ولكن الأعباء المنزلية سرعان ما تصاعدت. ولم يُحسم الوضع العائلي، وربما لم يكن ذلك غريبا جدا، إلا من خلال مسألة المكتب.

قالت فوكوشيما، وهي تضحك ضحكة هادئة: «تبدو القصة عجيبة، ولكن الحق أنني كنت أريد مكتبا خاصا لي. أشار زوجي إلى مكتبه قائلا: استخدمي هذا، إنه ملكنا. ولكني كنت أريد مكتبي الخاص. كنت أريد عالمي الخاص».

ولجت فوكوشيما عالمها الخاص في سن الحادية والثلاثين: طُلقت في ١٩٦٢، وذلك أمر آخر نادر الحدوث في ذلك الزمان ـ ولم تعد منذئذ، من ممتلكات عائلة الزوج أو عائلة الأب. وبينما كان الجيران يتهامسون، شقت فوكوشيما طريقها ككاتبة سيناريو ومخرجة لأفلام تسجيلية. كان العمل شاقا، تحركات وانتقالات مستمرة، ومعدات ثقيلة، وطاقم من العاملين الرجال، وسكن في غرف فنادق رخيصة. إنه عالم على المرأة أن تثبت فيه جدارتها للصمود في غمرة ما تحدثه من ردود فعل مقلقة. ولكنه أيضا واحد من المجالات القليلة التي، إن تمكن شخص من إثبات نفسه فيه، يصبح لا مجال للتمييز بين الرجال والنساء أو لتفضيل أيهما على الآخر.

دفعت فوكوشيما ثمن استقلاليتها غاليا. لم يسمح لها برؤية ابنها بعد الطلاق إلا بعد أن مات زوجها. مات بالسرطان في وقت ما من أواخر ثمانينيات القرن العشرين ـ وهي لا تذكر التاريخ بالضبط. وكان ابنها في الخامسة والثلاثين من عمره عندما التقيا ثانية، وكان قد غاب عن ناظريها ثلاثين عاما متواصلة.

نستطيع أن نقول إن فوكوشيما لم تكن أبدا نادمة على اختياراتها. غير أنها كانت تبدو على حافة الأسى عندما تستعيد تجارب حياتها، وإن كانت

اليابان ـ أكثر من أي مكان آخر ـ يعاني الرجال مثلما تعاني النساء، وأنه في كل عمل من أعمال القهر، فإن القاهر والمقهور كلاهما ضحية.

ولكن المشكلة الأكبر بين رجال اليابان ونسائها، المشكلة التي تكمن خلف الاختيارات الراديكالية المندفعة للسيدة فوكوشيما، هي الافتقار شبه الكامل الى مشاعر الحب التي يمكن رؤيتها في اليابان العصرية ـ أي الغياب الموحش للتعاطف بين الجنسين. عندما قابلت السيدة فوكوشيما، كان أكثر ما لفت نظري هو شجاعتها والعزلة التي اختارتها، ووقوفها بكبرياء خارج دوائر التمييز في الحياة اليابانية. ولكن اختيارها لحياة مستقلة ـ وأن تأخذ مسؤوليتها بيديها، كما تقول ـ لم يُضف إلى محنتها العاطفية شيئا. فعلى حد تعبيرها، كانت حياتها، حتى أثناء الزواج، فارغة. وفي التحليل الأخير، تجلت شجاعة فوكوشيما في صدقها البسيط الجسور، في الحديث عن نفسها ومجتمعها.

ومشكلة غياب المشاعر الحميمة، التي هي جزء من نسيج المجتمع الياباني، لا تجد لها حلا، لا في الزواج، ولا خارج الزواج، فالمشكلة جزء من التركة التاريخية، فماضي اليابان هو الذي جعل منها أرضا يربط أهلُها المشاعرَ الحميمة بنوع من الفساد. وأن يجد المرء حلا للمشكلة ـ أن يكتشف الحب والمشاعر ـ الحميمة ثم يعلنها ـ يعني أنه تمكن من الهروب من شبكة العلاقات المقررة في الواجهة العصرية للمجتمع الياباني omote nihon.

في رواية قصيرة بعنوان **زمن النجوم Star Time**، صدرت العام ١٩٨٠، نرى فتاة صغيرة في أحد شوارع المدينة، تحاول تفادي الشقوق بين بلاطات رصيف (يرمز إلى الشبكة الاجتماعية)، التي من المفروض أن يلتزم كل فرد في اليابان الحديثة بمكانه فيها. تبدأ القصة: «كانت الطفلة تسير بطريقة غير سوية، وهي تحاول أن تتجنب شقوق الرصيف»، بينما يتجاوزها الكبار في سيرهم، غير مبالين بما هي عليه من ارتباك ثم:

بينما هي تحاول أن تتفادى الشقوق التي لا تتوافق مع خطواتها الطبيعية، ومع كل خطوة تخطوها، كان جسم الطفلة وكأنه يدرك غياب الحب في عالم لا يبالي بوجودها على الإطلاق. افتقارا ما كانت لتستطيع أن تقبله، ولا أن تتواءم معه بأي حال. وما تفعله الآن، في الحقيقة، هو أنها تبحث عن جذور كل هذه الآلام التي أصبحت لسبب لا تعرفه، جزءا من حياتها، يوما بعد يوم وباطراد، منذ وعت لأول مرة أن احتياجاتها، إلى ضمة صدر أو رضعة ثدي، لا يستُجاب لها.

اليابانيات. وعلى كل حال، لم تكن النوايا، في الأصل، صحية، فإرسال بضع فتيات لتلقي تعليمهن في الغرب لم يكن إلا بندا في برنامج إظهار اليابان كأمة متمدنة جديرة بأن يعقد الغرب معها معاهدات متكافئة.

ومن المفيد أن ندرس الثمانينيات وفي أذهاننا شيء من تاريخ ذلك الوقت. كانت اليابان تستعرض على العالم فجأة، انفتاحا للنساء في مجالات الاقتصاد والجهاز البيروقراطي والنظام السياسي، لأن ذلك جزء من معنى أن تصير عالميا. كما كان ذلك يتماشى مع الوفرة والنفوذ العالمي. ولكن الجوهر كان دائما غائبا. وما كان التشجيع الذي قوبلت به النساء في الثمانينيات إلا شبيها بذلك الذي قوبلت به منذ قرن: فكلها أمور تتعلق بالمظهر.

وللتوجه الأنثوي تاريخ طويل في اليابان. في نوفمبر ١٩١١، وقد شارف عصر الميجي على نهايته، عُرضت مسرحية إبسن «بيت الدمية» A Doll's House في طوكيو لأول مرة. وبعدها، ولأكثر من عشر سنوات، دار النقاش بين النساء حول إن كانت نورا على حق حين أقدمت على تَحَدِّي زوجها وترك المنزل. وتعتبر نساء اليوم أن تلك المناقشات، التي اختلفت فيها الآراء واحتدمت المساجلات، والإثارة التي صاحبتها، إنما كانت بداية الحركة النسوية في اليابان. فتلك كانت أول مرة تناقش فيها النساء أفكارهن الخاصة عن دورهن ومكانتهن في المجتمع. وقد ضربت شخصية نورا على الوتر الحساس، لأن مكانة المرأة في داخل البيت أو خارجه كانت هي جوهر مشكلة المرأة في اليابان، وما تزال هي كذلك حتى اليوم: أين مكان المرأة اليابانية؟ ولكن المشكلة حينذاك هي بعينها المشكلة الحالية أيضا: المشكلة هي أنه لم يحدث أي تغير في المجتمع يدعم اختيارات استقلالية النساء ـ النساء اللواتي على شاكلة ميشيكو فوكوشيما، ولا يوجد شيء يبرر وجود أي إجابة أخرى.

المشكلات النسائية الخاصة بالاستقلالية والمساواة في اليابان مشكلات معقدة، بسبب الدور الذي أُوكل إلى المرأة في الماضي. ففي الماضي عُرِّفت المرأة تعريفا مقصودا من جانب الرجال بأنها مواطن من الدرجة الثانية، وكائن اجتماعي أدنى. غير أن النساء لم يكُنَّ بلا دور أو نفوذ. ويمكن مقارنة ذلك بما يجري في مسرح الكابوكي، حيث يقوم الرجال بالأدوار النسائية. فالمرأة ليست مؤهلة لتمثيل حتى نفسها، وذلك لأنها امرأة. فالمرأة مثلها مثل الكوروكو kuroko، وهي كلمة تعني حرفيا «الشخص الأسود»، هذا الذي يلبس

وذهبت النساء للعمل في إنتاج الذخيرة في المصانع، ودفع الأزواج والأبناء من أجل أن يبلوا بلاء حسنا في خدمة الإمبراطور. وتأجل حق الاقتراع العام خمسة عشر عاما إلى أن صدر به قانون على يد قوات الاحتلال.

* * *

في أول انتخابات بعد الهزيمة والتسليم، من دون قيد أو شرط، في أبريل ١٩٤٦، اشترك في الانتخابات امرأتان من بين كل ثلاث ممن لهن حق التصويت، وجميعهن طبعا لأول مرة. وفازت تسع وثلاثون امرأة بعضوية الدايت (مجلس النواب)، لتحتل بذلك المرأة ١٠ في المائة من مقاعد المجلس. ولكنها نسبة لم تتحقق بعد ذلك مرة أخرى.

وقد شهدنا الشيء نفسه يتكرر في مجالات أخرى، في النقابات والنظام التعليمي: شهدنا طفرة حيوية، أعقبها تراجع، ذلك أن يابان ما بعد الحرب سرعان ما دفعت النساء مرة أخرى للقيام بجولةجديدة في أداء دور «الزوجة الصالحة والأم العاقلة»، وأصبحن زوجات لساموراي الشركات الكبرى، ثم كائنات استهلاكية، ثم أمهات مشغولات بتعليم أطفالهن. وكانت العقود الثلاثة التي أعقبت الحرب هي الفترة الوحيدة في تاريخ اليابان الحديث، التي شهدت هبوطا في عدد النساء العاملات.

ولكن المرأة لم تعد إلى وضعية «الشخص في الداخل» مرة أخرى أبدا، ذلك أن النشاط النسائي كان ملحوظا في السياسات والشؤون المحلية والبلدية. وكانت المعارضة النسائية قوية بصفة خاصة في مواجهة تطبيق النهج العكسي في مجال التعليم، فأجّلنّ على الأقل، أسوأ نتائجه. وحين اندفعت اليابان في مدارج معدلات التنمية العالية، لتصبح بيئتها من بين أكثر بيئات العالم تلوثا، كانت مشاركة النساء جوهرية في الحركة العامة التي فرضت صدور أول قوانين لحماية البيئة.

في ١٩٥٤، أقدمت مجموعة من النساء في طوكيو على تكوين جمعية للكاتبات، وكانت الكتابة هي النشاط النامي المميز لتلك الفترة. وبعد ذلك بقليل قامت إحدى العضوات، وهي سيدة في الحلقة الخامسة من عمرها، تسمى يازوكو أواتا Yasuko Awata، بنشر مقال بعنوان «صحوة ربات البيوت وسعادتهم الصغيرة» "the Awakening of Housewives and their Small Happiness". يصف المقال الصراع الذي تشعر به النساء بين الدور

جاء يوم تتحرك فيه الجبال
ولا أحد يصدقني، أقولها، ولا أحد يصدقني
نامت الجبال طويلا
ولكن، في زمان سحيق، كانت كلها ترقص باللهب
لا أحد يصدقني، ولكن لا بأس
يا أصدقائي، إن كنتم تصدقون
تصحو النساء النائمات جميعا
تصحو الآن، وتتقدم

كان كثير من اليابانيين يعرفون هذه الأبيات، كما يعرفون القصة الملهمة لحياة يوزانو. في هذه السطور الثمانية تمكنت الشاعرة من أن تعيد إلى الذاكرة حيوية النساء اليابانيات في القدم، وما أعقبها من معاناة طويلة صامتة، ثم التفاؤل المنعش الذي ارتفع مدُّه وانحسر مرة بعد أخرى، منذ زمانها حتى أيامنا. لعبت تاكاكو دوي على كل هذه الأوتار. وهكذا، أعلنت السيدة الأكثر تعبيرا عن جيل صاعد من النساء المشتغلات بالسياسة، أن آمالا كبيرة طال انتظارها قد بدأت تتحقق.

وبقيت من السنوات التالية أشياء قليلة. عنيت النساء بوضع قضايا جديدة في الأجندة القومية: السماح بإجازة وضع وتقنينها، المساواة في المعاملة الضريبية، تعويض «نساء المتعة» وغالبيتهن من الكوريات والصينيات المسجلات كفتيات متعة لقوات الإمبراطور أثناء حرب الباسيفيك. وكان عدد قليل من مثل هذه المشكلات قد طُرح للنقاش حتى قبل انتخابات ١٩٩٠، وحدث تقدُّم في علاج بعضها، وليس كلها.

غير أن السيدة دوي أخذت الأمور إما بخفة،وإما على نحو غير واثق - عن عمد. ففي تلك اللحظة لم يكن في أحوال المرأة مجال لشعر، وإنما هو الإمكان فقط. واكتفت دوي بدعوة النساء لعمل ما يفعله اليابانيون - عادة - عندما يبدو التغيير وشيكا: أن تكتفي بالأحلام لإشباع تطلعاتها، وأن تقنع بالتعلق بالرموز الجوفاء، وأن تقتصر على مظاهر التغيير دون جوهره.

لم تغير النساء ناجاتاشو (المجتمع السياسي) بقدر ما غيرهن. ففيما عدا التصويت معا، في صف بعض القضايا، عجزت النساء عن التلاحم وتكوين قوة سياسية ذات فاعلية. ومن دخلت منهن البرلمان، اتجهت إلى أن تحتويها

أمي. كان ثمة عدد كبير من السيدات القويات أثناء عصر الميجي، نساء يعتمد عليهن، على الرغم من النظام الإقطاعي».

بعد لحظة صمت، قالت هيروناكا، وهي متجهمة: «حدث التغيير بعد الحرب».

«ماذا حدث؟»

«فقدت النساء القوة الداخلية».

«النساء فقدن القوة الداخلية؟ وما السبب في ذلك؟»

«كوابح المجتمع وضغوطه تعطي النساء قوة، وتعطيهن نوعا من الكبرياء، تتنافى مع وضعية نورا في مسرحية بيت الدمية، بعد أن تركت عائلتها. وهذا ما أعنيه عندما أقول إنني لست من النوع الذي ينشغل بالمطالبة بالحقوق».

* * *

تعرفت على واكاكو هيروناكا في ظروف تدعو إلى التفكير، حيث كانت تحاضر في مدرسة لتعليم النساء الراغبات في الاشتغال بالسياسة، وهي المدرسة الأولى من نوعها في اليابان، وربما هي المدرسة الأولى من نوعها في العالم، أنشأها أحد أحزاب المعارضة، حزب اليابان الجديدة، بعد انتخابات ١٩٩٠. كانت هيروناكا معلمة غريبة في نوعها، فلأنها من عائلة أعيان، كانت تميل إلى اتباع مراسم تقاليد الساموراي العظيمة، ولم يكن من بين طالباتها إلا عدد قليل ممن يتمتعن بهذه الخلفية الاجتماعية الثقافية نفسها. كانت تدعو إلى صيغة خاصة من «للرجال المكانة، وللنساء السيطرة». ومن أجل ذلك، من أجل تَمثُّل النساء لتقاليد الساموراي، كانت النساء بحاجة إلى مدرسة يتعلمن فيها كيف يشتغلن بالسياسة.

ولكن، ماذا كانت النساء العاديات يعملن في الواقع، حين كانت هيروناكا تلقي محاضراتها؟ في وقت ما من أواسط السبعينيات، غيرت نساء اليابان نمط ما بعد الحرب، وعُدن إلى العمل بأرقام كبيرة. وبحلول العام ١٩٩٠، كان ثلثا النساء يعملن: ٢٥ مليون امرأة، ٤٠ في المئة من مجموع القوى العاملة. ولكن لنلق نظرة أكثر تمحيصا على بعض الأرقام الأخرى. كانت ربع النساء العاملات في ١٩٩٠ يشتغلن بعض الوقت، وهن يشكلن ٨٠ في المائة من مجموع العاملين بعض الوقت من الجنسين معا. وفي الخمسة عشر عاما بين ١٩٧٥ و١٩٩٠، وهي الفترة التي تحولت فيها اليابان إلى دولة صناعية كبرى،

مطروحا على البرلمان، وسيجد حلا إن آجلا أم عاجلا. ولكن من الصعب التنبؤ بموقف نساء من نوع هيروناكا عندما تُحل القضية.

دخلت انتخابات ١٩٩٠ والسنوات التي أعقبتها ذاكرة اليابانيين باعتبارها فترة «ازدهار المادونا The madonna boom»، وهذا تعبير اخترعته الصحف القومية للتقليل من شأن نتائج الانتخابات، مثلما سبق وكان موقف الصحف من الفتاة العصرية «مودان جارو» في عشرينيات القرن العشرين، والحركة النسائية (أو النسوية) بعد نصف قرن. وكانت ماريكو ميتسوي Mariko Mitsui هي المادونا التي لفتت الأنظار أكثر من أي واحدة أخرى من نمطها. ولأنه كان من الصعب تجاهل أقوالها ومواقفها، فإنه لم يكن من السهل أيضا تجاهلها باعتبارها رمزا حيا لازدهار المجتمع النسائي المشتغل بالسياسة. وبعد انتخابات ١٩٩٠، اعتادت الصحف اليومية الكبرى أن تطلق عليها اسم «المادونا الأولى» (جونسو مادونا gonso madonna).

«نحن بحاجة إلى إستراتيجية جديدة، وتحديد أولويات جديدة، وأفكار جديدة، وأساليب جديدة لوضع القضايا على جدول الأعمال. الآن لا توجد قوانين لها أي فاعلية، كما لا توجد أي سياسات عامة. علما بأن القضية التي لا تُطرح، ليست قضية على الإطلاق». هذا ما قالته لي ميتسوي.

والسؤال هو: ماذا يحدث لمن تقول مثل هذه الأشياء من النساء، ما الذي يحدث لنساء على هذا القدر من الذكاء والأمانة والصدق مع أنفسهن، ومع اليابان، إلى درجة تجعلهن قادرات على رؤية الهوة التي تفصل بين ما هو مثالي وما هو واقعي، قادرات على تبين أن فكرة «للرجال المكانة وللنساء السيطرة» لا تفضي إلا إلى نتائج جد هزيلة؟

كانت ميتسوي في الرابعة والأربعين من عمرها، نحيلة القوام، متعبة أبدا، ولكنها نابضة بالحياة دائما. يرى المرء في ملامح وجهها الواضحة الحادة، الشمس القديمة مشرقة. كانت هي فتاة الريف بقدر ما كانت وكاكو هيروناكا فتاة المدينة. وهي، أي ميتسوي، تنحدر من أسرة فقيرة، ابنة بقال من فقراء الشمال، لم تعرف عدم المساواة إلا بعد أن جاءت إلى طوكيو- بعد إنهاء دراستها الجامعية - للبحث عن عمل. وكانت ميتسوي، مثلها في ذلك مثل هيروناكا، قد عاشت في أمريكا، ولكنها أمريكا من نوع مختلف : فوقتها كانت موزعة بين المسيرات ومتاريس الشوارع، وانضمت إلى حركات الدفاع عن

الجامد. وإذا توقعنا أن يقدم الاشتراكيون الديموقراطيون أي سياسات ديموقراطية، فإننا نكون واهمين». وإنني لأتذكر ما جال بخاطري آنذاك، وهو أن ميتسوي قد حسمت، في تلك الليلة، أمر مستقبلها السياسي ومستقبلها كامرأة يابانية. فتلك كانت اللحظة التي ولجت فيها ميتسوي عالم العزلة والوحدة الذي كان في انتظارها طوال الوقت. ولم تلبث أن أصبحت طبعة أخرى من نمط تكرر من أمثال أكيكو يوزانو، الشاعرة الأولى المدافعة عن قضايا المرأة، وميتشيكو فوكوشيما، المخرجة السينمائية التي هجرت عائلتها.

وكان من الطبيعي أن تخفق محاولة ميتسوي الوصول إلى مقعد في البرلمان، كمرشحة مستقلة، لا يساندها أي جهاز سياسي كبير. ويمكن أن يُؤخذ عليها بعض المواقف المسرحية، واستيراد كثير من أفكارها من الخارج (وتلك غلطة مألوفة). وفي كُتُبها ـ وقد صدر لها الكثير ـ أبدت إعجابها بالأمريكيين لنظامهم التشريعي، وبالنرويجيين، لما حققوه بالفعل من ضروب المساواة. وعملت لقاءات مع مادلين كونين، وقت أن كانت حاكمة لولاية فيرمونت، وجرو هارلم برونتلاند، رئيسة وزراء النرويج. وإني لأتخيلها، في مثل هذه المقابلات، وهي منحنية أمام محدثتها انحناءة التلميذ أمام المعلم. قدمت ميتسوي نساء أجنبيات إلى اليابانيات كنماذج تحتذى. ولكنها لم تكتف بذلك، وإنما سارت بأفكارها إلى نهايتها المنطقية. كانت قد حاولت استكشاف عالم مهدم، ثم شرعت تعمل على إصلاحه وإعادة بنائه. صنعت من نفسها إنسانا جديرا باحترامها. وكل هذه أمور عظيمة القدر والقيمة.

* * *

في ١٩٩٢، تزوج الابن الأكبر للإمبراطور، وولي العهد، ناروهيتو Naruhito، من مواطنة عادية تسمى ماساكو أوادا Masako Owada. كانت أوادا في التاسعة والعشرين من عمرها، تشغل وظيفة في وزارة الخارجية، درست اللغويات في هارفارد. وقضت الصحف وشبكات الإعلام يوما مشهودا في صحبة أوادا-سان، وهو الاسم البسيط الذي عرفت به لدى كل اليابانيين. سردت الصحف ووسائل الإعلام القصص عن كل شيء، حتى عن أحذيتها، وحقائب يدها، وأرديتها: قصصا توحي بالقداسة، ثم جعلت من احتفالات الزواج نوعا من العروض المسرحية الأخلاقية ـ شبه الدينية ـ عن النساء في اليابان.

إلى ملابس عجائز العقيلات، وتحول وجهها الذي كان مفعما بالحيوية والنشاط، إلى وجه تعلوه ابتسامة نمطية معقدة ومنهكة، من نوع تلك الابتسامات التي تكسو أقنعة «نوه» القديمة المحفوظة في المتاحف كجزء من الموروثات القومية الثمينة.

علَّقت النساء، خاصة من جيل أوادا، أهمية رمزية كبيرة على الزفاف الملكي. والحق أن ذلك كان خطأ من البداية: فأي زواج ملكي هذا الذي يمكن أن يشير إلى تغيير أساسي في حياة الرجال والنساء معا؟ وكان سوسكي ناتسومي سابقا لوقته حين قدم لنا صورة معبرة للفرد الذي يعيش بمنأى عن الحب في اليابان المعاصرة؛ إذ ورد على لسان الراوي في رواية **كوكورو** ملاحظة تفيد المعنى نفسه فيما يخص بطل الرواية السيد «ك»، حيث يقول: «كان كما لو كان قلبه قد طُلي بطبقة كثيفة من الطلاء الأسود، لدرجة تمنع الدم الحار من النفاذ إلى داخله». وفي هذا يصف سوسكي صياغة المشاعر والعلاقات الحميمة على طريقة الساموراي. وتلك هي الفكرة التي قُصد أن يخدمها ذلك الزواج الملكي، ألا وهي: مراسم الماضي مطبقة في الحياة الحاضرة، إعلاء اعتبارات الإجلال والتبجيل فوق مشاعر الحب الفردي.

ولم تبدأ النساء في بناء حياة مهنية لها مستقبل إلا بحلول التسعينيات. وصلت نسبة النساء في المحاماة إلى ٣ في المائة، وفي الهندسة الكيميائية إلى ٣ في المائة، ومن بين كل مائتي مهندس مدني كان ثمة امرأة واحدة. وفي الوقت الذي عقد فيه قران أوادا-سان على أميرها، لم تكن النساء تحتل إلا أقل قليلا من ٣ في المائة من المناصب الإدارية. (وهذه النسب تمثل تحسنا ملموسا). ولكن الصورة التي كانت تقدم حينذاك عن النساء ـ مثل النمط المتنفذ الواثق من ذاته، النساء اللاتي لهن حضور طاغٍ ومراكز مهنية عليا، ومجلات النسوة اللاتي اخترن نمط الحياة منفردات متباعدات ـ لم تلبث أن اعتبرت صورة للمظهر، للسطح، للواجهة، للعرض (omote). أما الداخل غير المنظور (ura)، فقد ثبت أنه مظلم إلى حدٍّ كبير. فكيف يمكن أخذ موضوع تقدم المرأة بجدية في مجتمع لا يكاد يسمع عن دور الحضانة، وفيه لا تفتح رياض الأطفال أبوابها إلا في ساعة متأخرة من النهار وتغلقها في ساعة مبكرة من المساء، على نحو لا يتلاءم مع مواعيد المرأة العاملة. والبقاء في وظيفة مدى الحياة، والترقية بالأقدمية ـ وهما من السمات المميزة للعمل في

من هم هؤلاء الزبائن؟ تجيب أوهيوا: «زبائننا أناس يرغبون في الاستمتاع بالحياة، وهم مفعمون بمشاعر الحب الإنساني».

غير أن المشروع الذي أقامته أوهيوا لم يكن من النوع الذي يمكن أن نتصوره. وضعت أوهيوا على الشركتين اللتين أنشأتهما لافتتين: المركز الرئيسي للخدمة الفعالة، الرئيس الناجح. وإذا فهمنا شيئا من هذا التجمع الغريب المستعار من كلمات أجنبية، فإن هاتين اللافتتين توحيان بأهداف معينة. كما يوحي ذلك شكل السيدة أوهيوا، وهي سيدة متأنقة انفعالية، شعرها خفيف منسق، ونظارتها كبيرة، وهي صريحة ذات عزيمة، معتزة بنفسها لأنها استطاعت أن تسيطر على الروح المحافظة والحذر الذي يتسم به اليابانيون في خطابهم العام. قالت: «في

الثمانينيات، كان الناس قد بدأوا يتحدثون عن أهمية الكائنات البشرية وأهمية الفرد. ولكن اليابان استمرت تهتم بالثروة المادية فحسب. ولم يكن عند الناس أي أفكار عن الحياة بأي طريقة أخرى. أو عن كيفية التواصل وتبادل المشاعر مع الآخرين، وتأكيد فرديتهم؛ فقررنا أن نقدم خدمات حقيقية، وليس مجرد فكرة».

بدأت أوهيوا تدريب رجال الساراري، بعد التأكد من أن عددا كبيرا منهم لم يكن لديه أقل فكرة عن كيفية التفاعل مع الآخرين. كانوا قد تربوا في نظام مدرسي دقيق وصارم، ثم اجتازوا مراسم الترقي في الشركات الكبرى، وغالبيتهم كان قد تزوج وبدأ في تكوين عائلته. ولكن تكوينهم كشخصيات إنسانية لم يكن مكتملا. بدأت أوهيوا تعليم طلابها الأشياء نفسها التي يقدمها معهد الإدارة الذي عند سفح جبل فوجي، مثل قواعد البروتوكول، التحكم في الصوت حسب المناسبة، إلى غير ذلك. ولكنها لم تلبث أن تبينت أن هذا النوع من التأهيل لم يكن كافيا، ومن ثم أعادت التفكير في الموضوع.

قالت: «إن المادة التي نقدمها لا يمكن فهمها من دون فهم الكائنات البشرية، ومن ثم، نحاول أن نقدم شرحا لآليات الجسد: جوهر الرغبات البشرية وعلى أي نحو تتجلى، وجوهر المشاعر البشرية وكيف تتغير. هذه أساسيات. ثم نعلم الناس كيف يعبرون عن أنفسهم. ولكن الحرية المطلقة في التعبير عن الذات يمكن أن تُختزل إلى مجرد أنانية، وبالتالي، علينا، قبل أن

وبدأوا يدركون ما سبق أن فاتهم ، أو ما كانوا محرومين منه دائما. وما يزالون لا يعرفون كيف يتعاملون معه بعد، فهم غير واثقين. ولكن «تأجير عائلة» كان واحدا من الأشياء التي أقبلوا عليها».

وإنه لأمر غريب حقا، بكل المقاييس، أن يستأجر أحد أناسا يؤنسون وحدته، ولكن ليس من الصعب أن نفهم الدافع خلف مثل هذه المغامرة - وقد نغير رأينا بعد أن نأخذ في الاعتبار رأي أوهيوا عن التكلفة التي دفعها اليابانيون من إنسانيتهم في سعيهم إلى التفوق الاقتصادي بعد الحرب. في ١٩٦٣، أصدر عزرا فوجل Ezra Vogel، وهو باحث في جامعة هارفارد، كتابا بعنوان: **الطبقة المتوسطة الجديدة في اليابان Japan's Middle Class**، وفيه عرض لثقافة رجال الساراري في فترة ما بعد الحرب، بعد دراسة استمرت عاما، عاشه الباحث في إحدى ضواحي طوكيو. وعلى الرغم من أن أسلوب الكتاب فيه استحسان واضح لهذه الثقافة، فهو يصف معاناة العائلات المدينية من بعض أعراض الاختلال، حيث يصف حالة الغربة بين الأزواج والزوجات. ولا يتوقف الكتاب عند مجرد وصف لتوزيع العمل بين الرجال والنساء. وإنما يصف أيضا نوعا من تقسيم الوعي بينهما:

عندما يعود الموظف إلى بيته، فإنه يشعر شعورا عميقا بالحرية؛ فالبيت هو مكان الراحة والاسترخاء... وفي جميع الأحوال، لا تعرف الزوجة - عموما - إلا قليلا عن النشاط اليومي لزوجها في العمل، وإن عرفت فاهتمامها أقل. وعادة ما تكون المهمات الموكولة إلى الزوج في الشركة محدودة، والمشكلات التي تهم الزوج في العمل لا تعني شيئا يذكر بالنسبة للزوجة. وحتى لو أبدت زوجة فضولية شابة اهتماما بعمل زوجها، فإنه يجد صعوبة في شرح عمله بطريقة تستطيع أن تفهمها زوجته... ولأن الزوجة منفصلة عن عالم زوجها وحياته اليومية على هذا النحو، بينما هو لا يكاد يعرف شيئا عن نشاطها في مجتمعها، فإن مساحة الاهتمامات المشتركة بينهما تكاد تكون مقصورة على الأطفال والأقارب.

والوقوف طويلا لتأمل أحوال الخلل العائلي والحالات القصوى للحرمان من الحب، إن هو إلا رسم لصورة أمة في حالة معاناة، وهي صورة يمكن أن يُسقطها البعض عن الحساب باعتبارها تزيُّدا، وليس هذا مقصدي. ولكننا يمكن أن نلاحظ هذا الحرمان الشامل من الحب، على قسوة هذه الملاحظة في مجتمع طال به أمد تحويل العلاقات الإنسانية، حتى أكثرها

of Genji. حينذاك، كانت النساء هن اللاتي يجربن استخدام الشكل الجديد للكتابة اليابانية (هيراجانا Hiragana) الذي كانت له آثار تحررية. هذا بينما كان الرجال ما يزالون عبيدا للتقاليد الصينية. كانوا يحفظون عن ظهر قلب النصوص المقدسة المأخوذة عن الصينيين، ويقلدونها في رسائل عقيمة وأشعار منظومة جوفاء، باستخدام لغة صينية قديمة عمرها خمسة قرون. ولم يكونوا ليستخدموا الكتابة ـ بالهيراجانا ـ إلا في الأمور العاجلة أو الحسية، وفي هذه الكتابات يتخفون بأسماء نسائية. كانت النساء مجدِّدات، بينما كان الرجال أسرى للأصولية.

ويحدث اليوم شيء مشابه، فالنساء اليابانيات يسافرن خارج البلاد أكثر من الرجال. وهن أكثر إقداما على خوض تجارب أكثر تنوعا في حياتهن المهنية. وهن الأكثر فضولا، وتبدو عليهن مظاهر التحرر السيكولوجي أكثر من الرجال ، فهن أوسع خيالا، وفي حياتهن أكثر حركية ومرونة ومغامرة، رأيت هذا بوضوح فور وصولي إلى طوكيو. وتفسير ذلك بسيط، فليس مطلوبا من النساء أن يشاركن بشكل مباشر في الحياة الاقتصادية، التي هي قلب العقيدة الأصولية الجديدة. ومتوسط مدة الخدمة المتصلة بين النساء في الوظائف لا تزيد إلا قليلا على سبع سنوات. والنساء في أيامنا، مثل نظيراتهن في بلاد هيان، لسن مقيدات بالأعراف الاجتماعية القديمة ـ بالصرامة نفسها ـ المفروضة على الرجال، وهن أكثر استجابة لاتجاهات رياح التغيير الاجتماعية والثقافية.

من المفيد أن نوسع دائرة المقارنة. فلم تكن النساء الأرستقراطيات في عصر هيان مستقلات حقيقة. وكانت الحرية التي يتمتعن بها هزيلة، بل إنها كانت، على نحو ما، زائفة. والحال في أيامنا هذه ما تزال كما كانت، باستثناء عدد محدود من النساء. فبعد قليل من التردد، لا تلبث الغالبية أن تختار، بدلا من الاستقلال، صيغة مريحة ورَضيَّة من الوضعية المتدنية، وهو ما أسماه جونيشيرو تانيزاكي، الأركان القصية الداخلية في الحياة اليابانية. وفسرت كاي إيتوي الأمر حين ذهبت إلى أنهن لا يفهمن امرأة تظهر من بينهن، لتكون مثل ميشيكو فوكوشيما، فهذا النموذج بالنسبة إليهن لغز غامض.

وأفاقت النساء اليابانيات، لترتفع شكاواهن، بأصوات تزداد حدة، من القصور العاطفي للرجال، ويخلعن عليهم عبارات تصفهم بالبلادة الوجدانية، وإثارة الملل، والتجرد من التعاطف الإنساني، ولهذا تؤجل الكثيرات موعد

6 «الأسمنت» والديموقراطية

في الاتجاه الجنوبي الغربي من طوكيو، يخرج طريق قديم ورد ذكره كثيرا في القصص والروايات يسمى طريق «توكايدو»، بُني في أثناء حكم شوجونات التوكوجاوا ليربط العاصمة القديمة إدو بمدينة أوزاكا (المركز التجاري)، وكيوتو (مقر الإمبراطور). كان طريق توكايدو هو العمود الفقري لليابان في عصرها الإقطاعي المتأخر، مثلما كان طريق «أبيان» بالنسبة للإمبراطورية الرومانية. وكان هو الطريق الذي تسير فيه مركبات حكام الأقاليم daimio، وهم في طريقهم إلى إدو ليقيموا بعض الوقت في العاصمة. وخُلّد ذكر هذا الطريق في رسوم هيروشيجي، وفي كتابات ساخرة من نوع (مقامات شوسر)، معروفة باسم «ساق المهرة». وتوجد صورة فوتوغرافية التقطت قبل الإحياء الميجي، ويظهر فيها كطريق ترابي عريض تصطف على جانبيه أشجار الصنوبر الباسقة. وفي وسط الصورة يقف اثنان من السامورای شعرهما معقوص ويمتشقان سيفيهما. كما يظهر

لا تستطيع اليابان أن تتقدم دون أن تأخذ أشياء عن الغرب. ولكنها تتظاهر بأنها دولة من الدرجة الأولى، بل إن اليابان تبذل ما فوق طاقتها، لكي تُعدُّ واحدة من دول الدرجة الأولى، وهذا هو السبب في أن اليابان، في جميع المجالات، تبني واجهة لتظهر كدولة من الدرجة الأولى، وتخدع الآخرين فيما يتعلق بما خلف الواجهة.

سوسكي ناتسومي
وماذا بعد، ١٩٠٩

المستحيلة: استحالة النفاذ إلى الماضي، وهو ماض يعبر كاواباتا باسم كثير من اليابانيين المحدثين عن الأسى من أجله.

لا جدال في أن اليابان ستظل تحتفي بمشاعر عاطفية نحو ريفها، مثلما يحتفي الأمريكيون بلقاءات ساحة البلدة في الغرب الأمريكي التي لن تعود، وكما يحتفي الإنجليز بالحياة ـ التي لن تعود ـ في أكواخ الصوان والقرميد. وعلى كل حال، فإن الانقسام الكبير الذي يفصل الريف عن المدينة في طريقه إلى الانتهاء. ولا يرجع هذا لمجرد أن المراكز الحضرية تتضخم وتمد زوائدها النامية في كل اتجاه، وإن كان هذا يحدث بالفعل، ولكنه يرجع أيضا إلى أن اليابانيين يتقبلون الحقائق التي أوردتها رواية كاواباتا: وهي أنه لا عودة إلى الوراء، وليس أمامهم إلا أن يتقدموا من حيث جاءوا. وهكذا، أصبحت واجهة اليابان ودواخلها تبدو كأجزاء من بلد واحد، كما أن اليابانيين قد كفوا عن النفاذ بأبصارهم عبر طريق توكايدو لاكتشاف هويتهم.

وفي رواية **صيد الخراف الجبلية A Wild Sheep Chase**، الصادرة في ١٩٨٢ لمؤلفها هاروكي موراكامي Haruki Murakami، وصف لرحلة قطار أخرى إلى خارج طوكيو، وهو وصف متميز جدا (دون أن تفقد رواية كاواباتا تفوقها)، وإن بسبب الغياب الكامل لأي مشاعر. في أثناء الرحلة لا يكاد الراوي يهتم أدنى اهتمام بالنظر إلى خارج النافذة، بينما يستغرق في محاولة فهم التاريخ المبهم للقرية التي يقصدها، كما هو وارد في كتاب يكتشف أنه مفكك وسطحي وغير مثير للاهتمام. ثم تأتي ملاحظة للراوي: «الحق أن جونيتاكي Junitaki اليوم هي قرية مملة جدا، وسكانها يقضون، بعد العودة من العمل، أربع ساعات في المتوسط أمام التلفزيون، قبل الإخلاد إلى النوم».

* * *

تقع بلدة كاكيَا Kakeya في وادٍ بين مجموعة من التلال النائية في مقاطعة شيماني Shimane، جنوب غربي هونشو، كبرى الجزر اليابانية. وإن كانت كاكيا ليست من الأماكن المشهود لها بنشاط غير عادي، إلا أنها واحدة من أكثر بلدان مقاطعة شيماني حيوية. وهي بلدة نوبورو تاكيشيتا Noboru Takeshita، رئيس وزراء اليابان في أواخر الثمانينيات، وفيها اشتغلت عائلته بتقطير مشروب الساكي (الخمر الياباني المفضل) منذ ١٨٦٦. وقد كان تاكيشيتا عطوفا على بلدته طوال سنواته كأحد كبار السياسيين في طوكيو،

القومي الحديث، بتدفقات نقدية من مستثمرين من بعيد. ولابد أن الإنتاج المحلي كان يقدم الأشياء نفسها، ولكن تلك الأشياء تباع في أماكن بعيدة، والأرباح التي حققها لا تعود إلى كاكيا.

أسرعت طوكيو، بعد ١٨٦٨، بتحويل الفلاحين إلى ملاك، بمثل ما أسرعت إلى فرض الضرائب عليهم، وهي ضرائب لم تعد تُفرض على الدخل السنوي - كما كانت الحال أيام الدايميو - وإنما فُرضت ضريبة عقارية على الأراضي حسب تصنيفها، بغض النظر عن محصولها. كان الإقطاع قد انتهى، ولكن الاقتصاد النقدي والإصلاح الزراعي في عصر الميجي لم يفضيا إلا إلى نوع جديد من البؤس الجمعي. باع كثير من الفلاحين أراضيهم قطعة بعدأخرى، وأرسلوا بناتهم للعمل في المصانع، وخلقت ديون الرهونات، وحبسها، عددا كبيرا من المستأجرين الفقراء من جانب، وملاك أغنياء ريويين من جانب آخر. ويمكن أن نتخيل كاكيا، حينذاك، وقد اكتظت بفلاحين منهكين ومعدمين ريفيين متبطلين: متبطلين لأن نزع الملكية كان يتم بمعدل أسرع من قدرة الاقتصاد على خلق فرص عمل جديدة. وسط كل مظاهر التحديث، ظل فلاح كاكيا، حيث كان دائما، وإحدى قدميه في الماضي، في قاع الكوم.

هذا هو الطريق الذي جعل طوكيو «تخدع الآخرين فيما يتعلق بما خلف الواجهة». لم تقدم الترتيبات الاقتصادية الجديدة للقرى إلا قليلا. وأوضاع الأراضي الريفية العقارية التي أقرها الميجي ثبت أنها كانت واحدة من أفدح أخطاء يابان ما قبل الحرب، وأكثرها مأساوية، إذ قامت بدوركبير في دفعها إلى الحرب. أبقى فقر الريف السوق المحلية ضعيفة، وجعل توسيع السوق عبر البحار ضرورة متعاظمة. في ١٩٣٠، كان ٧٠ في المائة من الفلاحين مزارعين بالمشاركة، ليست لديهم القدرة على شراء شيء ذي قيمة، ولكن أحلامهم متعلقة دائما بالأرض، ومن ثم، حدث في هذه الظروف الصعبة أن تعاطفت معا الفئات الثلاث: الفلاحون اليائسون، وقادة الصناعة ضيّقو الأفق، والعسكريون المتحمسون، وتضافر حماس الجميع لبناء إمبراطورية توسعية.

وتغيرت الأمور مرة أخرى بعد الهزيمة في ١٩٤٥. وكان الإصلاح الزراعي من بين أهم السياسات الفعالة التي جاء بها الاحتلال الأمريكي، وحين جاء النهج العكسي نال من أشياء كثيرة إلا الإصلاح الزراعي الذي ظل محصنا. أُلغيت الملكية الغائبة للأراضي، ومُلّك مستأجروها، وتزايد النزيف البشري

كانت قاعة البلدية مبنى حديثا، ولم أكن على موعد سابق مع العمدة، ولكنه استقبلني في غرفة مكتبه الفسيحة البسيطة بمجرد أن أعلنت أنني أريد أن أتبادل معه حديثا عن تاكيشيتا. كان العمدة، يوشيو أوتشياي Yoshio Ochiai، في السابعة والستين من عمره، أي في عمر تاكيشيتا نفسه تقريبا. يعلو عينيه حاجبان كثيفان، وخطوط وجهه واضحة وعميقة. قال لي العمدة بتواضع طفولي: «ربما أتجاوز حدود الأدب إذا قلت إنني كنت صديقا للسيد تاكيشيتا، ولكن عندما كنت في العشرين من عمري، كنا معا في أحد نوادي الشباب». هذه الحقيقة في ذاتها، من وجهة نظر العمدة، تضفي عليه صلاحيات خاصة. وقال لي العمدة أن وزارة البناء مع إدارات مركزية أخرى كانت تمنح كاكيا ٢٠٠ مليون ين على الأقل كل عام، وهذا مبلغ يقارب نصف ميزانية البلدة. وهذه حقيقة في ذاتها لها دلالتها الواضحة أيضا، وبعد أن أفضى العمدة إليَّ بها، انفرج وجهه عن ابتسامة.

كانت ابتسامة العمدة أوتشياي من نوع تلك الابتسامات الماكرة التي يقدمها الريف للجانب الآخر من اليابان. والناس في كاكيا تقبل المنح والحسنات التي تقدمها لهم طوكيو، لأنهم في حاجة إليها، ولكن يبدو أن ليس من بينهم من يشعر بالامتنان، لسبب بسيط، هو أنهم كانوا يفضلون القدرة على الاستغناء عنها. ولا يوجد واحد من بينهم، ربما ولا العمدة نفسه، مخلص في محبة الرجل الذي أرسل كل هذا الأسمنت إلى كاكيا. وما كان أحد منهم ليعترف بعدم محبته، وأظن أنهم لا يرفضونه، على الأقل في العلن. وعلى كل حال، لم يكونوا يعبرون عن مديحهم إلا بفتور. وكان الناس يفضلون أن يتحدثوا عن الساكي الذي تصنعه العائلة، وهو الخمر التي لم يعبر أحد عن إعجاب خاص بها، وكأن الساكي يرمز إلى الرجل. وعندما زرت معمل التقطير (وهو مكان فيه دنان قديمة وأذرع خشبية ضخمة لتحريك السوائل خلف جدران من الجص والطفلة)، لم يكن ثمة من يريد الحديث عن تاكيشيتا، فسألتهم عن الساكي، وبعد لحظة تردد طويلة، تكلم شاب يرتدي مريلة ويضع على رأسه طاقية، قال: «لا أستطيع أن أقول لك إنها ليست جيدة، لأنه ليس من المفروض أن أقول ذلك، ولكن...» واستأنف بعد لحظة سكوت أخرى: «نحن معمل تقطير صغير».

ومائتا مليون ين، أي حوالى ٢ مليون دولار، مبلغ لا يُستهان به كدعم لميزانية بلدة تعداد سكانها ٤٣٠٠ نسمة. هكذا نرى أن المدرسة حديثة البناء

في جزيرة كيوشو توجد قرية جبلية تسمى أوجوني Oguni، محاطة بغابات أرز كثيفة. ولابد أن تكون أوجوني قد مرت بتجارب الزمن الماضي، حين كان الريف يعجُّ بالعاطلين، وبفلاحين فقدوا أراضيهم، ولسنوات طويلة، كانت البلدة يبهجها أن ترى أبناءها يذهبون للعمل في المدن. وبعد الحرب، أطلقوا على الشباب الذين يذهبون للعمل في المدن اسم «الدجاج الذي يبيض بيضا ذهبيا»، لأنهم كانوا يرسلون جزءا من أجورهم إلى ذويهم كل شهر. واستمرت الحال هكذا إلى العام ١٩٦٠ أو نحوها، وكان عدد سكان أوجوني حينذاك حوالى ١٦ ألفا. ثم انحسر المد. وعندما قمت بزيارة إلى هذه القرية، بعد ذلك التاريخ بثلاثة عقود، كان عدد سكانها قد انخفض إلى عشرة آلاف، كما لم يعد من بينهم من يتكلم عن الدجاج الذي يبيض بيضا ذهبيا. وأصبحت أذون الصرف البنكية التي يتسلمونها من الشباب أشبه بالحوالات البريدية التي يرسلها الباكستانيون أو الفلبينيون المغتربون العاملون في الشرق الأوسط إلى ذويهم. وفي ١٩٩٠، كان عدد الحاصلين على شهادة الثانوية العامة في القرية مائة وخمسين، جاءت ١٣٠٠ شركة تطلبهم للعمل. وترك نصف هؤلاء الطلبة القرية بمجرد أن انتهى العام الدراسي، وتسرب من بقي منهم إلى خارجها - أيضا - في أثناء الشهور القليلة التالية. وتحلم أوجوني اليوم بالإبقاء على شبابها في أرضها، أو في إعادة من تركها إليها، وهي عملية يسمونها «خلفا دُرّ». وتوجد حالات «خلفا دُرّ» قليلة في هذه المنطقة أو تلك من الريف الياباني، ولكن أوجوني تكاد لم تشهد حالة منها. وعندما زرتها، كان متوسط أعمار سكانها خمسين عاما. وكانت محطة السكة الحديد فيها قد أُغلقت قبل ست سنوات، بينما كان المسؤولون في البلدة يبذلون جهودا مضنية للإبقاء على خط الأوتوبيس الذي حل محل القطار.

وفي محاولة للبقاء على قيد الحياة، تخترع القرى كثيرا من الخطط والمشروعات الوهمية، التي غالبا ما تعكس رغبات كافية لاستعادة شيء من الاستقلالية والهوية الغابرة. في أوجوني Oguni، على سبيل المثال، أطلعني الناس على نمط معماري محلي من ابتكارهم، حيث السقوف قباب مصنوعة من عروق خشبية معشقة، تجدد الأمل في إحياء الطلب على أخشاب الأرز. وثمة معمل ألبان جديد ينتج نوعين من الجبن: «شيدر» و «جودا» وقد ألصق على العبوات بطاقات فاخرة بالفرنسية والإنجليزية. وفي أماكن متفرقة من الريف

كانت للسيد كوباياشي قصة مألوفة أيضا، اثنان من أولاده يعملان في الحضر، أحدهما في مدينة بعيدة، والآخر على مسافة ساعتين من القرية. ولم يبق في القرية لمساعدته إلا ابنه الكبير الذي يقوم بالتدريس في مدرسة قريبة، وفي الربيع والخريف، يعتمد كوباياشي على مساعدة أهل القرية في مواسم الزراعة والحصاد، وهي عادة ريفية قديمة. كان يمتلك هكتارا واحدا، أي حوالى فدانين ونصف، ولم يكن ذلك كافيا للوفاء بضرورات معيشته. قال لي إنه بحاجة إلى زراعة أرض تتراوح مساحتها بين ١٠ و٢٠ هكتارا لتسيير أموره. فما الذي يجعله يستمر؟ لم يُخف كوباياشي دهشته عندما سمع السؤال، أجاب: «أنا ولدت هنا، وهذا هو المكان الذي أعرفه وآلفه وأحبه، ألست أنت كذلك؟» أجبت ليس بالضرورة، فجاء رده: «على كل حال، هذه قريتي، وهنا داري وأرضي، أخذتها عن آبائي وعليّ أن أحميها».

في اليابان اليوم يكاد لا يوجد أحد يستطيع أن يفي بضرورات حياته اعتمادا على العمل في الفلاحة وحدها: ربما أقل من واحد في المائة من العائلات. غالبية الفلاحين يعتمدون جزئيا على دخل من مصادر أخرى: الشغل في المصانع، العمل المؤقت، والحوالات البريدية. هكذا يُعدّ السيد كوباياشي إنسانا نادرا، إنه المواطن المثالي للريف الياباني العتيد: رجل يعيش حياة غير عملية بروح عالية، محترم لمشاعر الإنسانية الأصيلة، والعادات والتقاليد الموروثة. ولو لم يكن كوباياشي موجودا ـ هكذا ذهبت بي أفكاري ـ لاخترعه القادة السياسيون في العاصمة طوكيو، ونَفَرٌ أو اثنان من كبار الباحثين، وأبناء جيله من الضائعين المقيمين في المدينة، ولكنهم كانوا قد اخترعوه بالفعل، فهم يقدمون الدعم لأسعار الأرز الذي يزرعه، والجرار والمبيدات التي يستخدمها، ولقريته كلها.

لم أجد في قرية إينوكوشي سوى مصنع واحد، في نهاية طريق ترابي، بالقرب من معبد معتنى به لطائفة الشينتو. كان مصنعا صغيرا يستخدم النفايات المعدنية لصناعة لافتات وعلامات الطرق. ولفترة طويلة خلت، كان وجود مصنع صغير أو اثنين من المعالم المألوفة لاقتصاديات القرية. ولكن، في هذا الصدد، تتغير دواخل اليابان، بمثل ما تغيرت المستعمرات على مدى السنوات الطوال. على طول الطرق الرئيسية يمكن أن نرى أحواض الأرز على حافتها مصنع كبير وإلى جواره ساحة لوقوف السيارات، ثم مزيدا من الحقول

اليابان، لعمل لقاء مع عمدتها الجديد، تتسوندو إيواكوني Tetsundo Iwakuni. كان العمدة رجلا غير عادي، شب عن الطوق في بلدة منشئه، ثم أبلى بلاءحسنا في العالم الواسع خارجها، وأخيرا عاد إليها مرة أخرى، إنه حالة خاصة، شديد الاعتزاز بإنجازاته، من بين أولئك الذين اغتربوا ثم عادوا. كان قد حصل على درجة علمية من جامعة طوكيو، ثم اشتغل في البنوك التجارية. وبعد ثلاثين عاما في طوكيو ونيويورك ولندن وباريس، عاد إيواكوني إلى بلدته إيزومو، وفي نيته ألا يقضي فيها سوى عطلة قصيرة. ولكنه سرعان ما ترك مشاغله ليستقر فيها، ورشح نفسه لمنصب العمدة، ونجح في الانتخابات. والحق أن إيواكوني كان من بين المسؤولين اليابانيين القلائل الذين قابلتهم ممن تفهموا الريف الياباني على حقيقته، وربما يرجع ذلك إلى أنه رأى كثيرا من العالم الخارجي فأصبح أكثر قدرة على التأمل والمقارنة.

قال لي إيواكوني ونحن في القاعة المتواضعة لبلدية إيزومو: «لقد اكتشفت، بعد ثلاثين عاما في الخارج، أن بلدتي لا تعد جزءا من دولة متقدمة، إنما هي تكرار للنفط الذي تصادفه في العالم المتخلف».

* * *

ولا يوجد أناس كثيرون، على جانبي طريق توكايدو، ممن يحبون أن يعترفوا بأن العمدة إيواكوني على حق في ملاحظته. ولكن الحقيقة واضحة، في تجلياتها الكبيرة والصغيرة، وهي الصدق في أذهان الناس (حيث يبدأ وينتهي مفهوم الاستعمار)، بمثل ما هي واضحة وصادقة في القرى وعلى امتداد الطرق. وبالنسبة للمسافر، يمكن تشبيه اليابان على الجانب الآخر من طريق توكايدو بأفريقيا أو أمريكا اللاتينية، حيث يلاحظ أن آثار أقدام المركز الإمبراطوري تخف بالتدريج كلما ابتعدنا. وقد ساد الاعتقاد طويلا بأن الاختيار الأمثل للسفر من نيروبي في شرق أفريقيا إلى لاجوس في غربها، أو من ريو في شرق أمريكا اللاتينية إلى جواياكيل في غربها، هو عن طريق لندن في الحالة الأولى أو ميامي في الحالة الثانية، لأن طرق الاتصال عبر القارتين إما محفوفة بالمخاطر وإما أنها غير موجودة أصلا. ولا تزال الصلة بين الأقاليم المختلفة للدواخل اليابانية (إيناكا Inaka) على الحال نفسها، كذلك هي حال الناس العاديين حين يحاولون فهم أنفسهم، والمقاطعات في الدواخل اليابانية وحدود غالبيتها مرسومة وفقا لما كانت عليه حدود أملاك

طوكيو على تأكيد هذا التوجه. فقد كان قادة الإحياء الميجي حريصين على القضاء على هوية الإقطاعيات (هان) لمصلحة الوعي القومي الجديد، كانوا، بلغة أيامنا هذه، بناة أمة. ولكن، وكما نعرف جيدا في زماننا هذا، تفضي محاولات القضاء على الهوية المحلية إلى دفع الناس إلى مزيد من التمسك بتمايزاتهم، وغالبا ما تفضي، لا إلى خلق أمة واحدة، وإنما خلق أكثر من أمة.

في الأيام الأولى للتحديث، استُقبلت مواقف الريفيين بمزيد من الهُزء والسخرية. في الريف، ابتكر الناس حكايات عن الأصوات التي تصدر عن القطارات في أثناء الليل، وتخيلوا أن السرير الحديدي إن هو إلا جهاز لشيّ الآدميين، وأن أعمدة التلغراف على صلة بأعمال السحر المسيحي. ومن السهل الخلط بين هذه التخيلات ومشاعر العداء للأجنبي. ولكن مشاعر العداء للأجانب أيضا من السهل أن يُساء فهمها. ليس بالضرورة أن يكون الريفيون قد رغبوا في قص ضفائرهم والجلوس على الكراسي ووضع القبعات على رؤوسهم لمجرد أن المركز ـ العاصمة، المستعمر ـ اتخذ قرارا بأن تلك هي الطريقة التي تدخل بها اليابان العصر الحديث. ولكن الواقع أن التحديث جاء بأشياء غير مرغوبة في الريف، حيث كان يعني التخلي عن التقاليد الصغيرة المألوفة من أجل أشياء عظيمة، والتحول إلى نمط الساموراي العصري. كذلك كان التحديث يعني (nu-o) الالتحاق بالغرب؛ والالتحاق بالغرب يعني بدوره التخلي عن آسيا Datsu-a. وأن يقاوم الياباني التخلي عن آسيا لإرضاء ميوله الشخصية، ولمواصلة تطوره الطبيعي يعد أمرا يخضع لمنطق الرجل العادي أكثر من أن يكون جزءا من الشعور بالعداء للأجانب.

ولليابان تقاليد طويلة ومعروفة في كراهية الأجانب. ولكن القومية في اليابان وما صاحبها من شوفينية كانت اختراعا مدينيا وليس قرويا، إنها عنوان التقاليد العظيمة، لا التقاليد البسيطة، ذلك أن المدينة هي التي جرت فيها عملية التشويش الذهني لليابان فيما يتعلق بمعنى أن يكون المرء يابانيا. وغالبا ما يُقال للأجنبي إنك لم تُقابَل في الريف إلا بكثير من الصمت والفظاظة، (وماذا تكون كراهية الأجانب في صورتها الخالصة أكثر من هذا؟!) ولكن، بمضي الوقت ستصبح القرية غير مخيبة للرجاء. وهذا كلام يسري على الريف أينما كان، ولكن من المؤكد أنه لم يعد يسري على الريف الياباني بدرجة أكبر من الأماكن الأخرى، بل ربما أقل. والعداء للأجانب لا يزال أكثر

انعكاسا لإحساس بالدونية والقلق والخوف، ثم جاءت الهموم التي تملكت طوكيو في القرن العشرين: الإمبراطورية واقتصاد الحرب، ثم إعادة البناء والتنمية السريعة بعد الهزيمة. هذه كلها أمور عززت تعجيل الاندفاع نحو قلب العصر الحديث من البداية.

هكذا «خدعت» طوكيو الآخرين: بدا كأنها شرعت عامدة تخلق من البداية يابان للواجهة، ويابان ثانية خفية في الخلفية. ولكن الحقيقة هي أن توزيعا جغرافيا متناسقا للأصول الإنتاجية لم يكن من بين الأهداف التي أعطيت اعتبارا كافيا من البداية، وهو هدف من الطبيعي أن يتوقعه الآخرون في مشروع للتحديث، أنجزته اليابان بكل هذا الوعي والتصميم. ومع الوقت، لم تتغير الوضعية، إلا إلى الأسوأ، لم يهبط الاقتصاد فورا إلى حالة من اختلال التوازن، انتشرت الصناعات الأولى في أرجاء الجزر اليابانية منجذبة انجذاب المغناطيس لأقطاب غنية بقوة العمل والخامات اللازمة. ولكن، في سنوات الميجي الأخيرة، وبخاصة في العشرينيات من القرن العشرين، عندما جاءت الصناعات الثقيلة على نطاق واسع، تأكدت ملامح الواجهة، وتركت الدواخل في الخلفية. تغيرت الأقطاب الجاذبة، وشرعت القوة العاملة تبحث عن فرص العمل في مصانع الواجهة وتجلى التركيز الاقتصادي في المواقع القريبة من الموانى والأسواق. وفي الثلاثينيات، من القرن نفسه، بنت اليابان أربع مناطق صناعية كبيرة. وعلى الرغم من التغييرات التي شهدها الاقتصاد الياباني، فإن هذه المناطق لا تزال هي القلب. والوحيدة من بين هذه الأربع التي لا تقع على شاطئ الباسيفيك (الموجودة شمالي جزيرة كيوشو)، يمكن اعتبارها محطة أخرى على طريق التوكايدو، لو افترضنا مد الطريق العتيد عبر الجزيرة.

وبعد الحرب، عندما وصلت الهجرة الداخلية لشواطئ الباسيفيك إلى معدلات رهيبة، تفاقمت الحال في الريف الياباني إلى درجة أثارت اهتمام الأمم المتحدة. وفي أواسط الستينيات قام فريق من خبراء الأمم المتحدة بجولة في البلاد، شبيهة بالجولات التي يقومون بها في الدول الجديدة في أفريقيا وجنوب شرق آسيا، نصحوا على أثرها طوكيو أن تبني شبكة من الطرق والسكك الحديدية والكباري، تدمج أرجاء الجزر اليابانية في الوطن الواحد. ومما ورد في تقرير هؤلاء الخبراء أنه «بعد إنجاز بناء هذه الطرق والمواصلات، ستتغير صورة اليابان». ومنذئذ أصبحت فكرة «يابان جديدة» أو «سياسة جديدة تجاه

إن التحول الجمعي السريع لحياة المدن أوجد عددا كبيرا من الناس الذين لم يستمتعوا قط بمناهج الحياة الريفية، مثل صيد الأرانب في الجبال، أو صيد الشبوط الأصفر في الترع والجداول، هؤلاء الذين لا بيت لهم إلا شقة ضيقة في مدينة كبيرة هائلة. فكيف، والحال هكذا، يمكن أن ننقل إلى الأجيال القادمة خصائص وتقاليد الأمة اليابانية؟

كان تاناكا طموحا. كان يشتغل بالمقاولات قبل الحرب، وعندما أصبح رئيسا تقدم باقتراح طموح «لإعادة تشكيل الأرخبيل الياباني»، كما لو كان الأمر يتعلق ببيت عادي في ضاحية مدينية مكتظة. ووعد بنشر اللامركزية في جميع أرجاء اليابان لإعادة بناء سكن الشعب الياباني، الذي كان قد ضاع ودُمر. ولكن على الرغم من كل ما عبر عنه الكتاب من حنين، لم يخجل المؤلف من طرح اقتراحات تتعلق بالسياسات العامة، حيث ذهب إلى ضرورة مراجعة قواعد الانتفاع بالأرض، وإعادة توطين الصناعات، وبناء روابط وصلات لم يسبق أن وُجدت: طرق وسكك حديدية وأنفاق وشبكات اتصالات طال الحديث عنها سنوات وسنوات. تذّرع صانع الزعامات العتيد باختلال توازن الخريطة الاقتصادية للإفصاح عن رغبته في جذب أكبر مساحة من المناطق الفقيرة لليابان إلى دائرة اليابان السريعة النمو التي كان يحدُّها طريق توكايدو.

وعلى الرغم من أن معاوني صانع الزعامات ومرؤوسيه هم الذين صاغوا عبارات الكتاب وكتبوها من أجله، فإن «بناء يابان جديدة» تتجلى فيه رؤية واضحة لا تصدر إلا عن قائد عظيم، (أو هذا ماكانت تعد به شخصية تاناكا). ومما يجعل للكتاب جاذبية خاصة ـ حتى بعد مضي أكثر من ربع قرن على تأليفه ـ أننا على ألفة بروح السخرية والتبسط التي أضفاها تاناكا ومريدوه ـ في السياسة والصناعة ـ على المهمات العملية المطروحة بصراحة في كتاب يخاطب الناس العاديين. وما تزال هذه الروح تتجلى في كل مكان في اليابان، لأن اليابانيين اعتبروا تاناكا مهندس «دولة الإنشاءات»، إن لم يكن هو مبدعها.

ودولة الإنشاءات هي قلب نظام ما بعد الحرب في اليابان. وهذه الحقيقة تساعد على فهم سعي طوكيو المحموم لتحقيق تنمية اقتصادية سريعة بأي ثمن. وهذا ما نقصده حين نصف الديموقراطية اليابانية بأنها نوع من «سياسة الفلوس»، كما أن هذا هو السبب في أننا، أحيانا، نصور اليابان كسفينة بلا دفة، أو كآلة خرجت عن السيطرة. صحيح أن ثمة أشخاصا في مراكز التحكم والتوجيه: السياسيون، والمسؤولون البيروقراطيون، ورجال

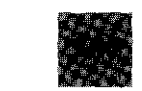

لم يخترع تاناكا دولة الإنشاءات، وإنما كل ما فعله هو أنه وضعها تحت السيطرة، حيث حمل «نظام ١٩٥٥» (الذي جعل حكم الحزب الواحد أساسا للسياسة اليابانية)، حمله إلى نهايته المنطقية. وفي أثناء العام الأول لتوليه منصب رئيس الوزراء، ارتفعت ميزانية الأشغال العامة بنسبة الثُّلث. وما إن استقرت الأمور لسلطاته، إلا وكان اليابانيون قد اخترعوا مصطلحا جديدا لتوصيف أسلوبه في العمل، ألا وهو كوزو أوشوكو Kozo osfioku، ويعني الفساد البنيوي، أي الفساد الذي ضرب بجذوره في الأرض وامتدت أذرعه في كل مكان إلى الحد الذي لم يعد عائقا أمام النظام أو حتى مخلا بسمعته، وإنما أصبح النظام هو الفساد البنيوي والفساد البنيوي هو النظام. وهذا هو ما أصبح مسموحا به لليابانيين كبديل عن نظام ديموقراطي حقيقي وفعال.

نحن نتذكر تاناكا اليوم باعتباره صانع الزعماء الذي تصدَّر قائمة فضائح كبار المسؤولين مع شركة لوكهيد في منتصف السبعينيات. ولكن الأمر مختلف بالنسبة لأبناء الريف اليابانيين من جيله الذين لا تعتبر رشاوى شركة لوكهيد بالنسبة لهم إلا أمرا ثانويا للغاية. فالسيد تاناكا بالنسبة لهم شخصية مبجلة، فهو الذي منح نيجاتا Niigata، وهي مقاطعة عائلته، طريقا بريا لطوكيو، وخطا حديديا فائق السرعة يخترق أحواض الأرز المحيطة، كأنه يذكرنا بقنوات الإمبراطورية الرومانية المعلقة فوق الريف الإيطالي. وتعد مدينة نيجاتا ـ الواقعة على بحر اليابان شاهدا حيا على المشروعات القومية الكبرى التي بدأها تاناكا، فهي مدينة غنية، تضج بالنشاط، وتنبض بالطموح والصناعة. وهي محسودة من كل الأقاليم الأخرى. ولكن في المواقع الأخرى تتكشف تلك المشروعات على حقيقتها كبئر فساد حكومي لا قرار لها، فحتى اليوم، يوجد في جميع أنحاء اليابان عدد لا يحصى من الطرق التي لا توصل إلى أي مكان ذي شأن، والكباري التي لا تستخدم، وحواجز الأمواج التي لا لزوم لها، ومشروعات استصلاح أراضي غير مدروسة، ومنتجعات غير مكتملة البناء، ومراكز تكنولوجيا مهجورة يُقال إنها كانت تهدف إلى تقريب الريفيين والبسطاء من التكنولوجيا العالمية (هاي ـ تك). وكل هذه مشروعات لم يكن لها نتائج تُذكر في تعزيز اللامركزية في اليابان، وإنما عززت جميع مواقع وثروات ونفوذ المقاولين.

وقد كان لرئيس الوزراء تاناكا كثير من الورثة السياسيين، من أشهرهم ياسوهيرو ناكاسوني، رئيس الوزراء معظم الثمانينيات، ونوبورو تاكيشيتا،

الجزء الثاني

مع الآخرين

7 الروح المسافرة عبر التاريخ

لليابانيين تقويمان لقياس الزمن. فثمة أولا، نظام الجنجو the gengo system، القائم على فترات حكم الأباطرة، التي يُختار لكل منها اسم عند بدايتها. فالعام الأخير من حكم الإمبراطور هيروهيتو كان هو العام الثالث والستين من عصر شوا Showa، ومن بعد شوا، بدأت السنة الأولى من عصر هيساي Heisei، التي هي بداية فترة الإمبراطور أكيهيتو، ابن هيروهيتو. وتواريخ الصحف، وإيصالات مواقف السيارات، وفواتير المطاعم، كلها مكتوبة وفقا لنظام الجنجو. أما التقويم الآخر، وهو التقويم الجريجوري(*)، فإنه يستخدم في الأمور التي يرجح أن يراها أجانب مثل التقارير السنوية، والبيانات الصحافية، ونماذج معينة من الأعمال الحكومية. ويبدو كما لو كانت النظرة الرسمية تعتبر المسار الخطي للزمن مسارا غير أصيل، أو تعتبره مسارا شكليا، افتراضيا، بينما الزمن في اليابان يجب ألا يكون خطيا، وإنما يجب أن يسير في مسارات دورية،

(*) المسمى عندنا بالتقويم الميلادي (المترجم).

لا يقتصر دور الماضي على أنه قوة تشدنا إلى الوراء، إلى زمن مضى. ففي الماضي ذكريات بعينها، كأن لها زنبركات قوية عندما تمسها أيدينا، نحن الذين نعيش في الحاضر، تتوتر فجأة، ولا تلبث أن تدفعنا للأمام إلى المستقبل.

يوكيو ميشيما

معبد الرواق الذهبي، ١٩٥٦

من المعتاد التنويه بأن اليابانيين يتحركون بألفة ملحوظة بين الأشياء التي جاء بها العصر حيث يبدو أن لا شيء يثير دهشتهم. لا شيء مكتوب له الدوام، وذلك المفهوم يعزوه اليابانيون إلى التقاليد القديمة، أو الفكرة البوذية القائلة إن كل شيء عابر. وليس أسهل من دعم وجهة النظر هذه، فأينما وليت نظرك إلى مدينة يابانية، فإنك ستشهد أشياء تهدم، وأشياء أخرى تقام في مكانها. وفي الحي المجاور لسكني، رأيت صفا من المنازل الخشبية يُهدم لتحل محله ساحة انتظار للسيارات، ولم يلبث أن أقيم على هذه الساحة سلسلة من المحلات التجارية التي تبيع للمستهلكين، ومنفذ لبيع الوجبات السريعة. متوسط عمر المبنى السكني في طوكيو هو ثمانية عشر عاما. وفي بلدة أيزى Ise، جنوبي العاصمة، ظل يُعاد هدم وبناء المعبد الكبير لديانة الشنتو كل عشرين عاما ـ منذ العام ٦٩٠ ميلادية. وليس المهم هو المبنى في ذاته، ولكن طريقة البناء المرعبة: فالأسلوب الذي أعيد به البناء لم يتغير عبر الأجيال.

دعاني كيشو كوروكاوا Kicho Kurokawa، وهو مهندس معماري له فلسفته وتكوينه الثقافي القوي المهجن، دعاني ذات يوم أثناء وجودي في مكتبه لزيارة بيت الشاي الياباني التقليدي الذي يملكه. وما كانت لتفوتني مثل هذه الدعوة لمكان قد لا يعدله مكان آخر في تجسيد ثقافة الساموراي بكل طقوسها ومراسمها الثابتة. قبلت الدعوة بكل سرور، متصورا أنني سأشهد نوعا من منتجعات المحاربين النائية في الريف، وسألته: «أين بيت شايك؟» فأجاب: «في أكاساكا»، التي هي واحدة من أكثر أحياء طوكيو ازدحاما، واستطرد: «في الطابق الحادي عشر من عمارتي السكنية»، ثم ابتسم، شعورا بالرضا عن نفسه لأنه علمني شيئا جديدا عن اليابانيين.

بعد سقوط سور برلين، أصبحت المقارنة بين اليابان وإيطاليا من الأفكار الشائعة. فكلا البلدين كان مجمدا في أثناء الحرب الباردة، ورأى كلاهما أن مؤسساتهما السياسية أصيبت بالفساد نتيجة لذلك. ولم تكن تلك المقارنة بلا جدوى: إذ رأى البلدان أن عليهما أن ينفضا عن كيانهما هذه الحال وينهضا من جديد. غير أن الاختلافات بدت وكأنها تفوق التشابهات. فالماضي بالنسبة للإيطاليين يعتبر من الثوابت التي لا يتطرق إليها الشك، فهو مجسّد في المكتبات والأبنية الحجرية وأبهاء الكنائس والنافورات الرخامية، الماضي موجود في كل

وفي المدن الحديثة، فإن النزوع للإحساس بعدم الدوام ليس على صلة بالبوذية أو بروح القومية، بقدر ما ترجع أسبابه إلى رخص أسعار البناء وسياسات دولة البناء . ومن ثم يجب ألا نحمل «الروح» معاني أكثر مما تحتمل، فهي ليست إلا إبداعا من صنع اليابانيين، إنها خصوصية يابانية - مثلها في ذلك - مثل خصوصية حساب التاريخ عندهم.

وكان ميشيما على فهم تام بحقيقة سجن الماضي الذي وضع اليابانيون أنفسهم فيه، كما كان على وعي بفكرة الروح الكامنة فيه. وقد كرس ميشيما السنوات الأخيرة من حياته (ثم انتحاره على طريقة سيبوكو)، للروح اليابانية، التي منها تشكلت هويته. وعلى كل حال، فإن ميشيما كان قد فهم، في فترة مبكرة من حياته، أن الشيء الذي لم يتغير أبدا، على مر القرون، كان هو القوة التي وضعته في ذلك السجن. وإن تلك القوة الآسرة هي التي شرع اليابانيون في القضاء عليها، هذا العبء هو الذي بدأوا يزيحونه عن كاهلهم.

يمكن أن نعرف الكثير عن الروح اليابانية من الطريقة التي بدأت بها الفكرة. والاسم القديم للروح اليابانية هو ياماتوا داماشي Yamato damashii، وكلمة ياماتو هي الاسم القديم لليابان، أو أحد أسمائها. وهي كلمة تطلق على الجبال اليابانية التي عندها يُقسم الفضاء بين الأرض والسماء. ولكن كلمة ياماتو تعني في الحقيقة الدولة اليابانية التي أسسها جيمو Jimmu، الإمبراطور الأسطوري الأول الذي ينحدر من أصل إلهي. وهكذا تعني كلمة ياماتو اليابان ذات الحضارة الإمبراطورية، وذلك سبب يجعل القوميين ما يزالون يتعلقون بها. غير أن فكرة الروح اليابانية لم تولد بمولد دولة ياماتو، وإنما ظهرت بعد عدة قرون، بعد أن كانت اليابان قد أخذت عن الخارج كثيرا من مقومات ثقافتها: أخذتها من الصين أولا عبر كوريا، ثم من الصين مباشرة فيما بعد.

وفي واحدة من الأساطرة القديمة، اقتطعت الآلهة جزءا من شبه الجزيرة الكورية وألحقوه بالجزر اليابانية . ويرجح أن في ذلك إشارة لإحدى موجات الهجرة الكبيرة القادمة من الأرض القارية. وليس ثمة ما يفصل اليابان عن أراضي القارة الآسيوية إذا كان الأمر يتعلق بما أخذته من كوريا والصين. كان لليابان ثقافتها، وهي ثقافة مزارعين بسطاء لهم جذورهم في الجماعة الريفية. واكتشف الرحالة الصينيون الأوائل أنه لم يكن في اليابان

الثانية التي جاءت بعد أكثر من ألف عام. إنها على نحو ما، تشكل جزءا من القوة الكامنة المحركة للتاريخ الياباني. ذلك أن اليابانيين، منذ عهد شوتوكو، لم يكفوا أبدا عن محاولة الإجابة عن السؤال: من نكون، وما هويتنا بالضبط؟

ويفضي هذا إلى الوصول إلى إدراك أثمن ما قدمه شوتوكو لليابانيين، وأكثره بقاء على الزمن، وربما هو الأكثر إثارة للأسى. ولم يكن مستعارا على الإطلاق، وإنما هو ـ تحديدا ـ الروح اليابانية النابعة من رحم اليابان، فالأمة اليابانية التي أغرقت في الفيض الصيني، ولم تعرف لها مكانا على ظهر الكوكب إلا مستندة إلى أرض القارة، هذه الأمة ما كانت لتملك إلا إمعان التفكير في التساؤل عن مركز ثقلها، وهكذا تركزت أفكارهم على دواخلهم، في محاولاتهم لاكتشاف الكينونة اليابانية، فيما يتصفون به من مثابرة، وشجاعة، وتفانٍ، وفيما تتميز به الروح من نبل. وما كان أحد يحظى بكل هذه الشمائل كما كانَ يحظى بها أهل ياماتو القدامى، قبل أن تتحول ياماتو إلى «نيبون». إن الروح هي التي جعلت اليابانيين متفردين. وبعد بضعة قرون ـ من إصلاحات شوتوكو ـ صاغ اليابانيون فكرة جديدة، عاشت، مع بعض التعديلات، لتصل إلى العصر الحديث، وهي: كاراجي، ياماتو داماشي Kara-jie, Yamato damashii، وتعني: كان ثمة «أشياء صينية»، ولكن كانت «الروح يابانية»، الروح التي لا تتبدل، لكل زمان ومكان. **ومنذئذ، واليابانيون مهتمون بأخذ ما هو مادي من الثقافات الأخرى، بينما هم يرفضون، بإصرار، مبادئ الغير.**

وأول من استعرض عظمة تلك الروح المحلية، هو ياماتو تاكيرو Yamato Takeru، وهو شخصية أسطورية يقال إنه سليل أحد أباطرة القرن الأول. وقد ظهر اسم هذه الشخصية لأول مرة في الكتابات القديمة، عندما طلب منه أبوه أن ينبه ويوبخ أخاه التوأم، لأنه يتغيب عن المائدة العائلية مما يوحي بعدم الولاء للعرش. وينطلق ياماتو تاكيرو لتنفيذ التوجيه الملكي، ثم يعود دون أن تظهر علامة على ظهور الأخ الشقيق التوأم على المائدة، فيسأل الإمبراطور: «كيف أبلغت شقيقك الأوامر؟» فتأتي إجابة ياماتو تاكيرو مباشرة وقاطعة. انتظر ياماتو خارج المنزل إلى أن رأى شقيقه ذات صباح، ويعلن: «قبضت عليه، قطعته إربا، ومزقت أوصاله، ولففت الأشلاء في حصيرة، ورميتها بعيدا».

ومأساوية العنف السيكولوجي الذي تمارسه اليابان تجاه شعبها، وعدوانيتها الصارخة المستهينة بالآخرين، ومن بين سمات زماننا، كما سبق أن اقترحت، الموت البطيء لهذه الروح بين أولئك الذين يفترض أنهم يملكونها (وإن كانت هي التي تملكتهم ـ طبعا). ولكن علينا أن نتابع تلك الظاهرة الآسرة وهي تجتاز سنوات العصر الحديث، قبل أن يأتي الوقت الذي نشهد فيه ذهابها.

* * *

كان الساموراي، على مر العصور، هم متعهدي إمداد الروح اليابانية بعناصر وجودها. صحيح أن مثاليتهم نابعة في معظمها من صندوق الكنوز الصيني، وإنما بمقدار. كذلك كان الساموراي وطنيين أشاوس، يتملكهم الحنين إلى ياماتو القديمة. وأعظم مآثرهم هي أن يكرسوا الروح اليابانية في واقع أعمالهم، وفي النهاية تجاوزوا كل ما أخذوه عن الصينيين، أي أنهم جعلوه يابانيا. أصبحت كونفوشيتهم هي تلك الشبكة الهائلة المركبة من الواجبات والالتزامات المعروفة باسم جيري ـ أون giri and on، كما أصبحت بوذيتهم هي بوذية زن Zen.

في منتصف القرن السابع عشر، سجل أحد علماء الكونفوشية، واسمه سوكو ياماجا Soko Yamaga، أصول قواعد الساموراي لأول مرة. وأطلق على هذا السجل اسم بوشيدو Bushido، ومعناه «مرشد المحاربين». وتلك كانت لحظة نادرة في التاريخ. فأثناء حياة ياماجا، كانت أسرة توكاجاوا الحاكمة قد أنهت الحروب التي طالما شُغلت بها طبقة المحاربين، وعُيّن عدد كبير من الساموراي الذين اعتزلوا مهنة الحرب حكاما للأقاليم. وانخرطوا في صفوف بيروقراطية إدو الضخمة. وعمد سكان المدن المتيسرون إلى تبني تقاليد الساموراي، وإن في شكل مبتذل. حيث وظّفت تقاليد المحاربين لخدمة مصالح مادية صغيرة. وهكذا أخذت فكرة الساموراي عن الكينونة اليابانية الساكنة في الروح، أخذت في الانتشار. وكان تسجيل قواعد العشيرة القديمة خطوة في اتجاه صبغ اليابان من القمة إلى القاعدة في قالب الساموراي.

ومن بين مريدي سوكو ياماجا، واحد من الساموراي اتخذه مؤلف قصة ٤٧ ساموراي The tale of the Forty-Seven Ronin(*)، قائدا لهم، وتلك هي

(*) في الأصل الإنجليزي Ronin، والكلمة (اليابانية) سبق ذكرها، وهي الاسم الذي كان يطلق على الساموراي الذي تصعلك بعد أن انتهى زمانه وفقد سيادته.

وعيهم، فإنهم يتقبلون أيضا أقصى العقوبة عليه. وهذا النوع من التعسف اللاعقلاني ينطوي على ذلك النوع من إنكار الذات الاستحواذي.

ومن الأمثلة الموضحة لذلك الحكم بقتل الذات بالانتحار على طريقة سيبوكو. وفي ١٨٦٩، أي بعد عام من الإحياء الميجي، طرحت الحكومة الجديدة للمناقشة موضوع تجريم هذا الأمر (مثلما جُرِّمت أمور أخرى عدة) لأنها يمكن أن تثير امتعاض الغربيين، وفيما يلي عيِّنة مما قاله المدافعون عن هذا الطقس الانتحاري، في المجلس الإمبراطوري الجديد.

إن الانتحار على طريقة سيبوكو له جذوره في الطاقة الحيوية لهذا البلد المقدس، إنه المزار المقدس للروح اليابانية «ياماتو داماشي».

إن الانتحار على طريقة سيبوكو هو جوهرة على جبين بلادنا، وهو من أسباب سموها وتفوقها على البلاد الأخرى الموجودة وراء البحار.

والأكثر مدعاة للدهشة، ما قيل:

لماذا نقضي على تلك العادة لمجرد أن في ذلك محاكاة لتخنث الأمم الأجنبية؟

هل يتعلق الأمر حقا «بتخنث» الآخرين؟ لا يمكن أن تكون هذه هي القضية ـ بالطبع. وإنما القضية كانت هي «تخنث» اليابان، هي تلك الروح اللينة الانسحابية التي طال دفنها، والتي كانت من سمات اليابانيين قبل ظهور ياماتو. لنتأمل الصورة الكلاسيكية للساموراي كما تُقدم لنا: الوقفة المتصلبة، والسيف مشهر، و(أهم من كل هذا) النظرة الشزراء الحادة والفم المزموم المقوس لأسفل، باختصار، المظهر المتجهم الذي من دونه يفقد الساموراي هويته. ويمكن أن نرى هذه الصورة حتى أيامنا هذه في أشياء مثل الأفلام والإعلانات، ومن أمثلة ذلك: اشرب جيكيكان، خمر الساموراي!» وذلك إعلان كان واسع الانتشار أثناء سنوات إقامتي في طوكيو. وها هو الساموراي، نراه في ذلك الإعلان، في كل أبهته الذكورية وهو يضرب المنضدة بكأسه ملقيا الروع في القلوب. ثمة شيء في شخصية الساموراي ـ كما نعرفه ـ مثير للخوف بمثل ما هو مثير للإشفاق ومثير للضحك، جميعا وفي الوقت نفسه. لأن هذه الشخصية، في التحليل النهائي، في حالة تمثيلية، مجرد مسرح، تمويه على جوانب من الشخصية اليابانية، مثل العطاء، والطبع الأنثوي، إن شئنا، وهي أمور جديرة بأن تثير الإعجاب لا الخجل، وما تزال لها تجلياتها، على الرغم من كل الجهود التي تبذل لإخفائها.

بين أصابع قدميه، لأمر يبقي الناس في أماكنهم، وإن ذلك لقمين بأن ينحرف ببعض ما لديهم من تطلعات وأحلام وهم يتحولون ليصيروا على نموذج الساموراي الحديث. أعاد منظرو عصر الميجي اختراع شخصية أسطورية للتعبير عن هذا الجانب الروحي، ألا وهو الفلاح المسمى كينجيرو نينوميا Kinjiro Ninomiya. كان السيد كينجيرو هو التجسيد الأمثل للبذرة البرية - مثبتا في أرضه، متفانيا في عمله، شاكرا لكل من يعلوه، مستعدا أبدا للسعي من أجل الحصول على ين واحد. إنه المرادف الياباني لجوني آبلسيد الأمريكي Johnny Appleseed. رفع المنظرون اليابانيون لعصر الميجي السيد كينجيرو، بدرجة أو بأخرى، إلى مرتبة القديسين. وعندما جاء جنود الاحتلال الأمريكيون في ١٩٤٥، وجدوا تماثيل لكينجيرو في كثير من القرى اليابانية، وهو يحمل على ظهره حطبا ويقرأ كتابا في الوقت نفسه. (كان كينجيرو الحقيقي فلاحا من عصر إدو، ترقى بأعجوبة إلى وظيفة ناظر زراعة عند الإقطاعي المحلي).

ومع تتابع سنوات عصر الميجي، تحول البعث الروحي ليصبح ذا مضامين مناهضة للغرب بوضوح، ونظم دعاة الحقوق المدنية والديموقراطية الأغاني والأهازيج الشعبية التي تندد بالمعاهدات غير المتكافئة. وكما سبق أن أحاط اليابانيون أنفسهم بالأشياء الصينية، كذلك جلب عصر الميجي فيضا من الواردات الأمريكية والأوروبية. وهكذا، فشعار «الأشياء صينية ولكن الروح يابانية» - أصبح «الروح يابانية والأشياء غربية». واكون يوساي - وهي فكرة لن يجد أي ياباني عادي صعوبة في تقبلها.

وإذا كان لليابان حدود جغرافية واضحة، فهل لها حدود أخرى بالدرجة نفسها من الوضوح؟ ومع ذلك، اكتشفت اليابان في القرن العشرين كما في القرن السادس، أنه في اللحظات الحاسمة من تطورها، فإنها تبدو كما لو كانت لا حدود لها على الإطلاق. ومن المؤكد أن من بين الملامح الواضحة لعصر الميجي أنه كان تكرارا دقيقا للنموذج الذي أرساه شوتوكو، ألا وهو: صورة مرسومة ليابان جديدة، تستعير الكثير من خارجها، مع تشبث عنيد بروح منفردة، هي انعكاس حاد لإحساس داخلي بعدم القناعة والرضا. وفي التحليل الأخير، فإن الإحياء الروحي، مرة أخرى، هو إقامة الحدود التي كان يبدو أنها ضاعت.

ثمة أصحاب دكاكين أخرجوا سيوفهم اليابانية من أغمادها وجلسوا يحملقون في أنصالها العارية». استمع كوروساوا الشاب للإمبراطور من الراديو، وكان واحدا من بين ٧٠ مليونا من اليابانيين الذين يسمعون صوت الإمبراطور لأول مرة. ثم غادر الاستوديو، يقول كيروساوا:

في طريقي إلى منزلي، مجتازا الشوارع نفسها التي جئت منها، كان المنظر مختلفا اختلافا تاما. كان الناس في السوق التجاري يروحون ويجيئون في صخب، وجوههم مليئة بالبشر، كأنهم يُعِدون لعيد في اليوم التالي.

وثمة قصص كثيرة أخرى مشابهة تحكي ما حدث في ذلك المساء من يوم ١٥ أغسطس من ١٩٤٥. يتذكر البعض الشوارع الخالية وأصوات النحيب تأتي من خلف الأبواب المغلقة. ولكنهم يتحدثون دائما عن حزن ممتزج بإحساس أكيد بالارتياح. فكيف يمكن أن يتغير اليابانيون بمثل هذه السرعة؟ يجيب كوروساوا عن هذا السؤال بقوله: «في زمن الحرب، كنا جميعا أشبه بالصم البكم». وكان ثمة صحافي فرنسي حاضر بين العدد القليل من الغربيين الموجودين، عبَّر عن هذه الحالة بقوله: «كان ثمة شيء هائل، قد انكسر لتوه: لقد سقطت القضية الكبرى اعتمدت اليابان على الروح للتغلب على التفوق المادي للعدو. أما الآن، فقد أصبح اليابانيون وجها لوجه مع شعور بالنقص يستحيل تجاهله. ولكن لنتأمل كلمات كوروساوا مرة أخرى: إنه في فقرة واحدة يكشف، ليس فقط عن مدى الشمولية التي كانت عليها فكرة الروح، ولكنه يكشف أيضا عن مدى ما كانت عليه هذه الفكرة من ضحالة. وكذا الأمر، وما يزال، منذ استسلام اليابان في الحرب وحتى الآن.

ماتت فكرة الكوكوتاي (الروح القومية) مع القضاء على الجيش الإمبراطوري في ١٩٤٥ -، ولكن الموت لم يكن إلا كلاما في الأوراق الرسمية. صحيح أن الأمريكيين كانوا حريصين على قتل الكوكوتاي بأسرع ما يمكن، وأن الجنرال ماك آرثر صادر، بعد بضعة أشهر من احتلال طوكيو، الصيغة التي كانت معتمدة أيام الحرب لفكرة الروح القومية (كوكوتاي نو هونجي). كل هذا صحيح، ولكن فكرةً لها كل هذه الأهمية بالنسبة للأسلوب الذي كانت تحكم به اليابان، لا يمكن القضاء عليها وإلقاؤها في «مزبلة الماضي» كما لو كانت أمرا عسكريا أو مرسوما عاديا. وإنما كانت كوكوتاي أيديولوجية مسلما بها، أشبه بخبيئة غير مرئية. هكذا، بعد عام من مصادرة أركان حرب ماك

لم تكتمل أبدا. وكما تبين ليفتون، لم تسفر محاولات فرض الروح اليابانية إلا عن إطالة عمر أكثر أنواع الانقسام عنادا بين اليابانيين، بل وفي داخل كل ياباني: بين حال اليابانيين كما هم في الواقع، والحال التي ينبغي أن يكونوا عليها، وكذا بين فهم الإنسان نفسه بصفته يابانيا بالدرجة الأولى، وبين فهمه نفسه بصفته إنسانا بالدرجة الأولى، وذلك انقسام قديم قدَم فكرة ياماتو داماشي نفسها. إنه أيضا الانقسام بين التقاليد العظيمة والتقاليد الصغيرة. لقد طورت اليابان الصورة الإمبريالية الرسمية لذاتها وثقافتها، وهي ملحمة يحتشد فيها الأمراء والمحاربون وأبطال الوحدة القومية، وكل من يضربون المثل على الولاء وغيره من الفضائل الكبرى، منذ ظهور البشائر الأولى للروح القومية. ولكن خط التقاليد الصغيرة يظل هو الآخر متصلا متألقا عبر التاريخ.

ولنعرض باختصار لأسطورة أخرى من أساطير عصر إدو: كان بطلها، سوجورو Sogoro، كبير قرية يقيم بالقرب من ناريتا شمالي العاصمة في مستهل القرن السابع عشر. نشأت المشكلة عندما فرض الإقطاعي المحلي مزيدا من الضرائب على الأرز، إلى درجة دفعت القرية إلى المجاعة، وعندما فشلت الالتماسات التي قدمت للمسؤول الحكومي المحلي، أقدم سوجورو على مخاطرة السفر من القرية إلى إدو لمواجهة الإقطاعي نفسه في مسكنه الآخر في العاصمة. ولكن مسعاه فشل مرة أخرى، ولم يبق أمام سوجورو إلا أن يسعى لمقابلة الشوجون، الأمر الذي كان يعرضه بالقطع للإعدام، ذلك أنه، في تراتب الأمور، يبدأ حق سوجورو في تقديم الالتماسات. كما ينتهي أيضا، عند أعتاب من يعلوه مرتبة واحدة. تقول القصة:

لم يكن يملأ قلبه إلا فكرة واحدة، أنه بالتضحية بحياته نفسها، يكون قد نهض بمسؤوليته كاملة للتخفيف من معاناة الفلاحين وإنقاذ الجماهير من المخاطر. فيا لها من إرادة لا تلين، ويا لها من شجاعة لا نظير لها!

كُلل مسعى سوجورو بالنجاح بعد أن دس الشكوى في صندوق قمامة قصر الشوجون، اكتُشفت الشكوى ورُفعت للشوجون الذي أمر برفع الضرائب الإضافية عن كاهل الفلاحين، ولكن سوجورو حكم عليه بالصلب هو وزوجته وأبنائه الأربعة، لأنهم «تعاملوا مع السلطة العامة بخفة».

وأسطورة سوجورو وليدة التقاليد الصغرى: الأطراف لا المركز. ولن تجدها على قائمة القراءة في أي مدرسة إعدادية يابانية. أما قصة

«اليابانات» أشبه بطبقة طلاء تعلو سابقتها. وهكذا، نستطيع أن نقول إن التاريخ جعل اليابانيين، ويا للغرابة، بغير مأوى، تتقاذفهم أحداث القرن العشرين، وهم يتشردمون: إذ يلجون «يابانا» ليست في قائمة الأحلام والرؤى.

يحتضن اليابانيون هذا الحنين، تلك العاطفة التي تميزهم، ولكنها على الرغم من كل شيء، تضعف بمرور السنين. لقد جعل اليابانيون، ردحا من الزمن، من أنفسهم خبراء هذا الحنين، بل علماء، ولكن، ثمة أنواعا كثيرة من الحنين، لسبب بسيط: هو أن ثمة أكثر من ياباني تهفو إليها نفوسهم: ثمة الحنين الوهمي، رغم جماهيريته، لحقبة «سلام التوكوجاوا». ويظل حنين النواة القومية المتطرفة قويا لروح جماهيريته القديمة. وثمة الحنين لجماليات فنون الساموراي، يذكرنا اعتزاز كيشو كوروكاوا ببيت الشاي الذي يمتلكه بذلك الحنين. وأكثر من كل هذا، ثمة الحنين ليابان البساطة التي وجدت قبل أن يغطي طلاء ياماتو أديمها.

في أواخر السبعينيات قامت مجموعة من اليابانيين ببناء مركب بدائي طويل، للإبحار به من شمالي لوزون Luzon، في الفلبين، إلى الطرف الجنوبي من جزيرة كيوشو. وعلى نحو ما قام به العالم المستكشف النرويجي ثور هاريدال في رحلة كون ـ تيكي، كان من المفترض أن تثبت الرحلة اليابانية ما يسميه بعض الباحثين «نظريةالأصول الجنوبية»، تلك التي تذهب إلى أن أسلاف اليابانيين الأوائل، أو بعضهم على الأقل، جاءوا مهاجرين عبر المحيط من جنوب شرقي آسيا، أو من جزر المحيط الهادي. قام المركب برحلته، ولكن يبدو أن أحدا من اليابانيين لم يتأثر بنتائجها. اليوم يتمدد جسم السفينة خارج أحد المتاحف البحرية القائمة على خليج طوكيو، كتلة خشبية تنال منها عوامل الطبيعة. اصطحبني لرويتها أحد هواة النحت المرموقين.

سألته: «ماالذي أثبته أولئك الذين أخذوا المركب إلى الفلبين وأبحروا به عائدين لليابان؟».

هز رأسه وأجاب ساخرا: «لا شيء على الإطلاق».

كان مشروع تلك الرحلة البحرية مثالا حيا على ما سمي **نيهونجين رون** nihonjinron، وهي كلمة يابانية تعني «محاورات عن اليابانيين» أو «نظرية اليابانيين». تطرح نيهونجين رون السؤال القديم المتجدد: من هم اليابانيون؟

أن ينشغل أي ساموراي متحمس أو أي قومي في وقت الحرب بمثل هذه المشكلة. فبالنسبة لهذا أو ذاك كانت المعادلة بسيطة: «إن روحنا المتفردة تعني أننا لسنا صينيين». ثم بعد ألف سنة تعني «نحن لسنا غربيين». هذا ما يجب التأكيد عليه. ولم يكن أبدا للجغرافيا أو الأنثروبولوجي أي صلة بأن يكون اليابانيون هم اليابانيين.

صحيح أن اليابانيين متفردون، غير أن المنظّرين فشلوا في شرح الخطوة التالية في منطقهم: فاليابانيون ليسوا وحدهم المتفردين، أي أنهم ليسوا أكثر تفردا من غيرهم، ومن ثم، فإن نظرية اليابانيين لا توحي إلا بما حاولت أن تدحضه: وهو أن الإحساس بالتفرد والانتماء الذي أوحت به الروح اليابانية، هذا الإحساس يحتضر، بمثل ما تحتضر الفكرة القديمة للروح اليابانية نفسها.

إن نظرية اليابانيين «نيهونجين رون» تخبو كقاعدة من قواعد السلوك والعمل ـ إن صح التعبير. وأعتقد أنها تنتهي، لأن فكرة تفرد اليابانيين لا يمكن الإبقاء عليها أكثر من ذلك. لقد أُنهكت الروح اليابانية تماما في ثمانينيات القرن العشرين، أو بتعبير أفضل، لم تعد ثمة حاجة إليها. باختصار، كانت شعبية الفكرة ترجع إلى أن اليابانيين لم يكونوا قادرين على تعريف أنفسهم كمختلفين عن آخرين. وكان التحدي الذي يواجههم، هو أن يوضحوا لأنفسهم، كما لغيرهم، حقيقة هويتهم الخاصة. وفي محاولة تنظير النيهونجين رون يتفحص اليابانيون ماضيهم مرة أخرى. ولكن المحاولة لم تكن إلا نوعا من العلم الزائف والحنين الرخيص. والحقيقة أن اليابانيين لا يزالون يبحثون عن روح ـ ليست هي الروح القديمة ـ ياماتو داماشي، وإنما هي روح أمة عصرية، وهو ما لم يتحقق قط. ومن ثم، لايزال اليابانيون يرغبون في إعادة اكتشاف ماضيهم، لكنهم لا يرغبون في العودة إلى الحياة فيه.

لم تتقبل اليابان أبدا فكرة «فترة ما بعد الحرب»، لارتباطها حرفيا بالحرب، وأعلنت بدءا من خمسينيات القرن العشرين نهاية تلك الفترة كلما سنحت فرصة. في العام ١٩٥٦، أطلقت الصحف على الطفرة الاقتصادية حينذاك اسم «طفرة جيمو» jimmu boom، تيمنا باسم أول الأباطرة الأسطوريين، وأعلنت طوكيو أن فترة ما بعد الحرب قد انتهت. ثم شهد العام ١٩٦٤ دورة طوكيو الأولمبية، وهو العام نفسه الذي انضمت فيه

وهي تطن طنين الرتابة الخفيض لماكينة الخياطة، أصبحت مفرغة من الأيديولوجيا والصراع: تبخرت المعاني، واستُعيض عن الحقيقة الواقعية بحقيقة افتراضية. تلك هي الأفكار التي حظيت بشعبية كبيرة، والتي ظهرت في المنعطف بين أواخر ثمانينيات القرن العشرين وأوائل التسعينيات من القرن نفسه. غير أنها ليست إلا «يابانا» أخرى من صنع الخيال. وليس ثمة علاقة بين هذا الكلام وحقيقة الحال، وليس ثمة ما هو أكثر سخفا منه كقراءة لماضي اليابان وحاضرها. إنها «يابان» حسب توصيف استشراق نادي الكريزانثيمم، وقد دفعت خطوتين إلى الأمام وألبست سواد ما بعد الحداثة، وقدمت «كمشروع» سلعة جديدة للاستهلاك في عصرنا.

كان اليابانيون قد بدأوا عصرهم الحديث بقراءة أعمال روسّو وجون ستيورات مل، وغيرهما من مفكري التنوير، ولم يلبثوا أن نحّوا الأفكار والكتب جانبا، وأقاموا صرح اقتصاد حديث، ولكن ما بنوه لم يكن مجتمعا حديث (كما تدل على ذلك الشواهد الكثيرة). وبعد الحرب، جعل اليابانيون من أنفسهم مواطنين لا رعايا، ولكنهم لم يبنوا مجتمعا مدنيا يمارسون فيه حقوق المشاركة، وأصبحوا يمتلكون آليات ديموقراطية، ولكن ليست الديموقراطية هي التي يمتلكون. وأيا كانت أفكار المرء عما بعد الحداثة، فإن اليابانيين ليسوا لها مؤهلين. وإذا نحينا جانبا غلاف التكنولوجيا المتطورة وأحلام المستقبل المُغرِقة في الخيال، فإننا سنكتشف أن آفاقهم غالبا ليست بعد - حداثية، وإنما هي قبل.

فأين اليابانيون الآن، وإلى أين يتجهون؟ هذا سؤال منطقي، ولكن يجب أن نكون على حذر ونحن نحاول الإجابة عنه. إن اليابانيين يقفون على حافة عصر تنويرهم الياباني المتأخر. وهم على وشك أن يصيروا، أخيرا، أكثر شبها بنا. تلك فرضيات قديمة ومألوفة في الغرب. وإذ يشرع اليابانيون في إعادة صياغة أنفسهم ومجتمعهم، فإن الأيام يمكن أن تثبت صحة هذه الفرضيات، أو ربما ينتهج اليابانيون سبيلا مختلفا تماما، وذلك إمكان مثير للتفكير، خاصة إذا أخذنا في الاعتبار أن الغرب نفسه شرع الآن يتساءل إن كان التنوير قد تنكب طريقه، أو إن كان ثمة خطأ في هذا الطريق منذ البداية؟

ولكن صياغة الأمر على هذا النحو يمكن أن تمحو معالم المشكلة كلها، فليست المحاولة التي تبذلها اليابان هي أن تكون مثلنا، وأن تظل تستعير منا،

إن المفارقة التي اكتشفها بارت في طوكيو الحديثة، وهي وجود مركز فارغ يدور حوله كل شيء، هذه المفارقة موجودة منذ القرن التاسع، أي منذ أن تمكنت أسرة فوجيوارا Fujiwara من تأسيس عائلة ملكية وراثية استمرت حتى العام ١١٨٥، عندما تمكن الشوجون الأول من الاستحواذ على السلطة، وبدأ بذلك العصر الإقطاعي. ومنذئذ، وعلى مر القرون، أضفى الإمبراطور شرعية على الحكومات الدكتاتورية، المدنية والعسكرية، بينما بقي هو في عزلة باهتة متزايدة. وفضَّل التوكوجاوا هذا الوجود الإمبراطوري الباهت، الذي يمكن في ظله وضع أي إمبراطور تحت السيطرة بضوابط يحددونها. وكانت هذه هي الخلفية التي تجاوزها إمبراطور الميجي، وهو شخصية فارقة لم يُخفِ مراميه، فقام بتغيير المشهد وتنحية أصباغ الوجه والواجهة، والخروج من الظل. ولكن النخبة التي خلقت اليابان الحديثة تحت مظلته ظلت ولوعة ومتعلقة بجو الغموض القديم: حيث كان «الرجل الخفي فوق السحاب» أداتهم التنظيمية الكبرى حين شرعوا في خلق الدولة ـ العائلة بعد الإصلاح الميجي.

وأقطاب اليمين في اليابان مناورون متمرسون في اللعب على طول المسارات الدائرية للأيديولوجيا والأساطير التي تحيط بعرش الكريزانثيمم. وأذكر أن أحدهم، وهو الموسيقي الراحل توشيرو مايوزومي Toshiro Mayuzumi، فسر لي الأمر (عندما كان الإمبراطور هيروهيتو يحتضر في خريف ١٩٨٨)، قائلا: «الإمبراطور ليست له أي سلطات، ولكنه مصدر كل السلطات». والحق أن هذه هي الصيغة القائمة منذ القدم، والتي استُخدمت بشكل واسع بعد العام ١٩٤٥ لإعفاء الإمبراطور هيروهيتو من أي مسؤولية عن حرب الباسيفيك. كما أن هذا يكشف أيضا عن شيء من ذلك الفراغ الذي وصفه بارت، والصمت الذي ألمحت إليه ميشيكو في قصيدتها (التانكا).

وحتى في الوقت الحاضر، بعد أن مات هيروهيتو وجلس على العرش أكيهيتو، زوج ميشيكو (ورقمه في التسلسل الإمبراطوري ١٢٥، وهو رقم يوحي بالقداسة والبركة، إذ سبقه ١٢٤ إمبراطورا من سلالة جيمو Jimmu، وهو الذي أقام أسلافه في السماوات العلا) يظل الفراغ الإمبراطوري والنظام الذي يبقيه، أشبه بأحجية «زن كوان» Zen Koan(*). ثمة إمبراطور يجلس في مركز اليابان، غير أنه لا يوجد عرش في داخل قصر فوكياج، كما لا توجد

(*) Zen koan: أحجية يمتحن فيها المرشحون للرهبنة في مذهب بوذية زن الياباني، تكاد لا يكون لها حل، أشبه بأحجية من الذي يستطيع أن يصفق بيد واحدة.

والساعة، هذه الصورة تفترض عدم وجود أحاسيس أو مشاعر للحاشية والخدم الإمبراطوري. ولكن كثيرين تبنوا هذا الرأي، الذي لا يمكن إسقاطه تماما من الاعتبار.

كان هيروهيتو قبل سنوات من خريف ١٩٨٨ يعاني ضعفا وهزالا بيِّنا. أجريت له جراحة، وقلَّ ظهوره في المناسبات العامة. وفي أثناء الصيف راجت شائعات أنه خسر معركته مع سرطان البنكرياس، كان الجميع على علم بأنه يعاني هذا المرض وإن لم يُعلَن عن ذلك شيء. في يوم سبت من شهر سبتمبر، أصدرت إدارة القصر الإمبراطوري (الكونايشو) بيانا موجزا: تقيَّأ الإمبراطور دما، وهو في حالة حرجة. ولم يحدث في أسوأ لحظات تاريخها أن صدر عن هذه الإدارة شبه الكهنوتية كلام صادم لليابانيين بمثل هذا الوضوح ـ كان اليوم X ـ وهو الرمز الكودي الرسمي والمعروف على نطاق واسع لتاريخ الوفاة المتوقعة ـ كان اليوم X يقترب.

يعود ذلك الخريف إلى الذاكرة، كشهور كثيرة متتالية يسقط فيها مطر خفيف بلا توقف. لم يكن الأمر كذلك طبعا، ولكن ذلك الخريف الذي ما يزال حيا في الذاكرة، بدا كأيام متتابعة اصطفت فيها مظلات المطر وتداخلت فوق الشوارع والطرق المحيطة بالقصر الإمبراطوري. بدأت الجماهير تتقاطر وتحتشد فور إعلان البيان الرسمي. كانت الجموع التي جاءت تدعو وتبتهل توقِّع على قوائم موضوعة على مناضد مصفوفة تحت خيام ممتدة، كان البعض يبكي، وقد تطلعوا بأبصارهم يحاولون النفاذ داخل البوابات. البعض ينحني، والبعض يتكلم، والبعض يشخص بذهول. أعاد المنظر إلى ذاكرتي صورة صحافية ترجع إلى وقت ما من الثلاثينيات، التُقطت في موسم كئيب كهذا، حيث كان الرجال الذين يرتدون معاطف المطر الداكنة يقفون في صفوف ثلاثة متراصة، متوجهين نحو جسر نيجوباشي Nijubashi، وهو الجسر الحجري المنمق المؤدي إلى ساحات القصر. وكأن كل شيء على حاله لم يتغير على مدى نصف قرن من التاريخ والحرب.

من مكتب صحيفة الهيرالد تريبيون الواقع شمال القصر، وقفت أرقب صفوف الناس، وهي في طريقها لتقديم فروض الاحترام والتبجيل. وسرت مرات معهم إلى الساحة المرصوفة بالحصباء بالقرب من البوابة الشرقية. قابلتُ شخصية نقابية متقاعدة، يسمى كاميزابورو تاكيوشي Kamezaburo

من المعروف أن الكونايشو (إدارة القصر الإمبراطوري) هي الحارس الأمين الشديد الحرص على العائلة الإمبراطورية، ومهمتها الرئيسية هي إدارة شؤون القصر، ومن بين مهامها مراعاة المراسم واحترام التاريخ المحفوظ والتربية الصارمة للأطفال. تمكنت الكونايشو من المحافظة على هيبة المظاهر بالتعامل برفق وصرامة مع الجماهير القريبة من جسر نيجوباشي. ولكن فيما عدا ذلك، بدا كأن الكونايشو عاجزة تماما عن التعامل مع الموت المرتقب للإمبراطور. وحتى موته، كانت الإدارة تذيع بيانات إحصائية عن حالته: النبض، الحرارة، كمية الدم التي فقدها وكمية الدم التي نقلت إليه: في توليفة فريدة من الابتذال وعبارات التبجيل التي أصبح وقعها أشبه بوقع كلمة تتكرر تكرارا لانهائيا كتمتمة بلا معنى. وفي صدر الصفحات الأولى للجرائد القومية اليومية، تُزَفّ أخبار تحرك وعاء أو إناء طبي، أو التغذية بجذور النباتات الشافية، أو نجاح الإمبراطور في مصّ مكعبات الثلج الصغيرة.

أقيمت مراسم جنازة هيروهيتو، بعد شهر من وفاته، في حديقة عامة سُميت على اسم الإمبراطور ميجي. ولاحقت الجنازة صفوف من الموسيقيين يعزفون ألحانا عتيقة ومتنافرة. كانت الطقوس والمراسم مدروسة يلفها الغموض، كأنها تذكّر الضيوف الأجانب بأنهم دُعوا ليُستبعدُوا. ولكن الحاضر لم يلبث أن أثبت حضوره، ذلك أن الحفيظين على الإمبراطور كان عليهم أن يراعوا الفوارق الدستورية بين ما هو ديني وما هو دولاتي، ففي وسط المسيرة الجنائزية، توقف الموكب فجأة، وأسدلت ستائر تحجب عن الأنظار صلاة وطقوسا يقوم بها كهنة الشينتو، تاركين مئات من كبار الضيوف يحملقون في حاجز أبيض تحت وابل أمطار ثلجية غزيرة.

وقام طاقم مصوري التلفزيون الياباني الرسمي بوضع كاميرات على جانبي الستارة المركزية. وفي نشرات الأخبار، رأى المشاهدون ـ فيما بعد ـ على شاشات التلفزيون، لقطات عامة لكل واحد من القادة الأجانب الذين اقتربوا من النعش ليقدموا مراسم التبجيل، ولكن، إذا انحنى الضيف أمام النعش، وأغلبهم انحنى فعلا، فإن الكاميرات تعرض صورة من قريب close up لهذه اللفتة، وتظل على الشاشة وقتا أطول. ويعود العرض إلى اللقطات العامة في أثناء عودة الضيف إلى مقعده، ليبدأ المعلق التلفزيوني بتعليق من

للشك والتساؤل، بين نهاية حقبة وبداية أخرى، أشبه باللحظة التي تفصل بين البرق والرعد.

* * *

في الأيام الأخيرة من العام ١٩٢٦، كان والد الإمبراطور هيروهيتو قد توفي يوم عيد الميلاد، ليصعد هيروهيتو إلى العرش، ويبدأ عصر شوا، أي عصر السلام المستنير. وفي الأيام الأولى من العام الجديد، نشرت مجلة نيويورك تايمز مقالا لمراسل في طوكيو اسمه كينوزوكي آداشي Kinnosuke Adachi. ولا نملك إلا أن نشعر بإعجاب ودهشة عندما نرى بنظرة راجعة ما تضمنه هذا المقال من سخرية ومفارقات. جاء في المقال:

يصعد إلى العرش في اليابان إمبراطور شاب، حطم أكثر من تقليد جامد من التقاليد التي كانت مرعية طيلة حكم ١٢٣ من أسلافه، في وقت بدأ يرتفع فيه لأول مرة صوت الرأي العام في بلده، وحين أصبح حق الانتخاب حقيقة. ويبشر كل هذا بأحداث مهمة على الجانب الآخر من المحيط الباسيفيكي.

إن اليابان التي تتفتح عليها عينا الإمبراطور الجديد وهو يعتلي العرش، تختلف اختلافا كبيرا عن ذلك البلد الذي تفتحت عليه عينا والده. تولى الوالد السلطة عندما كانت دولته ما تزال في قبضة حفنة من رجال كبار السن، عُرفوا في العالم باسم رجال الدولة الأكابر. واليوم يمضي هؤلاء الأكابر ليصبحوا في ذمة التاريخ. ولأول مرة منذ قرون، تلف الظلال التي تزداد كثافة الفئة العسكرية الحاكمة، وها هو واحد من قياداتها: الجنرال بارون تاناكا يتخلى عن مهنته العسكرية، ليحترف السياسة. هذا وقد تجاوزت اليابان اليوم المرحلة الأولى للتصنيع.

وعلى عرش هذا البلد الحديث، يصعد أمير شاب في الخامسة والعشرين من عمره، وقد مر بتجربتين كبيرتين لم يمر بمثلهما أي واحد من أبناء السماء الذين صعدوا إلى عرش ياماتو طوال خمسة وعشرين قرنا، هو تاريخ الأسرة الإمبراطورية. التجربة الأولى مع العالم الخارجي، والثانية مع الحب.

كان قدرا مكتوبا على كل إمبراطور لليابان، منذ الميجي، أن يبدأ بداية جديدة كرائد للتحديث. كان إمبراطور الميجي هو الذي أطلق حركة التقدم الكبرى إلى الأمام. أما ابنه تايشو، الذي كان مصابا باضطرابات متزايدة طيلة حياته بعد البلوغ، حتى إذا جاء العام ١٩٢١، كان قد بلغ درجة من الوهن استدعت قيام هيروهيتو بدوره وواجباته كوصي على العرش. ولكن عهد تايشو، من ١٩١٢ إلى ١٩٢٦، كان على الرغم من ذلك متميزا بليبراليته

ولا عجب أن برز أكيهيتو كشخصية إمبراطورية أخرى ساعية للتحديث. وللوهلة الأولى، نلاحظ المساحة الضئيلة التي تحركتها حدود التغيير على مدى ستين عاما. ظلت معايير الحب والسفر، واللقاء مع الآخرين ومواجهة النفس - ظلت هي الآفاق التي ترمز إلى التغيير. وبينما يتهيأ أكيهيتو للجلوس على عرش أسلافه، بدا كأن اليابان تحاول مرة أخرى وَضع رجال الدولة الأكابر في قلب التاريخ. وبدأ صوت الرأي العام يرتفع مرة أخرى في السياسة. غير أن رجال الدولة الأكابر في أواخر الثمانينيات كانوا أبناء شرعيين مباشرين للجيل السابق. وبينما ارتفع صوت الرأي العام في الثمانينيات كما سبق وارتفع في العشرينيات، لم يكن واضحا من الذي يسمع هذا الصوت.

يجسِّد أباطرة اليابان المحدثين طبيعة التغيير في هذا البلد، وإن لم يكونوا أدواته. من عصر إلى عصر، تبدو ظواهر الأمور كأن ثمة تقدما، ومع ذلك لا تقدم، تماما مثل المدن اليابانية، التي يمكن ملاحظة التغييرات فيها، بينما تبدو المدن كأنها لا تتغير. وحال الإمبراطور، نفسه، تعكس بوضوح شديد تلك الحقيقة الملغزة: حقيقة أمة هي دائما على حافة تغيير هائل، حالة صيرورة: والآفاق مثيرة ومحبطة معا. ولكن أكيهيتو ربما يكون مختلفا، ربما يكون هو النقطة التي تنكسر عندها السلسلة. كان هيروهيتو هو آخر الأباطرة الآلهة. وتلك حقيقة تنبئنا بشيء عن روح وعصر أكيهيتو، الذي يمكن أن يكون نقطة فارقة، بلا عودة.

بعد وفاة الإمبراطور هيروهيتو أطلق عليه، وفقا للتقليد الذي اتبع أخيرا، اسم عصره - عصر الصيرورة (شوا)، أي أطلق عليه الإمبراطور شوا. وسرعان ما اختار القائمون على شؤون القصر الإمبراطوري اسم العصر الجديد، هايساي Heisei، ومعناها تحقيق السلام. ولم يكن ذلك من بين أكثر ابتكارات الـ «كونايشو» توفيقا. إذ تبين اليابانيون أن هذا العنوان يُعَبَّر عنه كتابة بحرفين غير متناسقين، بمثل ما هو في الإنجليزية تعبير عن معنى تجريدي وغير مناسب، فهو ليس إلا تعبيرا عن مبدأ مراوغ تكرسه جميع الهيئات الرسمية في كل العالم. وفسر المراقبون اختيار اسم هايساي كتعبير عن استمرار الالتزام الذي قطعته اليابان على نفسها بعد الحرب، بأن تتخلى عن حقها في شن أي حرب. ولكن هذا النوع من السلام كان قد تحقق فعلا،

ها هو ولدي،
يعود إلينا الآن مرة أخرى

قد تبدو هذه عبارات مرصوصة على الورق بلا طعم، ولكنها تخدم هدفا معينا، مثلها في ذلك مثل كثير مما صدر عن القصر الإمبراطوري من نظم في زمانه. لم يحدث من قبل أن ورد في هذه الأشعار ذكر لأشجار الصمغ في شرق أفريقيا أو لقاعات الدراسة الإنجليزية. ولكن لم يحدث من قبل ـ كذلك أن أخذ أحد الأباطرة على عاتقه أن يجعل من نفسه بشرا دنيويا. وتبديل صورة الإمبراطور يكفي لتغيير النظام الإمبراطوري، أو لعل ذلك كان خداع نظر، على الأقل. كان أسلوبا لمعالجة واحدة من المشكلات الجوهرية لعرش الكريزانثيمم، مشكلة الاستمرارية في اليابان المتغيرة. ولكن تبديل الصورة ليس كافيا لتغيير الماضي، فالصدق مع الماضي كان مشكلة أخرى من مشكلات العرش.

* * *

ثمة ثلاث صور مشهورة تعبر عن التقدم الذي تحقق في أثناء حكم هيروهيتو: الأولى من الثلاثينيات، تصور هيروهيتو في سترة عسكرية بروسية الطراز وحذاء عالي الرقبة، يمتطي صهوة جواده الأبيض الشهير. والصورة الثانية في سبتمبر ١٩٤٥، أي بعد شهر من الهزيمة والاستسلام، تصور هيروهيتو في بدلة صباحية خفيفة، يقف بجانب الجنرال ماك آرثر، الذي كان في زي عسكري كاكي بلا رباط عنق، ويداه مدسوستان في جيبي سرواله الخلفيين. الصورة الأخيرة التقطت بعد ذلك، ربما في أواخر الأربعينيات أو في فترة الخمسينيات، وفيها يجلس هيروهيتو وأمامه ميكروسكوب، يرتدي معطف المعمل الأبيض فوق بدلة ساراري بسيطة: معلنا بذلك عن اهتمامه بدراسة الأحياء المائية.

وربما يتعين على الكونايشو أن تضيف صورة أخرى للرموز الثلاثة القديمة (المرآة والسيف والجوهرة) التي ترمز إلى العرش. والصورة التي يتعين إضافتها هي صورة الحرباء. كان هيروهيتو فنانا بارعا في تغيير مظهره، كان أستاذا في فنه ولم يتخل عن دوره على المسرح إلا بوفاته. أما الدور الموكل لأكيهيتو، فإنه أقل دراماتيكية بما لا يقارن، ومن ثم تمكن من أدائه بدهاء أكبر ولكن جوهر الأداء واحد. فالإمبراطور، مثله مثل الحرباء

في مرحلة ما بعد الحرب: الفرد جزء من المجموع، كل فرد لا يتمايز عن الآخر. كانت القصيدة بمنزلة مرسوم إمبراطوري، موجز ومعبر.

بعد أربعة عقود، بدا هذا الاستهلال الشاعري كأنه هدية مريرة قُدمت من الأب لابنه. ففيها، يكشف هيروهيتو عن نواياه لفترة ما بعد الحرب: وقف عجلة الزمن ـ الزمن السياسي والزمن التاريخي ـ وتأجيل تطور اليابان واليابانيين. ولا يمكن إغفال دور الأمريكيين في هذا: فقد جعلوا من مؤسسة القصر الإمبراطوري جزءا من الزمن الذي أُوقفت مسيرته في الحرب الباردة. بعد ثلاثة وثلاثين عاما، وفي توافق غريب، يرحل هيروهيتو وتنتهي الحرب الباردة، في اللحظة نفسها تقريبا. كان العرش ما يزال مركز المناظرات والمساجلات. وفي قلب هذه المساجلات، تقف الغابة العتيدة، غابة أشجار الصنوبر التي لم تغير لونها قط، غابة المتفانين في خدمة الإمبراطور، أو الـ «تنّو» Tenno.

كان عدد التنيويين(*) كبيرا قبل الحرب، حيث كانوا عنصرا بارزا وثابتا في المشهد السياسي والأيديولوجي. من بينهم أساتذة جامعيون شقوا طريقهم للترقي بافتعال مداخلات لدعم الأيديولوجية التنيوية (أي أيديولوجية النظام الإمبراطوري). وابتُدعت نظريات عن الدولة والتفسيرات الدينية يمكن بمقتضاها إقالة وزراء وتعديل في الإستراتيجيات العسكرية، وتغييب الناس في السجون. وأشهر المساجلات في هذا الصدد تفجرت في أواسط الثلاثينيات، تلك التي تركزت حول السؤال: هل يُعتبر الإمبراطور أحد أركان الحكم (كما يتعين ذلك بنص دستور الميجي)، أم أنه كائن إلهي تتجاوز سلطته صلاحيات الدولة الدنيوية (كما تؤكد ذلك الأيديولوجية القومية)؟ وكانت المساجلة حول «نظرية أحد أركان الدولة» نوعا من المناورة السياسية للتأثير في الاختيارات الإستراتيجية العسكرية. وتسللت المساجلة كالفيروس، مخترقة المراتب العليا للسلطة، لتفضي إلى نوع من التحدي غير المباشر لسلطة هيروهيتو. وفي معرض حسم هذا الموقف، أكّد سيادته إصدار حكمه الإلهي، المصيري، بأن اليابان حين تخوض الحرب، فإنها يجب أن تتحاشى الاتحاد السوفييتي وتتجه جنوبا لضرب الصين وجنوب شرق آسيا.

(*) التنيويون Tennoists، نسبة إلى الإمبراطور أو «Tenno»، وهكذا فهم بمعنى الإمبراطوريين نسبة إلى الإمبراطور، أو الملكيين، أي دعاة الملكية.

اعتلى أكيهيتو العرش بعد طقوس كثيرة، بلغت الأربعين عدًا، في العام الذي سبق تنصيبه في نوفمبر ١٩٩٠، وبلغت تكاليفها ٩٥ مليون دولار - من الخزانة العامة. وأُنفق لا أقل من خُمس هذا المبلغ على طقس معين يسمى «دايجوساي» Daijosai، طقس تغطي مراسمه ليلا بطوله: يدخل فيه أكيهيتو حالة اتحاد روحي مع معبودة إلهية سامقة، أماتيراسو، ربة الشمس القديمة. ونشرت الصحف القومية تقارير إخبارية عن هذه المراسم في وقتها، ولكن بخلاف ذلك، لم يبدُ أن أحدا ألقى بالا للموضوع. فقد عمدت يابان ما بعد الحرب، يابان الإنتاج واللامبالاة السياسية، والشباب المغترب، والإنفاق الاستهلاكي، عمدت إلى مواصلة إيقاع مسيرتها، منسابة إنسياب مد البحر، فوق طقوس اعتلاء العرش.

يذهب بعض المؤرخين إلى أن طقس دايجوساي، المأخوذ عن طقوس الحصاد، يرجع إلى العام ٣٥٠ قبل الميلاد، أو ربما بعد ذلك بقليل. يتطلب الطقس وجود حقل مقدس لزراعة الأرز الذي سيقدمه الإمبراطور الجديد للآلهة. تطوّر الطقس على مر القرون، ولكنه لم يحظَ بأهمية خاصة إلا بعد الإصلاح الميجي. كانت الخصوبة، دائما، هي الموضوع. ولكن على مر الأزمنة، يختلف الأرباب والربات المشتركون في الطقس من دايجوساي إلى آخر. ولم تدخل أماتيراسو الصورة إلا بعد إقامة النظام الإمبراطوري في القرنين السادس والسابع.

يُعدّ سلوك الإمبراطور في أثناء ممارسة طقس الدايجوساي سرا لا يُناقش، حتى فيما بين التنيويين. وهذا هو كل ما يُعرف عنه: في المساء، يدخل الإمبراطور كوخا بسيطا، ويتمدد على سرير مقدس. والسرير موضوع على مقعد كان يحتله في وقت سابق الإمبراطور المتوفى. وتوجد في المكان أنثى واحدة على الأقل من سيدات البلاط طيلة هذه الليلة. وحينذاك، يندمج الإمبراطور مع روح الربة أماتيراسو أي يصبح إلها. تنتهي الاحتفالية السرية في صبيحة اليوم التالي، وعندئذ يقدم الإمبراطور القرابين للآلهة، أرزا وعصيدة وساكي، مأخوذة كلها من حصاد الحقل المقدس.

هل يضاجع الإمبراطور تلك الأنثى؟ يقول بعض الباحثين، إن هذا يحدث. والإيحاءات الجنسية عجيبة، وهي على كل حال من بقايا مجتمع من المزارعين

بالماضي تشبثا شرسا، ممن أُطلقت أيديهم تماما لتنظيم احتفاليات ومراسم اعتلاء العرش. تفجرت الخلافات؛ خلافات لم تقتصر أسبابها على مجرد تبديد الأموال في الدايجوساي، سبعة عشر مليونا من الدولارات لبناء كوخ أكيهيتو البسيط، الذي اتضح أنه مركّب من ثلاثين مبنى تعلوها سقوف من السمار مقامة على أراضي القصر الإمبراطوري. كان الموضوع كله مشهدا وعرضا ضخما ليابان ما بعد الحرب، يابان ما تزال تعيش في تلك الأيام من خريف ١٩٤٥، يابان غير مستعدة للتسليم في نظام ما قبل الحرب - إلا على مضض - وهي لا تسلم إلا بالقدر الذي أجبرت عليه.

قبل أسبوعين من بداية تلك الاحتفالية، قدم أحد الأعضاء الاشتراكيين في المجلس التشريعي (Diet) خمسة أسئلة لرئيس المجلس، أشار في واحد منها إلى أحد الكتب الدراسية في فترة ما قبل الحرب، ورد فيه وصف للدايجوساي باعتباره «حدثا إلهيا يتوحد فيه الإمبراطور مع أوجيمي Oogimi (أعظم آلهة الشينتو)، كما تتجلى فيه حقيقة أن اليابان أمة فوق البشر». وهنا يسأل عضو البرلمان: «هل من الممكن إلغاء مثل هذا التعريف القديم إلغاءً واضحا وقاطعا؟ وإن كان ذلك ممكنا، فما التغييرات التي يمكن أن تطرأ على احتفالية دايجوساي هذا العام»؟

مضت أيام دون أي رد فعل رسمي، ولم يأت الرد إلا قبل يومين من بداية الاحتفال، وقد جاء باللغة الملتوية التي تسم كل منطوقات الكونايشو. لم يُذكر شيء عن تغيير الطقوس، وإنما قيل للنائب: «لوحظ وجود التوصيف الذي أشرت إليه، ولكن يُعتقد أن مردّ ذلك هو الظروف الخاصة لزمانه». وفي المساء على شاشات التلفزيون، وفي نشرة الأخبار، أذيع موجز عن الموضوع، من جملة واحدة قبل النشرة الجوية: «أدلى متحدث رسمي حكومي اليوم بتصريح قال فيه إن الإمبراطور أكيهيتو لن يجري تحويله إلى إله في أثناء احتفالية دايجوساي القادمة».

وحفلت الاحتفالية نفسها بكثير من مسافات بُعْد كونفوشية مرسومة. أجلس رؤساء الدول وكبار الزوار في مكان تفصله عن المنصة التي يجلس عليها أكيهيتو وميشيكو مسافة تزيد على مائتي قدم، وينخفض أربع أقدام عن أرضية المنصة. وعلى خشبة المنصة نفسها، رُفع مقعدا الإمبراطور والإمبراطورة مسافة ثلاث أقدام أخرى، ليكونا أقرب إلى السماء (وإن يكن

كان ذلك اعترافا مذهلا يصدر عن رجل في شهرة ساتو، وكان مؤشرا على أن أشجار الصنوبر تغير لونها أخيرا، وأنه يتعين على أكيهيتو أن يتطهر مما علق بالزي والأحذية العسكرية لوالده من روائح عطنة. لم يحدث قط أن اعترف الكونايشو بعدم ألوهية الإمبراطور. وظل التنيويون على مدى نصف قرن يتعللون بأن ما جاء في خطبة رأس السنة حول هذا الموضوع كان مفروضا (والحق أنه كان كذلك، على نحو ما). والآن، تقلّص الإمبراطور ليصبح أسطورة، أو نوعا من الغرائب الملونة، مثل الأشياء التي تجذب السواح، أو مجرد مؤدٍ لدور ترفيهي.

قلت: «إن هذه أمور شديدة الاختلاف عما كان يُعتبر هو الحقيقة في أثناء الفترة الانتقالية السابقة»(*). وسألت: «ماذا تغير أيضا»؟

«من الأمور المهمة أنه عندما رحل الإمبراطور تايشو واعتلى العرش الإمبراطور شوا، لم تحضر الاحتفال شخصيات أجنبية سامية: لم يحضر سوى الدبلوماسيين الأجانب الموجودين في طوكيو. أما هذه المرة، فقد حضر مائة وسبعون من كبار الزوار. ولكن هذا أمر طبيعي، فاليابان أمة قوية».

تطلب أحد طقوس احتفالية ارتقاء العرش أن يضرب أكيهيتو بقدمه نموذجا لكرة أرضية صغيرة ملقاة عند قدميه ثلاث مرات، كتعبير رمزي عن سيطرته على الكون. فمن يعرف متى بدأ هذا الطقس؟ إنه يفوح برائحة أطماع ما قبل الحرب. وأبقى عليه الكونايشو، واختيرت لحظة مناسبة، خاصة أن غالبية الأجانب المائة والسبعين ـ الذين كانوا يجلسون على مستوى أدنى من الإمبراطور ـ يرجح أنهم لم يلاحظوا شيئا. هذه الحركة غير المرئية، أصبحت تعبيرا دقيقا عن ضآلة ما يمكن أن يفهمه المدعوون عن مدى أهمية حضورهم بالنسبة لليابان.

شهدت الفترة الانتقالية(**) لحظات ثقيلة ومربكة. تفجرت المشاعر في بعض البلاد التي لها ذكريات أكثر وضوحا من الأمريكيين: رفضت أستراليا إرسال ممثل رسمي عنها لحضور جنازة هيروهيتو، ولم ترسل نيوزيلندا، بعد مناقشات ومساجلات حامية، إلا موظفا ضئيل الشأن. وصدرت الصحف في

(*) المقصود فترة انتقال العرش، بين وفاة أحد الأباطرة، حتى اعتلاء الإمبراطور التالي العرش (المترجم).

(**) نذكر القارئ بأن فترة الانتقال الأخيرة، من الإمبراطور هيروهيتو إلى الإمبراطور أكيهيتو استمرت عامين (١٩٨٩ ـ ١٩٩١) (المترجم).

قد وُجد في تلك الأيام. ولم تكن هناك زحمة مرور. كما أنه لم تُبذل جهود حكومية هذه المرة لحشد الجماهير (وإن يكن هذا قولا جانبه الصدق).

في أثناء طقوس اعتلاء العرش، ذهبت مرة أخرى أنقّب عن مزيد من المعلومات والأخبار في الدوائر القريبة من القصر. عرفت أن سبعة وثلاثين ألفا من رجال الشرطة كانوا منتشرين في المدينة. وفي يوم احتفال دايجوساي نفسه، قابلت أحد رجال السارايي يرتدي زيا رياضيا، ظل يتفادى النظر في عيني، يحملق بعيدا أو يطيل النظر إلى حذائه الرياضي. قال:«لم أكن قط مهتما أو مقتنعا بمثل هذه الأمور». فهل كل هذه الاحتفالية غير ضرورية؟ من رأيه أنه لم يكن هناك اختيارات أخرى، وقال: «يتعين علينا أن نقيم هذه الاحتفالات لأننا يابانيون. ولكنها مكلِّفة، ويُنفق عليها من الضرائب التي ندفعها. وعلى كل حال أنا لست متأكدا».

وتبادلت حديثا مع سيدة في منتصف العمر تملك محلا تجاريا في حي جينزا، قالت: إن اعتلاء العرش حدث مهم بالنسبة لجميع اليابانيين، ولكن كان عليهم أن يقسموا الاحتفاليات إلى جانب ديني وآخر قومي. وكان يجب أن تُقام الشعائر الدينية بطريقة أكثر كتمانا. والملاحظ أن إجراءات الأمن كثيفة جدا. وهذا أمر يدعو إلى السخرية، ولا أستطيع تحمله».

ورأيت رجلا قوي البنية يرتدي سترة رياضية من الجلد، جاء من هوكايدو ليتفرج على مباراة رجبي rugby. سألته إن كان يحب أكيهيتو، فبدا كأنه يبحث عن شيء يقوله، ثم أجاب: «بصراحة لا أستطيع أن أقول نعم أو لا»، وإجابة عن السؤال هل يعتقد أن النظام الإمبراطوري نظام جيد؟ أجاب: «أنا متأكد أننا بحاجة إليه؛ فهذا نظام قومي مناسب. ولكنني لا أرغب في أن أخوض ـ الآن ـ في حديث عن الحرب، أو عن مسؤولية الإمبراطور. ولا أظن أننا كنا سعداء بحكم الولايات المتحدة لنا بعد الحرب، ولكنني لست متأكدا أيضا إن كانت حالنا كان يمكن أن تكون أفضل لو أننا انتصرنا في الحرب».

وقابلت فتاتين من تلميذات المدارس الثانوية في زيهما الأزرق الشبيه بزي البحارة. قالت الأولى: «لم نقض وقتا طويلا في مشاهدة الاحتفاليات». هل ذلك لأن الأمر ليس مهما بالنسبة لها؟ قالت الأخرى: «نحن لا نكاد نتكلم عن هذه الأمور في المدرسة: الإمبراطور واحتفالات اعتلاء العرش، وكل هذه

العاطفي المغلق الذي أتاح لهم، وهم في سني الطفولة الأولى، إطلاق العنان لرغباتهم وإشباعها بغير حدود. والآماي عند الكبار يُعبَّر عنها في: النزوع للامبالاة، والتمرد والاجتراء، ويؤكد دوي أن الآمايرو صفة يتسم بها البشر جميعا، وإن لم يسموها باسمها. ولكن اليابانيين:

رفعوا الآماي إلى مرتبة المُثل، واعتبروا أن عالما تسوده الآماي هو العالم الإنساني بحق، وأن النظام الإمبراطوري يمكن اعتباره الشكل الأساسي المؤسس لهذه الفكرة.

وبعد أن تخلى الإمبراطور نفسه عن عقيدة تأليه ذاته، ليصبح «رمزا» للشعب الياباني، بعد ذلك فقط أمكن الكشف عن الآماي المتوارية في قلوب كل اليابانيين.

لقد شهد زماننا انهيار النظام الإمبراطوري كأيديولوجيا... ولكن هذا لا يعني - بأي حال - أن كل شيء في طبيعة النظام قد انتهى.

والحق أن دوي توصل هنا إلى فكرة مهمة: ما تزال سيكولوجية الاعتماد على الغير باقية. ولا نستطيع أن نتحدث عن الاستقلالية دون إثارة مشكلة الاعتماد على الآخر. ومن ثم، يجب أن ننظر إلى مظاهر الفتور واللامبالاة نظرة حذرة. والحق أن النزوع للاعتماد على الآخر يتعزز خلال مؤسسة الإمبراطور. ولكن التحليل الذي يقدمه دوي فيه مشكلة: حيث لا مكان فيه للسياسة والتاريخ. وبتجنب التعرض للسياسة والتاريخ، يفترض وجود سمة خاصة باليابانيين، شيء في الحضارة والثقافة والتقاليد والروح. ومفاد هذا تأكيد أن سيكولوجية الاعتماد على الآخر لا يمكن أن تتغير. وفي التحليل الأخير، ليس هذا إلا تنويعة استشراقية أخرى عن اليابانيين.

ذهبت لمقابلة البروفيسور دوي، وهو رجل نحيل، كان في أثناء الفترة الانتقالية في السبعين من عمره. أثناء الحديث قلت له إن أحد المفكرين المحافظين المرموقين وصف الإمبراطور بأنه نوع من الأساطير. وهنا اندفع دوي قائلا: «لقد تعمد هذا الشخص استخدام كلمة «أساطير». هذا هو تفسيري، أراد أن يعطي انطباعا بأنه لا يؤمن إيمانا حقيقيا بالنظام. يشعر الناس بالحرج عندما يوجه إليهم شخص أجنبي - مثلك - سؤالا يتعلق بمشاعرهم تجاه الإمبراطور. ومن الأمور المسلم بها - بصفة عامة - أننا يجب ألا نخوض في أي لغط حول الموضوع».

وعبَّر دوي عن ضيقه بالمعلقين الإخباريين، الذين غالبا ما يستخدمون تعبير «الإمبراطور الرمز»، فهم لا يستخدمون عبارة تعني، حسب تفسيره،

في صفهم ضد أمراء الإقطاع المحليين، كذلك لجأ العامة للإمبراطور عندما انهار حكم التوكوجاوا. ولكن لا هذا ولا ذاك جعل من هؤلاء أو أولئك تنيويين. كان الإمبراطور يمثل قوة سياسية حينذاك. ويبدو أن دوي عرَّف ظاهرة واضحة للعيان. حدث مرة ومرات في اليابان، كما في غيرها من بلاد شرق آسيا، أن كانت جماعات المعارضة أكثر انشغالا باتخاذ مواقف بطولية من حرصها على اتخاذ مواقف عقلانية يمكن أن تحظى بالقبول العام، وتفضي إلى اعتلاء السلطة. فقد كانت السلطة أبعد ما تكون عن أفكارهم. ولكن ما علاقة كل هذا بعادة الاعتماد على الآخر (آماى)؟ وما علاقته بالمشكلة الأكثر تعقيدا: مشكلة عدم النضج السياسي؟

كان ثمة جماعة راديكالية تسمى شوكاكوها Chukakuha، ومعناها عصبة القلب المركزية، والتي كانت ما تزال لها نشاطها في أواخر الثمانينيات. أعلنت العصبة مسؤوليتها عن عشرات من أعمال الإزعاج والتخريب في أثناء الفترة الانتقالية بما فيها إطلاق قنابل بدائية لتسقط في الأراضي المحيطة بالقصر الإمبراطوري. تمكنت من الالتقاء برجل يتخذ اسم يوشيهيزا فوجيوارا Yoshihisa Fujiwara، وهو أحد قادة عصبة القلب المركزية، في حي رث من أحياء شمالي طوكيو حيث كانت العصبة تحتل مبنى قديما ذا أبواب حديدية وتحيطه متاريس من أكياس الرمل. على قدر ما فهمت، كانت شوكاكوها واحدة من الشراذم التروتسكية الهامشية المتطرفة. وكانت شوكاكوها ترى، من بين أمور أخرى، أنه في أثناء حكم أكيهيتو ستعود اليابان مرة أخرى ـ بالتأكيد ـ دولة عسكرية، وأن الإمبراطور الجديد سيقود غزوا يابانيا جديدا للبلاد المجاورة.

تساءلت ماذا يمكن أن تكون علاقة فكرة د. دوي المتعلقة بالاعتماد على الآخر (آماى) بتلك الطائفة الهامشية المشوشة، إن كان ثمة علاقة. وكيف يمكن أن تنسجم مثل هذه العلاقة مع العالم الكبير. كان فوجيوارا منخرطا في حديث طويل وممتد وإن يكن غير مترابط، بينما أنا أطيل النظر إلى وجهه باحثا عما خلف التجاعيد والإرهاق والهم الدفين. رسمت مخيلتي له صورة إنسان أفنى عمره متذرعا بأساليب غير مشروعة تشبثا بفكرة سياسية مشروعة ولا غضاضة من الدفاع عنها، وهي أن اليابان ستكون أفضل من دون الإمبراطور. وهو موقف أسسه على تركيبة من الدوافع الوجدانية التي كانت

العملية الرهيبة (التي كان يقودها جنرال من أصهار الإمبراطور). ونُشرت شهادات شهود عيان لأحداث نانجينج بعد الأحداث مباشرة، وارتفعت صيحات الاستنكار والغضب من كل أنحاء العالم (وفي اليابان نفسها). ومع ذلك، وعلى نحو غريب، يُقدم إلينا ساكن القصر على أنه شخص لا يعرف شيئا عما حدث.

عشيةَ جنازة هيروهيتو الشديدة البرودة، نشرت صحيفة ماينيشي شيمبون Mainichi Shimbun قصة رجل يسمى أريستيدس جورج لازاروس Aristides George Lazarus، وهو ضابط متقاعد منذ مدة طويلة يقطن إحدى ضواحي نيويورك. حركت اللحظة ضمير لازاروس، الأمر الذي دفعه للتخفف مما يثقله بسرد هذه القصة لمراسلين في مكتب الصحيفة في مركز روكفلر. لم يكن في ذهنه موضوع كبير برؤية رسمية أو معارضة. كان لازاروس ضابطا بحريا ومدعيا عاما عسكريا ضمن الفريق القانوني في محاكمات جرائم الحرب في طوكيو التي أجريت فيما بين ١٩٤٦ و ١٩٤٨. يتذكر لازاروس أنه عندما بدأت المحاكمات، طلب منه أحد المسؤولين في حكومة الرئيس الأمريكي الأسبق ترومان أن يبذل محاولة خاصة مع الجنرال هيديكي توجو، رئيس الوزراء الشهير لهيروهيتو في وقت الحرب، يقابله في زنزانته في سجن سوجامو Sugamo في طوكيو، ويشرح له أهمية أن يَثبُت ارتكابه للجرائم التي سيرد ذكرها في محاكمته، وذلك من أجل إنقاذ هيروهيتو وإعادة بناء اليابان تحت ولايته. وفي ذلك كان لازاروس أنه قد أدى واجبه دون أن يغيب عن ذاكرته عدم ارتياحه لتلك الأوامر. وكما نعلم، عُلق توجو في حبل المشنقة، تنفيذا للتكليف الأخير الصادر إليه في خدمة الإمبراطور.

وضع المؤرخون، على مدى سنوات طويلة، المسؤولية على كاهل توجو. ثم جاء لازاروس ليفيدنا كشاهد عيان على هذا الأمر، ويروي لنا كيف وُضع هذا التطبيق. ولكن تلك القصاصة الصغيرة من أوراق التاريخ التي قدمها لازاروس، شأنها في ذلك شأن كثير من الأدلة المتعلقة بدور هيروهيتو في سنوات الحرب، مرت دون أن تحظى في الواقع بأي اهتمام.

وتلك عادة قديمة، ومن أمثلة ذلك: من بين الوثائق القليلة المهمة عن هيروهيتو التي نشرت قبل وفاته، مذكرات سوجي - ياما Sugiyama

القدماء كبار السن والمعلمون وأرامل ضحايا الحرب وبناتهم - شرعوا جميعا في عمل البحوث وجمع المذكرات وتسجيل الشهادات. وسرعان ما أصبحت القطرات سيلا جارفا.

وأهم هذه الوثائق قُدِّمت على لسان هيروهيتو نفسه. عند بدء الحرب، كان هيديناري تيراساكي Hidenari Terasaki ديبلوماسيا يابانيا في واشنطن، تدل جميع المظاهر على أنه كان ليبراليا شديد التعاطف مع الغرب. (وإن كان يبدو أنه كان جاسوسا بارعا، الأمر الذي يجعلنا نشك في جميع المظاهر). بعد الحرب كُلِّف تيراساكي بمساعدة هيروهيتو في التعامل مع الجنرال ماك آرثر. في تلك في الأثناء كتب تيراساكي مذكرات عرفت فيما بعد باسم المونولوج Monologue، وهي سجل للمحادثات التي دارت بين هيروهيتو وتيراساكي وأربعة آخرين من موظفي القصر.

ويعد **المونولوج** وثيقة متميزة. وإذ كان هيروهيتو في مستهل ١٩٤٦ منشغلا بهموم أن يعتبر مجرم حرب، فإنه جمع عددا من معاونيه لعمل بروفة للإجابات التي يمكن أن يرد بها على أسئلة ممثل الاتهام العسكري. واتخذت البروفة شكل توجيه أسئلة والإجابة عليها. وخلال خمس جلسات على مدى ثلاثة أسابيع، أجاب الإمبراطور على أسئلة تغطي العشرين عاما الأولى له على العرش. وحرر تيراساكي طبعة مختصرة لما حدث في هذه الجلسات وتركها لابنته عند وفاته العام ١٩٥١. نشرت الابنة ما تركه والدها بعد تسعة وثلاثين عاما من وفاته - على صفحات مجلة شهرية أولا، ثم بعد ذلك في كتاب يحتوي على مذكرات تيراساكي الشخصية.

تعمد هيروهيتو أن يقدم نفسه باعتباره ملكا دستوريا: أي رئيسا شرفيا للدولة ليس له إلا نفوذ محدود على الحكومة والجيش. ولكن كتاب **المونولوج** يقول شيئا مختلفا. فهذا هيروهيتو، الملك الإله المحارب، الذي يؤكد سلطته وإدارته للمؤسسة العسكرية. ها هنا الرجل في قلب اللعبة، ها هنا رجل صغير وضيع النفس متورط تماما في مؤامرة الحرب والسياسة. وفي المقدمة التي كتبها تيراساكي للمونولوج، لم يتخذ موقفا فيما يتعلق بإدانة هيروهيتو أو تحميله المسؤولية، وإنما اكتفى بترك الإمبراطور يعبر عن واقع حاله.

كان هيروهيتو سليل أباطرة الإصلاح، وإن بطريقته الخاصة. فقد كان حريصا على إيقاف تدهور سلطة الإمبراطور ووضع حد لحكم الأحزاب كما

الأغلبية العظمى من اليابانيين والقوات المتحالفة أيضا أن يُعفى الإمبراطور من تحمل نتائج تلك المسؤولية ليصبح رمزا للدستور الجديد. وفي رأيي أننا يجب أن نظل متمسكين بهذا الموقف.

أفصح موتوشيما عن ملاحظاته تلك بتواضع يوحي بأنها من قبيل النتائج التي تم التوصل إليها سلفا. والحق أن الأمر كان كذلك في نظر الكثيرين. وكل ما في الأمر هو أن موتوشيما نطق علنا بالحقيقة التي لا تقال جهرا. وتدفقت إلى بلدته الساحلية الجبلية حشود ممثلي الميديا الرئيسية يتساءلون عما دفعه إلى أن يبوح بهذا المنطوق. كما احتشد أعضاء عشرات الفرق والطوائف اليمينية المتطرفة تسد الشوارع والطرق، مطالبة إياه بالاعتذار واستنكار ما قال، والاستتابة من الخطأ في حق الإمبراطور الإله. ولم يلبث أن جاء المشهد الختامي بعد عام في شكل دنيوي خالص: حيث تمكن أحد المتطرفين اليمينيين من إصابته إصابة كادت تودي بحياته، برصاصة نفذت من رئتي العمدة المسن.

جاء حادث إطلاق النار على موتوشيما مؤشرا إلى أن اليابان ما تزال مكانا غير آمن - وأن قُوى يمينية تُبعث كامنة تحت السطح مباشرة. غير أن الأحداث الواقعية كشفت عن أشياء أخرى. إذ كان موتوشيما بعد خطبة المجلس مباشرة قد أصبح بطلا. ووصله أكثر من سبعة آلاف رسالة تؤيد وجهة نظره. وخلال بضعة شهور وقَّع حوالى أربعة آلاف من المواطنين على عرائض تدعم حقه في التعبير عن آرائه. ويمكن أن نحسن فهم حادث إطلاق الرصاص الذي أعقب ذلك كاندفاعة حنين لزمن مضى، كاستثناء يثبت قاعدة جديدة.

نشر موتوشيما الخطابات التي وصلته في وقت لاحق. وكانت في جملتها شهادة حية على المشوار الذي قطعه اليابانيون منذ أن كانوا يُجبَرون على عبادة الإمبراطور. كما كشفت هذه الخطابات عن صدع قاتل آخر في عملية تجميل صورة الإمبراطور. وكانت دلالة على ما يكنه لوبي طوكيو من احتقار لليابانيين العاديين، إذ تصور أعضاء اللوبي أنهم يستطيعون إعادة تعليب القائد الأعلى للقوات اليابانية وبيعه لرعاياه السابقين كرجل سلام ضعيف. الحق أن اللوبي بالغ في تقدير قدرته على استغفال الناس. ثبت أن عددا كبيرا جدا من الناس كان يعرف هيروهيتو واليابان التي خاضت الحرب على حقيقتهما، ولم تكن الرسائل التي كتبها عدد قليل منهم إلا نوعا من الجزاء أيضا.

والإمبراطورة إلى بيرل هاربور في ١٩٩١ بمناسبة الذكرى الخمسين للهجوم(*). وهكذا، فإن الدرس المستخلص من هذه الرحلات الثلاث ليس خافيا أيضا، وهو: أي محاولات لتجميل الصور والمظاهر لا يمكن أن تعوض عن كتابة صادقة للتاريخ.

* * *

إن عادة التفكير في الماضي كتسلسل لعصور أباطرة، تذوي بالتدريج، مثلها في ذلك مثل التأريخ وفقا لتقويم جنجو، فكلاهما إشهار للحالة اليابانوية، لأن كليهما يعتبر أن الإمبراطور هو الكائن الذي تتمحور حوله اليابانوية (أو حالة كون الناس يابانيين). وأكثر اليابانيين تحذلقا يعتبرون الانتقال من عهد إلى عهد نقطة مرجعية تاريخية. بعد أشهر قليلة من دفن هيروهيتو، دعت هاناي موري Hanae Mori إلى مأدبة عشاء بمناسبة مرور ٣٥ عاما لها كمصممة أزياء. كانت قد وصلت لتوها من مقرها الأساسي في باريس، وكانت تبدو كشأنها دائما رشيقة ومثيرة، وكانت تبدو فرنسية أكثر منها يابانية. ولكن كلماتها كانت مثيرة للدهشة، أعلنت لضيوفها: «لقدانتهى عصر شوا ـ آن الأوان لأن أعيد تقدير ذاتي».

كان من بين الحُجج التي تذرع بها الجنرال ماك آرثر لحماية الإمبراطور، تحذيره من «اضطرابات عنيفة في صفوف الأمة اليابانية» إذا أدين الإمبراطور كمجرم حرب، «إذا قضيتم عليه، فستتحلل الأمة اليابانية»، هذه كانت نصيحته لواشنطن. وتلك آراء موضع شك كبير، فربما لم تكن لتحدث أي اضطرابات، أو ربما كان اليابانيون يرحبون بمثل هذه الاضطرابات. ولكن المؤكد أن قرار واشنطن الإبقاء على الإمبراطور ومساندته قد ساعد على تأخير مولد الإحساس بضرورة التعددية وتوسيع مفهوم اليابانوية، لمدة لا تقل عن خمسة وأربعين عاما. هكذا، كان موت هيروهيتو بمنزلة انفراجة نفسية كبيرة لليابانيين، وهي انفراجة فيها مشابهات لتلك التي ولدها الاستسلام(**). إن تنوع الأفكار والانفتاح فيما يتعلق بالهوية الوطنية كلاهما غريب على اليابانيين،

(*) الهجوم الذي شنته اليابان لتدمير الأسطول الأمريكي هناك، وبدء حرب الباسيفيك (المترجم).

(**) المقصود استسلام الجهاز العسكري الياباني إثر هزيمته في الحرب العالمية الثانية (المترجم).

إلا بضع ساعات، اللذين كانا قد سبقا لقضاء نهاية الأسبوع في كيوتو - جوشو (القصرالإمبراطوري القديم). في اليوم السابق كانت قد انفجرت قنبلة، (تحية ومجاملة من عصبة القلب المركزي) هادمة جانبا من جسر الطريق الذي سيسير فيه موكب السيارات الإمبراطورية. ولكن الإمبراطور والإمبراطورة وصلا بسلام. وفي كيوتو - التي كانت مقرا للأسلاف الكثيرين الغامضين المسلوبي السلطة للإمبراطور أكيهيتو - كان من المقرر أن تُجرى آخر المراسم التي بانتهائها تكون عملية الانتقال الإمبراطوري قد اكتملت.

في الصباح التالي، وكان يوم أحد خريفيا شديد البرودة، كان تلفزيون كيوتو منشغلا بإذاعة عروض كلامية لتغطية أحداث صعود أول ياباني إلى الفضاء الخارجي، وهو مراسل لإحدى محطات البث، دفعت شبكته مبلغ ١٢مليون دولار للروس مقابل مقعد في مهمة فضائية علمية. وعند الظهيرة ذهبت إلى القصر في سيارة أجرة، لأجد نفسي وحدي، حيث لم يكن ثمة إلا قوات أمن وحراسة عند مدخل القصر. وفي فندق بالاس سايد، القائم عند الحدود الغربية للحدائق المحيطة بالقصر، سألت الاستعلامات عن الطريق الذي سيسلكه الإمبراطور، فلم يكن هناك من يعرف. وعند الغداء، سألت طالبين يجلسان إلى المائدة المجاورة، فهزا أكتافهما بلا مبالاة. انصرف أحدهما ثم عاد ليقول: «الطريق المقابل».

فسألت: «الطريق الشرقي؟»

انصرف ثم عاد ثانية ليقول: «لا، الطريق الجنوبي!»

وبعد الثانية مساء بقليل، بدأت الشرطة تشد حبلا سميكا من النايلون بين أعمدة الإضاءة على الطريق الجنوبي. وعلى مدى الساعة التالية تكاثر الناس الذين تجمعوا إلى أن شكلوا صفين أو ثلاثة ليصل مجموعهم ربما إلى ألف شخص. اعتنت الشرطة بتنظيمنا كما يعتني الراعي بقطيعه، لكي ينشروا الصفوف بنظام على طول الحبل الحاجز. ثم توقفت حركة المرور، وفي الساعة ٣,٢٥، أي بعد خمس وعشرين دقيقة من الموعد الرسمي، مرت السيارة الملكية، وهي ليموزين سوداء يابانية الصنع تحمل الإمبراطور والإمبراطورة، وتسير بسرعة لطيفة.

٩ الحلم المُبْتَسر

> نحن غارقون حتى العنق في الثقافة الغربية، ولكننا غرسنا بذرة ضئيلة. وبمثل ما تضرب البذرة بجذورها في الأرض وتنمو، فإننا نشرع في إعادة خلق أنفسنا.
>
> **كنزابورو أو**
> في المحادثة، ١٩٩٣.

يسكن يوشيرو كاتو Uoshiro Kato محاطا، هو وزوجته كازوكو Kazuko، بلوحاته أعلى بناية ذات ثلاثة طوابق، فوق السطوح، في منطقة شبه مهجورة من بروكلين. تقع البناية في مواجهة صف من أرصفة الشحن المهجورة، وأفق ترتسم عليه الظلال الداكنة لأبنية مانهاتن الساحلية. وهو رجل نحيل، ذو وجه متغضن متوتر الملامح وشعر أشيب يتدلى إلى كتفيه. وفي منتصف جمجمته بقعة صلعاء مستديرة. وبالمعايير التقليدية، يتملك كاتو نوعٌ من الخيال الدنس.

كان كاتو في ستينيات القرن العشرين، على رأس جماعة عُرفت بإقامة ما كانوا يسمونه «الاحتفاليات»، وهو ما كان يُعرف في اللغة الدارجة الأمريكية حينذاك بـ «التقاليع الفاضحة». كان أعضاء الجماعة يرتدون بدلا زرقاء مما يلبسه رجال الساراري، وأقنعة بلا عيون أو ملامح معبرة، مثل وجوه التماثيل الإغريقية. في واحدة من تلك التقاليع الفاضحة كان أعضاء الجماعة يجثون عندمدخل مزدحم

قال كاتو: «لم يعد لليابانيين أعماق لا شعورية، لا قلب، ولا عقل، لم يبق إلا الظاهر. لم يبق إلا الشكل الخارجي».

قد يبدو عجيبا أن أبدأ هذا الفصل عن الثقافة اليابانية من فوق سطوح بيت في بروكلين، وحكاية عن فنان كُتب عليه أن يظل غير معترف به، (سواء أكان هذا ما يستحقه أم لا)، لأن مفعول الصدمات التي كانت تحدثها عروضه الفاضحة انتهى منذ سنوات عدة. غير أن اليابان قدمت كثيرا من الفنانين الذين عاشوا في المنفى منذ ١٨٦٨. وعندما سألت كاتو عن سبب مجيئه إلى أمريكا، أجاب: «لا يستطيع الناس أن يكتشفوا حقيقة هويتهم وهم يمعنون النظر في الآخرين وليس في أنفسهم، ولا تستطيع أن ترى نفسك وأنت في اليابان».

* * *

قد يبدو أن رؤية المرء نفسه مهمة بسيطة، ولكن تلك كانت أكبر هموم الإبداع الفني طيلة العصر الحديث. هكذا كان الأمر مع كل المثيرات الأخرى في عصر الميجي: في التعليم والسياسة والعادات الاجتماعية لبلد يحاول تحديث نفسه. ولكن لا توجد معايير مقبولة، ولو ظاهريا، يمكن الرجوع إليها لقياس مدى نجاح المرء في رؤية نفسه، التي ما كانت تستطيع أن تنتج مؤسسات أسيء اقتباسها، أو نوايا أسيء توجيهها، كما حدث مثلا في التعليم والسياسة. أما الفن والأدب فقد كانا بحاجة إلى ثورة أصيلة، فأى شيء دون ذلك لا يصلح. كان على الكُتَّاب والفنانين أن يستكشفوا الاستقلالية التي يتطلع إليها ويلمحها الناس العاديون دون أن يتمكنوا منها. فإن لم يتمكن الأدباء والفنانون من ذلك، فإنهم لن يكونوا أدباء أو فنانين، ولن يكون إنتاجهم إلا افتعالا وتزييفا. وتلك حالٌ ما تزال معالمها واضحة حتى يومنا هذا، فأن يرى الإنسان نفسه ما تزال مهمة لم تتحق حتى الآن، إلا نادرا. لنُلقِ نظرة على اللوحات والتماثيل والأفلام التي ينتجها اليابانيون: كم هي تنويعات على الأنماط والموضات الغربية، مفرغة من أي رؤية ملهمة، ولا حياة فيها، مثلها في ذلك مثل الأشعار التي كان ينتجها المثقفون المقلِّدون لكل ما هو صيني في القرون الخالية.

في ١٨٧٦، استعانت طوكيو بفنان أكاديمي إيطالي اسمه أنطونيو فونتانيزي Antonio Fontanesi، ليقوم بتدريس التصوير الزيتي للدفعة الأولى من المصورين

ثقافة شعبية مفعمة بالحيوية قد بدأت تنمو وتتطور، من النوع المألوف لدينا اليوم في أعمال الطباعة التي أبدعها يوتامارو وهيروشيجي وهوكوساي. أما طباعة الكتل الخشبية والمسرح الشعبي المُستمد من وقائع الحياة اليومية، فإنها كانت جزءا من التقاليد الصغرى، لا من التقاليد الكبرى. وكانت حفلات الشاي وغيرها من فنون الساموراي هي الأنماط الأساسية، ولا يُطلب فيها من المرء إلا إتقان الحركات التي كانت تؤدى في الماضي. كان فن التصوير يعني الالتحاق بمدرسة معينة، والتعلم من السيد الأستاذ كيف يعيد الفنان إنتاج المناظر المأخوذة من التقاليد الصينية. والشيء نفسه يسري على الشعر، فالقصيد الكامل من نمط هايكو haiku، المكون من ١٧ مقطعا في بحر من السكون، كان أشبه برسم تجريدي مطرز في كيمونو حريري فاخر. والعناصر الأساسية لمسرح «نوه» هي الوجوه المقنعة، والبلاغة الطنانة، والحركات المرسومة التي يكاد يعجز عن تأديتها البشر. وترجع أصول الرواية اليابانية إلى القرن الحادي عشر، حيث كانت حكاية **جنجي (جنجي مونوجاتاري Genji Monogatari)** هي أول رواية في العالم. ولكن شخصيات سرد ما جرى (وذلك من مرادفات عنوان العمل نفسه) كانت شخصيات مسطحة، مشكَّلة من عروض لأعراف مستعادة، ولا توجد حبكة. والناقد كوجين كارتاني على حق إذ يقول: «**إن مونوجاتاري نمط يُقلد ويتكرر، لا أكثر ولا أقل**».

ولولا أن هذه الأعراف امتدت بها الحياة زمانا أكثر مما يجب، لكان بينها وبين غيرها من فنون ما قبل العصر الحديث مشابهات كثيرة. فهي لا تعكس أي وجهة نظر، ولا تعبر عن أي تجربة فردية ذات فاعلية أو قدرة على التغيير. وبمصطلحات الفنون التشكيلية، إنها تفتقد البعد الثالث، أو المنظور، وليس المقصود بالمنظور هنا نوعا من مهارة الرسامين أو أسلوبا من أساليب التصميم، وإنما المنظور باعتباره عملية استكشاف سيكولوجية. إن تصويرا بالفرشاة والحبر ليس إلا تشخيصا تسطيحيا، إنه فكرة عن الشيء، أكثر من كونه معالجة تشخيصية للشيء. إنه لا يقول ضمنيا: «أنا أقف هنا، وهذا ما أراه»، فالفنان لا يعنيه أين يكون، فهو مجرد ناسخ، فهو قد يرسم أوزة في الثلج، ثم يُكرَّم ويحصل على جوائز لتميُّزه وإتقانه، دون أن يكون قد رأى أوزة في حياته. ومثل هذه الأعمال لا تفتقر فحسب إلى المنظور والرؤية، وإنما يغيب عن صانعها أيضا العالم من حوله كإطار مرجعي.

عالمهم على أنفسهم. كان فينولوزا مستشرقا بكل معنى الكلمة، وهو الذي قام - فيما بعد - ببناء ورعاية مجموعة الأعمال الفنية اليابانية الشهيرة في متحف بوسطن. وظل يدعو إلى فكرة أن تواصل اليابان سيرها إلى الأمام ببوصة الحبر والحرير.

تمكن فينولوزا من أن يجعل الفن الياباني يعي ذاته. لم يظهر مصطلح «نيهون - جا Nihon-ga» (فن التصوير الياباني) إلا بعد وصول التأثيرات الغربية. وإذ جمع فينولوزا الفن التقليدي الياباني بتقنيات غربية مختارة بحذر، فإن الثمرة الناتجة كانت هزيلة، وهي التي أطلق عليها اسم «التصوير الياباني الجديد». وإذ كان هذا الأسلوب غير معروف خارج اليابان، فإن ذلك يرجع إلى أنه وُلد ميتا. كان غير متجاوب مع المحيط والموضوع بعيدا عن الإيحاء بأي نفحة إبداع. وعلى كل حال، لم يفضِ «التصوير الياباني الجديد» إلى شيء، إذ سرعان ما تكفل القوميون المُتشددون الرجعيون بتنحيته، حيث تملكهم الذعر من أن يفقد اليابانيون الصلة بعالمهم الروحي وبالروح القومية اليابانية (الكوكوتاي). لم تختف التأثيرات الغربية أبدا، ولكن الفنانين الذين أقدموا على استكشافها تم إقصاؤهم كمعارضين للثقافة «الرسمية» على امتداد العصر الحديث كله أو معظمه. لم يكن القوميون المتشددون ليعرفوا الطريق الوسط. فالفن والثقافة يجب أن يسايرا الأيديولوجيا، وكلها أدوات في يد الدولة.

كانت ردة الفعل ضد الثقافة الغربية نتيجة استفزاز، وإن بقدر. كان كُتّاب عصر الميجي وفنانوه قد وخزوا كبرياء القوميين، ووقعوا في واحدة من أكبر أخطاء عصرهم، حين ذهبوا إلى أن كل ما جاء به الغرب أرقى مما كان في اليابان. ولو أن هذه الفكرة لقيت قبولا لألقى اليابانيون كل التراث الماضي باعتباره غير صالح، ولأصبحت الثقافة مستوردة أيضا. ولكن تبني النهج الموضوعي لـ «فلوبير» أو «زولا» لا يجعل من المرء كاتبا (أو فنانا) واقعيا أو طبيعيا. وتبينت قلة من الفنانين أن ما كانوا يبحثون عنه في الطبيعة والبورتريه والحبكة والشخصية، لم يكن إلا أنفسهم. لقد فاتهم استيعاب الدرس الأساسي الذي يقدمه الغرب، ألا وهو أن الهدف الأخير لكل المعارف هو: الرفض الخلّاق.

يُعتبر الفن القصصي منظارا جيدا نستطيع من خلاله أن نتبين معالم التطور الثقافي في العصر الحديث، ذلك أن سرد الوقائع القصصية يكشف

بين فضيلة التفرد ورذيلة الأنانية، وهو خلط ياباني شائع. ويتلخص كل ما قاله سوسكي في أن كل هذا نتيجة تقليد الغرب تقليدا أعمى بلا تفكير. قدم سوسكي معظم أفكاره في رواية **بوتشان**، ولكنه لم يعبر إلا قليلا عن الأسى الشبيه بأسى مهرج السيرك، وهو الأسى الذي سيعبر عنه في رواية **كوكورو**، وهي روايته قبل الأخيرة والتي ربما تكون أفضل ما كَتَب. تتحدث **كوكورو** عن طالب بسيط ورجل حكيم يُعرَّف في الرواية بأنه الأستاذ (سنساي). وعلى الرغم من ارتباط الأستاذ بالماضي، إلا أن الحياة في طوكيو أتاحت له أن يتخلى عن القيم القروية القديمة. وكان الأستاذ، مثله مثل بوتشان، لا يثق في سائر اليابانيين المشوشين، ويعتبر نفسه أرقى. ولكنه أيضا يخلط بين فضيلة التفرد ورذيلة الأنانية، وكان هذا الخطأ سببا في عزلته المأساوية.

التقى الطالب بالأستاذ للمرة الأولى في منتجع صيفي، حيث كان «أديم البحر في معظم الأيام تغطيه كثرة من الرؤوس السوداء، مثل حمام عام». يتذكر الطالب أنه تبع الأستاذ ذات يوم في الماء:

وسبحت خلفه. وعندما ابتعدنا أكثر من مائتي ياردة، استدار الأستاذ وكلمني. كان البحر يمتد من حولنا، ويبدو أن لم يكن ثمة أحد قريب منا. وعلى امتداد البصر، كانت أشعة الشمس القوية تسطع على الماء والجبال. وشعرت كما لو كان جسدي قد امتلأ بالفرح والحرية، وطفقت أضرب صفحة البحر باندفاع وعنف. توقف الأستاذ عن الحركة، وطفا على ظهره بسكون، فلم ألبث أن فعلت مثله. واصطدمت زرقة السماء الباهرة بوجهي، وشعرت كما لو أن نقاطا مشعة تنصب في عيني. وصحت: «ما أروع هذا!».

وبعد قليل ، اعتدل سنساي في الماء، وقال: «هل نرجع؟»

ثمة مشكلة مهمة طُرحت فيما وراء هذا الوصف الذي يبدو ظاهره بسيطا. كان الأستاذ قد اصطحب الطالب بعيدا عن جمهرة الرؤوس الداكنة الطافية، إلى مكان يمكن أن يكون فيه المرء وحده. ويلج الطالب بشغف عالما من المشاعر والأحاسيس النقية الخالصة، حيث لا توجد علاقات مع الآخرين، وإنما أشخاص متفردون. وبالنسبة للطالب، كما بالنسبة للمصورين المحدثين الأوائل، كانت الرؤية والمشاعر هي المدخل العريض للإحساس بالذات. وهو لا يفهم هذا، لأنه يشرع في تقليد الأستاذ عند أول فرصة تسنح.

الموضوعات: الهندسة المعمارية، الحمامات، المستشفيات، الفنادق، الأسنان، الصابون، اللاكيه، الذهب، والنساء (طبعا):

نحن الشرقيين، ننشد القناعة في كل ما يحيطنا، أيا كان، والرضا بالأشياء كما هي؛ ومن ثم فإننا لا نضيق بالظلمة...، ولكن الغربيين مصممون دائما على تحسين أحوالهم: من الشمعة إلى مصباح الزيت، ومن مصباح الزيت إلى فانوس الغاز، ومن فانوس الغاز إلى المصباح الكهربائي. وسعْيُ الغربيين إلى مزيد من الإضاءة الباهرة لا يتوقف قط، وهم يبذلون أقصى الجهد للقضاء على أشد الظلال خفوتا.

ثم ينتقل تانيزاكي إلى التعليق بأسلوب فظ على لون البشرة.

منذ العصور القديمة، نعتبر أن البشرة البيضاء أكثر جمالا، وبهاء من البشرة الداكنة، ومع ذلك، فإن بياض البشرة عندنا يختلف عن نظيره عند الأجناس البيضاء. صحيح أن ثمة أفرادا من بين اليابانيين بشرتهم أكثر بياضا من الغربيين، كما أن من بين الغربيين أفرادا بشرتهم أكثر سُمرة من اليابانيين... ولكن سُمرتهم وبياضهم يختلفان... ذلك أن البشرة اليابانية، أيا كانت درجة بياضها، يشوبها شيء من الإعتام... ولكن بشرة الغربيين، حتى الأقل بياضا، يعد بياضا مجلوا رائقا. هكذا، إذا ظهر أحدنا وسط جمع من الغربيين، فإنه يبدو بقعة كالحة على صفحة بيضاء، ومن ثم نستطيع أن نرى كم هي عميقة العلاقة بين الظلال والأجناس الصفراء.

من الصعب أن نقرأ أعمال تانيزاكي دون أن نصل إلى نتيجة، هي أنه، في التحليل الأخير، سائح في بلده. وبمثل ما كان الغرب الذي يتصوره، غرب الشمبانيا والفراك وملابس السهرة العصرية، كانت اليابان في ذهنه نوعا من الخيال. ومن بين أكثر الفقرات مدعاة للدهشة في كتاب في **تمجيد الظلال**، ما ورد بخصوص إشارات المرور ومفارق الطرق المزدحمة:

بدا ليَ كأن مجيء شرطة المرور إلى كيوتو هو نهاية كل شيء. والآن على المرء أن ينتقل إلى مدن صغيرة مثل نيشينوميا أو ساكاي أو واكاياما، أو فوكوياما، ليشعر باليابان.

أليست هذه جولة سياحية استشراقية شاملة؟ إن انسحاب تانيزاكي من العالم الذي حوله مجدول في نسيج كل صفحة من صفحات كتابه. كثيرا ما وُجّه إليه النقد بسبب أن شخصياته ليست لها أعماق، ولكن غياب هذه الأعماق الداخلية ليس مُستغربا. وكما نبه الناقد كوجين كاراتاني: «تحتوي

صغير ولكنه مُكوِّن جوهري في مجموع أعماله ـ في طوكيو، ولكن المدينة تبدو كأنها غارقة في ضباب كثيف، على البُعد. العزلة والبُعد يتخللان كل كتابات كاواباتا. وفي مسودة مبكرة لسيرة ذاتية يقول كاواباتا إن الحب هو حبل إنقاذه. ويستطرد: «ولكنني أحس أنني لم آخذ بين يديَّ يديّ أنثى بدافع رومانسي قط... وليست هي الأنثى فقط التي لم آخذها بين يديّ، وإني لأتساءل إن كان هذا يسري أيضا على حياتي نفسها».

أكسبت السلبية كاواباتا إعجابا فائقا بالـ «بيتاي bitai»، أوالفرحة التي لا تكتمل، وهو موضوع يتكرر كثيرا في التقاليد الجمالية لليابان. كان الحب هو حبل نجاته، ولكنه لم يحب قط. كان غارقا في الحنين، ربما لأن الحنين من الأمور التي لا يمكن إشباعها أبدا. وفي الفن، كما في الحياة، كان كاواباتا شديد الافتتان بالعذراوات الصغيرات. وتدور أحداث روايته الصغيرة **بيت الجميلات النائمات House of the Sleeing Beauties**، الصادرة في ١٩٦٠، حول رجل مسن يتردد على بيت من بيوت المتعة، المفارقة الكبيرة فيه، هي أن فتياته عذراوات، محظور على الزائر أن يلمسهن. وكما لاحظ ميشيما في عبارة إعجاب بأستاذ شبابه: «العذراء تفقد عذريتها مرة واحدة، ومن ثم فإن استحالة نيلها استهلال ضروري...».

أوحت المحاولات الأولى لميشيما أنه ربما يسير في خُطا كاواباتا نفسه وينهج دروب السلبية والتباعد. فشخصيات هذه الأعمال شخصيات مرهفة، متباعدة، محبة للجمال، رغباتها مراوغة ونفسياتها خفية. ولكن ميشيما لم يلبث، وهو مايزال في العشرينيات من عمره، أن تخلى عن فكرة للحياة كتجربة معصومة لا تتأثر، كتومة لا تبوح، وتلك النقلة أسماها فيما بعد العودة من الظلام إلى التوجه نحو عبادة الشمس مدى الحياة. ومن ثم تغيير إنتاجه تغييرا جذريا. تدور أحداث رواية **صوت الموج The Sound of Waves**، في قرية صيادين بعيدة، بمنأى عن العالم الحديث، وهي مأخوذة من التأويل الروائي للكاتب الأمريكي هيمنجواي للأسطورة الإغريقية **Daphnis and Chloe**. ثم صدرت له في ١٩٥٦ رواية **معبد الرواق الذهبي The Temple of the Golden pavilion**، وهي رسالة رائعة عن الإبداع والتدمير، عن جمال الماضي وحرية الأحياء. وفي الوقت الذي نشر ميشيما هذه الرواية، كان مشتبكا في معركته الخاصة بين التبجيل والخلق؛ وفي وقت لاحق، وصف

وهي كثيرة: قال في حديث له مع روائي آخر: «إنني أعتلي المسرح وأنا عازم على دفع المتفرجين إلى البكاء». ويستطرد: «ولكنهم ينفجرون في الضحك».

في رواية كاواباتا **بيت الجميلات النائمات**، تعود الذاكرة بأفكار الشخصية الرئيسة، مرات عدة، لآخرين ممن يترددون على الفتيات العذراوات؟ ويتساءل: «هل يمكن أن يكون حنين المسنين المبتئسين إلى الحلم المُبتسر... مُخبأ في سر هذا البيت؟» ولكن، ما هو الحلم المُبتسر؟ يجيب كاواباتا عن هذا السؤال في السياق الجذاب نفسه لهذه الجملة قائلا: «إنه الحزن على الأيام التي ضاعت دون أن نعيشها».

مات ذلك الحلم، الحلم بالماضي كحماية من الحاضر، مات بموت ميشيما وكاواباتا. لن يكتب أحد ـ بعد ذلك أبدا ـ مثلما كتبا. ولكن ماذا عن الحلم المُبتسر الآخر: حلم وضوح الرؤية، وتصويراليابان كما هي، بماضيها الصامت وحاضرها المتنافر النغمات؟ كان الإخفاق في التعامل مع هذا الموضوع هو السبب في أن أكثر الروائيين اليابانيين موهبة، لم يكونوا بالضرورة أفضلهم.

* * *

توجد صورة فوتوغرافية التقطت في الخمسينيات، لفنان ياباني يرمي قناني الألوان على قماش مفروش على الأرض فوق سطوح مبنى في طوكيو. القناني تتحطم والألوان (تطرطش)، ويتشكل تكوين تجريدي. وثمة صورة أخرى، التقطت في الوقت نفسه، لفنان ينشر ألوان الزيت على قماش غير مشدود بقدميه. عن أي شيء تعبر هذه الصور؟ هل هو فن «التصوير بالحركة» action painting الياباني؟ وهي التسمية التي أطلقتها نيويورك ـ حينذاك ـ على مثل تلك الأشياء، أم لعلنا نكون أكثر إنصافا إذا قلنا إن ذلك كان تعبيرا عن أن اليابانيين كانوا لم يتعلموا بعد كيف يرون الأمور بعيونهم ولأنفسهم، أو أنهم كانوا ما يزالون يطلبون من الآخرين أن يشربوا خمرهم ويتذوقوها لهم؟

في كتابه **تاريخ الثقافة في يابان ما بعد الحرب A Cultural History of Postwar Japan**، يعرض الباحث شونسوكي تسورومي Shunsuke Tsurumi صورة أخرى. وعلى الرغم من أن الصورة تبدو كأن لا شيء فيها يلفت النظر، وأنها مجرد لقطة عفوية، فإنها تنبئنا، بشيء أكثر أهمية عن المناخ الذي كان يعمل فيه الفنانون بعد الحرب. في الصورة رجل وامرأة يعبران أحد شوارع

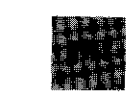

وغيرها. ولكن جوًا من الأسى ظل معلقا فوق مثل هذه المواقع. الثقافة هي ما يملكه الآخرون، ويستطيع المرء أن يراها بعد دفع ثمن تذكرة الدخول.

في بيئة ما بعد الحرب، شهد الإنتاج الفني انطلاقة متميزة. كان المصورون والكتاب والسينمائيون والمعماريون ما يزالون يبحثون عن فن أصيل من إبداعهم، وكانت طلائع ما قبل الحرب قد خلّفت سجلا نضاليا شاقا باعتبارها نوعا من المعارضة الثقافية الدائمة، ولكن ما أبدعته من فن صادق وأصيل لم يكن إلا قليلا. وأراد طلائع ما بعد الحرب أن يصوروا على قماش خام، ويكتبوا على صفحات بيضاء. واستحث المنظرون الفنانين أن «يبدعوا ما لم يسبقهم إليه أحد من قبل» وإذ رُفعت اليد الأيديولوجية الثقيلة، أرادوا أيضا تجنب خطأ ما قبل الحرب في الخلط بين ما هو «ياباني» بما هوي «يابانوي» Japanist.

ولكن الفنانين، شأنهم في ذلك شأن منتجي الثقافة الشعبية ومستهلكيها، تجاهلوا الخطر المقابل، خطر اعتبار أن كل ما هو ياباني ليس إلا يابانويا Japanist، ومن ثم نبذها جميعا. وهذا ما حدث غالبا، حسبما يدل عليه إنتاج كثير من فناني ما بعد الحرب، الفاقد للاتجاه، النادر الجودة. قل سفر الفنانين إلى باريس، بينما تزايد سفرهم إلى نيويورك، التي أصبحت هي العاصمة الفنية الجديدة للعالم، ولكن سرعان ما عادت المشكلات المألوفة إلى الظهور. تشابه التصوير بالحركة في طوكيو مع نظيره في مانهاتن، كما في استوديوهات شرقي لونج أيلاند. ولاعجب أن أصبح فن ما بعد الحرب شديد التشتت. عالج الفنانون مشكلات الأوروبيين والأمريكيين من غير أن يسبق لهم السير في الدروب التي أفضت إلى تلك المشكلات، فجاءت أعمالهم إما فاقدة للاتجاه، وإما مشتتة في اتجاهات بلا حصر، في الوقت نفسه، أو من زاوية رؤيتنا اليوم، من الصعب أن نقول أيهما.

في ١٩٩٤، أقيم معرض كبير للفن الياباني، لفترة ما بعد الحرب، في يوكوهاما أولا، وانتقل بعد ذلك إلى نيويورك وسان فرنسيسكو. وكان الاهتمام الذي أثاره هذا المعرض، وإن جزئيا، يرجع إلى ما لاقاه من فشل، فالمعروضات مستعارة ومأخوذة عن الآخر ولا تعبر بأصالة عن الذات. وإن كان يمكن أن نستشعر في الألوان والقماش والخشب والمعدن ملامح محاولة الوصول إلى رؤية واضحة وأصيلة. ومع ذلك فمن المستحيل أن نستنتج ـ كما فعل بعض

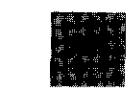

لو أن أوكاموتو كتب مقال «ما هي التقاليد؟» بعد ذلك بربع قرن، لما فقد المقال قيمته كإضافة للفكر الياباني في سعي اليابان للوعي بذاتها. وهو في هذا المقال لم يعالج مشكلة التقاليد لفترة ما قبل الحرب فحسب ـ «صَدَفَة الماضي الثقيلة» كما أسماها ـ ولكنه عالج المشكلة في فترة ما بعد الحرب أيضا: مشكلة نبذ كل التقاليد. ولكن اهتمامات أوكاموتو كانت تتجاوز الفن، لتتأمل وضعية الذات بين الماضي والحاضر، وبين المحلي والأجنبي. وما كان هذا ليشق على قوم كانوا قد ألفوا أن يستعيروا من الخارج منذ القرن السادس، كما ألفوا تحويل ما يستعيرون. ولكن أوكاموتو لم تفُتْه ملاحظة سمة مهمة لفترة ما بعد الحرب، عندما سجل فقدان اليابانيين الثقة في أنفسهم منذئذ.

وكمصور، استهلم أوكاموتو الأعمال الفخارية لعصور ما قبل التاريخ، ربما على النحو الذي استلهم به بيكاسو الأقنعة الأفريقية قبل أن يصور لوحة فتيات أفينيون Les Demoiselles d'Avignon. ولكن إذا كان من بين مهام الفن قطع حبل الأفكار المسلم بها من الماضي (مع تصوير حقائق يابان مع بعد الحرب)، فإنه أصر على أن يتم هذا بأسلوب مجاف للقواعد الجمالية، بل وبأسلوب قبيح. كذلك أحب أوكاموتو قاعات لعبة الكرة والدبابيس pinball parlours. كان ناقدا أكثر منه فنانا، ولكن ثمة أمثلة مؤثرة من أفكاره وُضعت في التطبيق. ومن بين أكثرها وضوحا وأقربها إلى الفهم، ما فعلته مدرسة سوجيتسو Sogetsu لفن الإيكيبانا ikebana، الذي جعل من تنسيق الزهور نوعا من الفن «الحي النابض».

أُسست مدرسة سوجيتسو في ١٩٢٧ على يدي سوفو تشيجاهارا Sofu Teshigahara، الأستاذ في فن تنسيق الزهور. كانت مشكلة سوفو من نوع مشكلات الآخرين أنفسهم: حيث أراد أن يجعل من تنسيق الزهور فنا يتسع لفن العمارة الغربي. ومن هذا المنطلق برزت مدرسة سوجيتسو وأثبتت حضورا قويا في خمسينيات القرن العشرين. وهذه حقيقة ما تزال واضحة حتى الآن في أعمال هيروشي Hiroshi ـ ابن سوفو ـ الذي آلت إليه إدارة مدرسة سوجيتسو في ١٩٨٠. وكان هيروشي قد بدأ مصورا، شديد التأثر بآراء وأعمال تارو أوكاموتو، ليصبح بعد ذلك مخرجا سينمائيا حقق شهرة عالمية، ليعود مرة أخرى إلى فن الإيكيبانا.

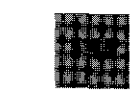

كـأس الماء، والرُّمـان والصنوبر والكمـثـرى الصـينيـة. ولكن الصلة بين مدرسةسوجيتسو إيكيبانا وأعظم الأدباء اليابانيين بعد الحرب جاءت من خلال أوكاموتو، وهذه الصلة تتضح في أوضح تعبير، في الفترة التالية المأخوذة أيضا عن مقال «ما هي التقاليد؟»

إن المهمة العاجلة للفن المعاصر هي الجمع بين ما هو كوكبي وما هو محلي؛ أي أن نفهم الخاص برؤية عالمية، وأن نصل إلى الرؤى والمفاهيم العالمية القائمة على الخصوصيات المحلية.

وهكذا صاغ أوكاموتو، في أبسط عبارة وأشدها تركيزا، كيف يمكن إبداع ثقافة أصيلة. ودَحَض كما لم يحدث من قبل، الفكرة العنيدة المتخلفة التي ترى أن الثقافة شيء يمكن أن يستورده الوكلاء من الخارج، أو أن يتخيره البيروقراطيون من مخلفات الماضي المحلي، ثم تُرَوَّج في طول البلاد وعرضها كأنها معونة أرز توزع بعد انهيار المحصول. إنما مهمة الثقافة هي اكتشاف الدهشة فيما هو مألوف، والتعبير عنها، والإضافة إلى فنون العالم وآدابه تأتي من خلال «استيعاب معاناة الحياة اليومية ومباهجها» كما نحسها في قرى الأسلاف العتيقة، والأحياء الفقيرة في المدن، وعمارات الشقق السكنية المكتظة في الضواحي.

وكان كوبو آبي Kobo Abe وكنزابورو أو Kenzaburo Oe، هما أفضل الروائيين تعبيرا عن هذا التوجه. كان كل منهما أبعد ما يكون شبها بالآخر، أو على الأقل هذا هو الظاهر. قال لي آبي ذات مرة: «أنا لا أميل إلى المحلية كأسلوب في السرد الروائي.. وليس من الضروري أن يكتب المرء عن اليابان تحديدا». كانت اليابان في كتابات آبي، مثلها مثل أيرلندا في كتابات بيكيت، وبراغ في كتابات كافكا، لها حضور في كل ثنايا العمل، غير أن الكاتب لا يتوقف لتوصيفها في أي موضع. ولكن تفكير «أو» على العكس تماما، فمن مستهل روايته الأولى الشهيرة: **المصيدة The Catch**، الصادرة العام ١٩٥٨، يؤكد «كنزابورو أو» على خصوصية كل ما كتب، وعمق جذوره في أرضه:

كان موسم الأمطار الطويل سببا في دفع أهالي قريتنا إلى حرق جثث موتاهم خارج أبواب دورهم... انهارت التربة وحطمت الكوبري المعلق، وهو أقصر طريق إلى البلدة المجاورة، وأغلقت فصول قريتنا الملحقة بالمدرسة الابتدائية، وتوقف وصول البريد، وعندما كان يضطر الكبار إلى الذهاب للبلدة، فإنهم كانوا يسيرون متعثرين في الدرب الجبلي الضيق الوعر. كان من المستحيل نقل جثث الموتى إلى محرقة البلدة.

ومن الإنصاف أن نقول، إن أيا منهما لم يكن من بين الأساتذة الكبار في الأسلوب، مثلما كان مشاهير الروائيين اليابانيين. غير أن اليابان التي كتب عنها كوبو آبي وكنزابورو أو، لم تكن من صنع الخيال، كما لم تكن تائهة، وإنما هي اليابان كما هي فحسب، أو كما عبر عنها «أو» فيما بعد بشكل مباشر، قدم الكاتبان: «عهدا معاصرا شاملا ونموذجا بشريا عاش هذا الزمان». تمكن الكاتبان مع آخرين من جيلهما من جعل الفن الياباني متعاصرا مع الغرب (وذلك تعبير أثير لدى مصوري ما بعد الحرب). وإذا استعرنا شيئا من أقوال يوشيرو كاتو، القاطن فوق سطوح أحد منازل بروكلين، لقلنا إنهم «تمكنوا من رؤية أنفسهم»، ومن ثم أمكنهم أن يبدعوا شيئا له قيمة عالمية.

ينبغي، على نحو ما، أن تنتهي الحكاية هنا، عند اللحظة التي تمكن فيها الفنانون اليابانيون من حل الطلاسم، وتجاوز التعقيدات، وتعلموا أن يروا لأنفسهم، إلا أن هذه لم تكن النهاية. ذلك أن لحظة تألق تشيجاهارا وكوبو آبي وكنزابورو أو، كما فهمنا من زوايا رؤية أخرى، لم تكن إلا لحظة، مجرد وميض يلمع قبل عودة الظلام.

عندما حصل كنزابورا أو على جائزة نوبل للأدب العام ١٩٩٤، دخل في روع العالم أنه توصل أخيرا إلى رؤية اليابان واليابانيين كما هم في الحقيقة. كان من المنعش أن يرى الناس ترجمات جديدة لرواياته، وطبعات جديدة لأعماله. ولكن، في وطنه، كان الأمر مختلفا، فقد كشفت جائزة نوبل - أكثر من أي شيء آخر- الهوة التي كانت قد تعاظمت بين جيله وبقية اليابان. ففي الوقت الذي كان كنزابورو أو في استوكهولم ليتسلم الجائزة، كان هو وكوبو آبي، الذي كان قد توفي العام ١٩٩٣، قد أصبحا أشبه بالديناصورات المنقرضة في وطنهما. بعد ذلك، سارع الإمبراطور أكيهيتو، ربما لإخفاء الحرج الذي وقعت فيه اليابان، سارع إلى منح كنزابورو أو جائزة إمبراطورية. كان أكيهيتو يقصد التمويه على غربة اليابان عن أحسن من أنجبت من الكُتَّاب، ولكن ما حدث هو العكس، إذ جعل أكيهيتو الغربة أيسر وصولا إلى النفوس، ذلك أن كنزابورو أو رفض الجائزة التي ترمز إلى الثقافة، التي كان يكتب للانتصار عليها.

لم تكد استكشافات خمسينيات القرن العشرين تؤتي ثمارها في الستينيات من القرن نفسه، إلا وكانت اليابان قد غيرت توجهاتها الاقتصادية والسياسية، وبالشكل الحاد المعروف. فالتنفيس والتطهر اللذان أحدثتهما

ما كان ميشيما، في أشد حالات تشاؤمه، ليتنبأ بالخراب الثقافي الذي آلت إليه اليابان في أثناء سنوات «معجزتها» الاقتصادية. أصبحت الثقافة بعضا من إنتاج الشركات الصناعية الكبرى، بشكل مباشر بالنسبة إلى الثقافة الشعبية، وبشكل غير مباشر عن طريق التمويل والدعم المادي والأدبي بالنسبة إلى الفنون. نحن لا نعرف الكثير عن فنون يابان الشركات الكبرى Japan Inc.، ولا عن ثقافة مدرسة تعظيم إجمالي الناتج القومي GNPism، فليس في هذا وتلك إلا قليل مما يستحق الاهتمام. وعلى حد قول كنزابورو أو: دعنا من «كل سيارات الهوندا هذه»، فالثقافة كُتب عليها أن تظل قاصرة. وكانت الخمسينيات والستينيات هي «ربيع السينما اليابانية»، على حد قول أكيرا كيروساوا، ولكن لم يلبث ذلك الربيع أن أعقبته «العصور المظلمة»: أنواع من الأفلام تصور حيوانات الفراء، وعصابات الياكوزا للجريمة المنظمة، أو رجال الساراري سيئي الطالع. ولم يظهر روائي أو شاعر مهم. أما المصورون والنحاتون، الذين ظلوا يُصنَّفون إلى مدارس، فلم يعد أمامهم سوى خيار مظلم وحيد، هو البحث عن مهمة تكلفهم بها الشركات، وهو أمر ما كان ليضمن لهم الاستقلالية. وكانت قاعات عرض الأعمال الفنية إما تديرها المدارس، أو يؤجرها أي شخص يستطيع أن يدفع الثمن. ووسط هذا المشهد المحزن، تاه الناس العاديون في قاعات الألعاب الإلكترونية، ومجلات الرسوم المتحركة، وطوكيو ديزني لاند، وأخيرا في حدائق وقرى الترفيه التثقيفي. وعرفت اليابان عروض وخدع «الحقيقة الافتراضية» في التسعينيات، على الرغم من أن اليابان كانت قد أصبحت ـ حينذاك ـ ساحة لمشاهدة أرض الأحلام(*).

وكما فعل الأمريكيون في أوقات الثراء المحدث ـ في منعطف القرن العشرين، ثم بعد الحرب العالمية الثانية ـ استورد اليابانيون في أواخر الثمانينيات، ما تصل قيمته إلى بلايين الدولارات من الأعمال الفنية. وأشهر المقتنيات الكثيرة الباهظة الثمن، لوحة زهور عباد الشمس للفنان فان جوخ، التي اشترتها شركة ياسودا للتأمينات البحرية والتأمين ضد الحريق، بمبلغ قياسي ٤٧ مليون دولار، من باب التفاخر والمباهاة في أعلى درجاتهما.

(*) تحفل هذه الفقرة بأسماء متنوعة لأشكال الترفيه التثقيفي أو الثقافة الترفيهية، التي انتشرت في زمن العولمة، والتي تعرفها جميع العواصم والمدن المهمة في العالم، وإن اختلفت بعض الأسماء والتفاصيل. ولعل أشهر هذه الحدائق «حديقة الديناصورات» Jurassic park (المترجم).

أعماله إلى اللغات الأجنبية. ويعترف موراكامي نفسه بأنه لم يقرأ ميشيما. وهو يأخذ موقفا لا مباليا من الماضي ، وليس عنده حل للنهوض بمهام الفنان الياباني (أن يفهم نفسه، وأن يتلافى الوقوع في التقليد للآخر أوالتراث الميت). ليس عنده إلا الهروب التام من الخصوصية اليابانية. وهو يسعى جاهدا إلى توسيع المسافة التي تفصله عن العالم المحيط به، عن اليابان كمجتمع مثير للجدل، لتصبح، في النهاية، هي المسافة التي تفصل اليابان عن الأجنبي. يقول كامي: «أحب أن أكتب عن اليابان من الخارج، يمكن أن تسميها الطبيعة اليابانية التي تبقى بعد أن تكون قد نزعت عنها، واحدا بعد الآخر، كل المكونات المغرقة في «يابانيتها». وهذا كلام فارغ وتناقض لا يُحتمل. «المغرقة في يابانيتها»؟! أليس هذا مدعاة لأن نشك في أن ثمة جولة أخرى من الشعور بالنقص الذي يرجع إلى بدايات العصر الحديث؟ وإن هذا لمدعاة أيضا لأن نتوقع أن يعود موراكامي قوميا انفعاليا بعد نحو عقد من الآن.

كتب دونالد ريتشي Donald Richie، الناقد المرموق للسينما اليابانية، في وصف الانبهار الذي تملك المخرجين اليابانيين الأوائل بالتكنيك الغربي. كانوا يستخدمون تقنيات الفلاش باك والتصوير البانورامي وهم غير متفهمي الإيحاءات العاطفية والسيكولوجية لمثل هذه الأساليب. تتحرك الكاميرا لتركز في لقطة كبيرة ـ مثلا ـ على رجل يقرأ جريدة عند محطة أتوبيس. تصلح اللقطة للحظة روائية مكثفة، لكن الرجل غير ذي صفة، واللحظة غير ذات أهمية. إلا أن التركيز على الشكل والافتقار إلى المضمون لم يكن إلا مرحلة وجيزة: إذ لم يلبث المخرجون اليابانيون أن انتقلوا إلى إنتاج الروائع، حتى في أثناء عصر الصمت. ولكن تأثير الأخطاء الأولى كان يكشف عن لحظة البداية.

ونجد مثل هذه الخاصية في أعمال كُتاب ما بعد الحداثة. وإذ يقرؤها المرء يشعر وكأنه يراقب طفلا يلعب بالكبريت، فروايات موراكامي مليئة بالتفاصيل: فيها تقارير عن الأحاديث التي تجري، والشقق التي تعيش فيها الشخصيات، والدروب التي ساروا فيها، والمنازل التي أحرقت، وتتعدد أسماء ماركات السلع. تدور رواية **مطاردة خروف بري** حول بحث دؤوب ومدروس عن خروف غامض. وفي الرواية عفاريت وأشباح، وعشيقات، رحلات بعيدة، وأكلات سريعة، ومناظر جنسية، وفنادق رخيصة. ولكنها لا تزيد عن كونها مجرد عفاريت وأشباح وعشيقات ورحلات للريف. والحوارات بلا هدف، والخروف ليس ببساطة

والآن، ليس ثمة إلا المطبخ وأنا. هذا أحسن، وإن قليلا، من أن أكون وحدي... جذبت المرتبة الرقيقة إلى المطبخ المضيء، الصامت صمت الموت، ولففت نفسي في البطانية، كالمومياء، ورحت في النوم، وطنين الثلاجة يحول بيني وبين التفكير في وحدتي.

ومن عجب أن كُتابا مثل هاروكي وموراكامي وبانانا يوشيموتو، من ورثة سوسكي ناتسومي وكوبو آبي وكنزابورو أو، يبدو أن ليس لديهم ما يقدمونه إلى اليابان وهي تشق طريقها إلى الأمام. ويزداد عجبنا إذا قارنا هؤلاء الكتاب بأعمال معاصريهم من المعماريين اليابانيين ، وبعضهم أصغر سنا من أن يعرف عن اليابان مثل ما يعرفه موراكامي أو يوشيموتو. وربما كانت بذرة النهضة التي تحدث عنها كنزابورو أو تضرب بجذورها بين هؤلاء المعماريين، ذلك أن أعمالهم تعد تحديا جادا لكُتّاب ما بعد الحداثة، بل إن أعمالهم توحي بما يمكن أن تثمره هذه البذرة الصغيرة في الفنون الأخرى. وأفضل هؤلاء المعماريين يصرُّون على أنهم معاصرون، وأن لديهم من الصلابة والحجج ما يجعلهم يعلنون أن الحنين إلى الماضي ليس إلا ضياعا عبثيا للوقت، ومع ذلك فهم على إدراك واعٍ ببابانيتهم، ومتحمسون لها، وهذا يتجلى في تعاملهم مع الكتلة والفراغ، والأضواء والظلال، وإلماحاتهم إلى الماضي ، وشاعريتهم الشعبية أحيانا. والتعرف على أعمال هؤلاء المعماريين ثم التفكير في روايات مثل **المطبخ** أو**الرقص**، **الرقص**، **الرقص** يضيف خطيئة أخرى إلى أعمال كتاب ما بعد الحداثة: وتلك هي أنه في وسط الخواء والجدب، توجد الخصوبة أيضا.

يتذكر كيشو كوروكاوا Kisho Kurokawa وهو أحد المعماريين المرموقين ،من أول جيل حقق نضجا بعد الحرب ـ يتذكر ما رأى حين عاد إلى مدينته ناجويا بعد أيام من الاستسلام في ١٩٤٥. وكانت عائلته قد هُجِّرت منها قبل ذلك، حين عادوا اكتشفوا أن غارات الحلفاء لم تترك المدينة إلا خرائب متفحمة. اصطحبه والده في جولة في أحياء لم يعودوا قادرين على التعرف عليها. يقول كوروكاوا: كان أبي مهندسا معماريا، كنا نبحث معا عن موقع نبني فيه مصنعا جديدا. قال أبي: «لم يعد لدينا شيء، ولكن المعماري يستطيع أن يخلق مدينة جديدة». وبالنسبة لي كصبي صغير، كان ذلك يبدو مستحيلا: كيف يمكن أن تُبنى مدينة من لا شيء؟ ولكن منذ تلك اللحظة، عقدت العزم على أن أسير في خطاه.

تحكي القصة أشياء مهمة عن الهندسة المعمارية في اليابان، من حيث هي استجابة للملابسات والظروف المادية شأنها في ذلك شأن الديكور الداخلي

على الأفكار الغربية عن فن العمارة وتخطيط المدن. وبعد أن هاجموا المعايير الغربية، بدأوا يعالجون المشاعر العميقة المتضاربة التي ما زالت تعتمل في نفوس اليابانيين تجاه مدنهم: كمدن لا شك في حداثتها، غير أنها صروح ونُصُبٌ للمباعدة والازدواجية، أماكن يعيش فيها الناس مكدسين بكثافة غير مسبوقة، ولكن الطبيعة عنها غائبة.

وفي زماننا هذا، تتجلى أصالة المعماريين اليابانيين في أماكن كثيرة من لوس أنجليس ونيويورك إلى باريس وأشبيلية. وهي عمارة توحيدية. ويسمّي كوروكاوا نظريته «التكافلية»: وهي نظام للهندسة المعمارية يكاد يكون نظاما فلسفيا. ومع أساتذة يابانيين آخرين، (نخص بالذكر منهم أراتا إيسوزاكي، وتاداو أندو)، يربط كوروكاوا، في «تركيب أممي جديد»، أشياء تراها الثقافة الحديثة متعارضة: الناس والطبيعة، العلم والدين، الشرق والغرب، الماضي والحاضر، الحدس والمنطق. إنه تركيب يجمع بين الخصوصية والعالمية ، أصيل فيما بعد حداثيته، كما هو أصيل في يابانيته.

عندما قابلت تاداو أندو، للمرة الأولى، ارتقى سلالم داخلية صعودا إلى الدور الثالث في الاستوديو الخاص به في أوساكا، وخرج من المبنى ليعبر ممرا خارجيا ضيقا، ثم عاد فدخل من باب زجاجي ليصل إلى الغرفة التي كنت أجلس فيها. وما كاد يراني، وبقصد أو بغير قصد، كان قد وجه إليّ سؤالا: «هل أنا حقا خرجت من المبنى أم أنني داخله طوال الوقت؟ ما الداخلي وما الخارجي؟ ما علاقتنا الحميمة بالعناصر الأساسية للعالم الطبيعي؟» كان أندو ملاكما سابقا، علّم نفسه العمارة، مبانيه مليئة بردهات استقبال مكشوفة، وممرات داخلية بلا سقوف. ومشروعه الذي اعتبره فتحا عبارة عن صف بيوت من الأسمنت المسلح الخام والزجاج، بُني العام ١٩٧٦، يتوسطه فناء مفتوح يجتازه ممر معلق في الطابق الأول. وبعد ذلك باثني عشر عاما، بنى في هوكايدو كنيسة لها ثلاثة جدران تنفتح على المروج والأشجار، ومذبحها محاط بالسماء وبركة ماء ضحلة.

تبادلنا أطراف الحديث ساعات عدة. ثمة شيء في أنف الملاكم، وصوته يذكرني بمارلون براندو، كما يذكرني هو نفسه، على نحو ما، بالمصور يوشيرو كاتو القاطن فوق سطوح منزل في بروكلين، والمقارنة مع الفارق الكبير طبعا. كان أندو أيضا يأسى لما فعلته اليابان بنفسها بعد الحرب ، فهي على حد

10 الآخر في داخلنا

تعرفت في طوكيو على أكيمي ماتسوورا Akemi Matsuura. وهي امرأة كورية ـ يابانية شابة، أنيقة وذكية، تعرف عدة لغات، في منتصف العشرينيات من عمرها، وتعمل مع شركة أزياء فرنسية. ومثل كثير من الكوريين ـ اليابانيين، كانت قد غيرت اسمها الكوري الأصل. ولدت ونشأت في أوساكا، ثم تلقت تعليمها الجامعي في سيول. حين دخلت الجامعة كانت في الثامنة عشرة من عمرها، وكانت هي المرة الأولى التي تذهب فيها إلى كوريا.

تغيرت ماتسوورا في كوريا، حيث اكتشفت أنها لم تكن كورية حقيقية. وعندما عادت إلى اليابان بعد أن أتمت دراستها الجامعية، رأت اليابان أيضا بشكل مختلف. تقول: «عندما رجعت، اكتشفت بالتدريج جانبا محزنا وباردا في اليابانيين. حيث تبينت أن ثمة هوة كبيرة تفصل بين ما يعلنونه عن حقيقتهم وبين حقيقتهم. وتبينت أن الإنسان لا يستطيع أن يكون قريبا من الياباني، وأن تكون يابانيا تعني أن تكون وحيدا».

«أرأيت يا ساداء المولود عريان... وليس له اسم».

«ها ها ها! هذا كلام مضحك يا كو، فكل الناس يولدون هكذا».

«إه، نعم. كل الناس بلا أسماء وكل الناس عرايا عندما يولدون، حتى الإمبراطور... وحتى إيتا»(*).

سوسومي

نهر بلا جسر، ١٩٦١

(*) إيتا eta: إسم طبقة كانت ـ قبل العصر الميجي ـ في أدنى السلم الاجتماعي، بعد طبقات المحاربين والمزارعين والحرفيين والتجار. وكانت تسمى أيضا طبقة المنبوذين. (عن قاموس Webster International).

المعروفين باسم بوراكومين burakumin، وسكان الجزر اليابانية الأصليين، وهم الـ «أينو» في الشمال، وسكان أوكيناوا في الجنوب. كذلك هناك أقليات إثنية كورية وصينية تقيم في اليابان. وجذبت القفاعة الاقتصادية للثمانينيات موجة يابانيين قادمين من البرازيل، التي تقيم فيها أكبر جالية يابانية خارج جزرهم. وقد اعُتبر اليابانيون ـ البرازيليون نوعا من «الآخرين» أيضا، حيث لم يعودوا يابانيين خالصين. كما جذبت الفقاعة الاقتصادية أيضا أعدادا كبيرة من الأيدي العاملة من جنوب شرق آسيا، وشبه القارة الهندية، والشرق الأوسط، وهم أول موجة من الوافدين من هذه الأنحاء تشهدها اليابان، وغني عن الذكر أنهم «آخرون» أيضا.

وتلك قائمة هائلة، وفيما عدا الغربيين والأيدي العاملة الوافدة من البلاد المتخلفة، كلهم آخرون بالداخل: مصنفون كآخرين بدرجة أو أخرى. نبدأ بالبوراكومين، الذين لا يكادون يفترقون في شيء عن اليابانيين، الأمر الذي يجعل النظرة الدونية نحوهم غبية وغير مقبولة إلى درجة تقرب من العبثية. وتتذرع اليابان بالفروق الطفيفة في ملامح الأينو وسكان أوكيناوا، لتعتبرهم بعضا من حفريات الماضي. أما الصينيون والكوريون، فمن الإنصاف أن نقول إن اليابانيين من صنعهم ـ إلى حد كبير ـ ثقافيا وحضاريا وماديا، (بل وجينيا أيضا في حالة الكوريين). وعلى الرغم من أن اليابانيين يستبعدون هذه الجماعات، فإنهم جزء من تركيبة اليابانيين، الذين لا يشكلون سلالة بشرية بذاتهم، كما يدعون في الغالب، وإنما هم جماعة إثنية داخل الجنس المنغولي.

ولابد أن ثمة نوعا من كراهية الذات تكمن في الطريقة التي يعامل بها اليابانيون الآخرين الذين اخترعوهم. فمكانة الصينيين في تاريخ اليابان، على سبيل المثال، ليست نوعا من خيال الباحثين، الأمر الذي لا يغيب عن ذاكرة الياباني في كل مرة يأكل شيئا باستخدام العودين أو يقرأ كلمة، فاللغة ليست في صفهم في هذه النقطة. ومن بين الألفاظ الكثيرة التي يحقرون بها من قدر البوراكومين لفظ نينجاي ningai، ومعناها «خارج الجنس البشري»، أو مختلف عن البشر. فلماذا ـ على هذا النحو ـ يصنف اليابانيون أناسا ليسوا فقط مثلهم، ولكنهم هم أنفسهم، كما تثبت ذلك بكل تفصيل مكتشفات وتحاليل الجينات DNA؟ أما كلمة «جايجين» فلا تطلق أبدا على الكوريين أو الصينيين، ولا حتى على العمال الأجانب الوافدين. ومن المؤكد أن البوراكومين

بين ١٨٦٨و ١٩٤٥، اعتبرت الأقلية المالية الحاكمة في اليابان أن ملكية «الآخرين» أمر ضروري، وعلامة، على أن اليابان وصلت إلى مرتبة الدولة الكبرى. في التحليل النهائي، جاء الإصلاح الميجي وسط العصر الإمبراطوري، وإن كان اليابانيون قد تعلموا أشياء عن بناء إمبراطورية، فإنهم تعلموها من الغرب. ولولا أن الحالة مأساوية، لكان من المضحك أن نرى كيف أن اليابان الحديثة خاضت مغامراتها الأولى في هذا المجال وفقا للنمط الغربي، الذي اعتبرته اليابان «القانون العام للعالم بأسره». بعد الإصلاح، رفضت كوريا الاعتراف بالحكومة اليابانية الجديدة. وفي الحال تصاعدت الأصوات بأنه يتعين على طوكيو أن تفتح الموانى الكورية بالقوة، وهو الأسلوب نفسه الذي كان قد فتح به الغرب الموانى اليابانية. ولم ترفض الفكرة إلا لأن اليابان لم يكن لديها القوة الكافية لتنفيذها. ولكنها لم تلبث، في العام ١٨٧٥، أن أرسلت سفنها الحربية تتتطع بالقرب من الشواطئ الكورية، تماما كما سبق أن فعلت «السفن السوداء» للكومودور الأمريكي بيري(*). وبعد ذلك بعام واحد، وقعت اليابان وكوريا على معاهدة، بموجبها فتحت كوريا ثلاثة من موانيها للتجارة اليابانية، وأصبح لليابانيين الحق في الإقامة في كوريا، دون أن يخضعوا للقانون الكوري.

كانت لليابان بين حين وآخر أطماع إقليمية في كوريا، عبر تاريخ امتد قرونا عدة. ولكن غزو اليابان لكوريا في ١٩١٠ كان أمرا مثيرا للسخرية (وكانت قبل ذلك بخمسة عشر عاما قد استولت على تايوان، ولن تلبث أن تتقدم بعد ذلك للهجوم على الصين). كان الدافع الأصلي لطوكيو، وإن جزئيا، هو ضم كوريا إلى حلف معها ضد الغرب، وهذه فكرة ما يزال القوميون يقدمونها للدفاع عن أسباب التوسع الإمبريالي. ومع ذلك فإن اليابانيين، بعد أن احتلوا كوريا، كانوا في منتهى القسوة والفظاعة مع الكوريين. يقرّ رجال الدولة اليابانيون أن الوحشية اليابانية ليست مقبولة في اليابان، ولكن لا مانع منها في كوريا، لأن الكوريين قوم غير متحضرين.

نحن نرفض عادة ـ عن حق ـ الحجج التي يتذرع بها القوميون اليابانيون لتبرير اجتياح آسيا، وخوض حرب الباسيفيك، فالقول إن اليابان خاضت

(*) وصلت سفن الكومودور الأمريكي «ماثيو بيري» إلى شواطئ اليابان جنوب طوكيو ١٨٥٣. (انظر الملحق الخاص بالأحداث التاريخية المهمة). (المترجم).

على أصولها البلغارية، ولا صفتها كيهودية. لم ينته شيء. ولكن هذا لا ينطبق على الكوريين الذين في طريقهم لأن يصبحوا يابانيين.

جاء والد أكيمي ماتسوورا من كوريا للعمل في اليابان في أثناء الحرب. وبعد ذلك أسس شركته الخاصة للبناء. لم يكن ثمة أي لبس في هوية ماتسوورا الأب: فهو كوري المولد، تزوج امرأة كورية، وكوَّن أسرة كورية. لم يتوقف والد أكيمي قط عن تذكير أبنائه بأنهم كوريون، حتى بعد أن نسوا لغتهم. قالت أكيمي في معرض الحديث عن أسرتها: «كنت أعتقد أنني أفكر ككورية». ولكن أكيمي اكتشفت، وهي في كوريا، أنها لم تكن كورية حقا، وبعد ذلك، اكتشفت في اليابان أنها لم تكن يابانية، ولم أدهش عندما ذكرت لي أنها قضت السنوات الأولى من حياتها المهنية تتنقل من وظيفة لأخرى: مرة في طوكيو، وأخرى في سيول، ثم في طوكيو مرة أخرى، وهكذا.

كل عام، يحصل عدد قليل من الكوريين على الجنسية اليابانية، غير أن تلك تجربة ثقيلة. وبينما الإجراءات القانونية للحصول على الجنسية واضحة ومباشرة، فإن تعبير «أن يصير المرء يابانيا» هو تعبير مشحون؛ فالجنسية تنزع عن الكوريين تصنيفهم كآخرين في نظر اليابانيين، ولكنها تعني أيضا أنها تنزع الكوريين من أنفسهم. حيث يجب أن يصبحوا، مثل اليابانيين، آخرين أمام أنفسهم. ومن ثم، يتعين عليهم أن يتخلوا ليس فقط عن أسمائهم، وإنما أيضا عن ثقافتهم ولباسهم، وغالبا ما يتعين عليهم أيضا أن يتركوا الأحياء التي يعيشون فيها، وما شابه ذلك. ولأن الحصول على الجنسية يستتبعها كل هذا القدر من فقدان الهوية فإن غالبية الكوريين يفضلون الإبقاء على وضعيتهم غير المستقرة، وضعية المقيم الغريب.

ومن بين أشهر حدثين شهدتهما اليابان، وكان الكوريون طرفا فيهما، ما جرى بعد زلزال ١٩٢٣. بين طوكيو ويوكوهاما، لقي ثمانون ألفا من الناس مصرعهم بسبب الهزات الأرضية، وما أعقبها من اندلاع «بحر من الحرائق». وفي الحال انتشرت شائعات تقول إن الكوريين يشعلون الحرائق، ويسممون الآبار، ويلقون القنابل، ويغتصبون النساء اليابانيات، وينهبون الدكاكين اليابانية. ولكنها كانت شائعات كاذبة، ولم تثبت صحة أي منها. ولكن جماعات من الحرس الأهلي التي تكونت في الأحياء، بدعم من الشرطة والجيش، قامت بتنفيذ أحكام إعدام للكوريين بالجملة. تزامن ذلك الزلزال مع الطبعة

أخفيت الحقائق المتعلقة بنساء المتعة حتى العام ١٩٦٢، حين وجد أحد الصحافيين اليابانيين - وهو يفتش في ملفات قديمة - صورة فوتوغرافية حظر نشرها، لامرأتين كوريتين تستحمان في مياه تفريعة ضحلة للنهر الأصفر في الصين. ولكن الأمر تطلب ستة وعشرين عاما أخرى لكي تتمكن النساء الكوريات من طرح القضية على الرأي العام. منع الخوف من الفضائح نساء المتعة من الإدلاء بشهاداتهن علنا حتى العام ١٩٩١، عندما تقدمت واحدة بأول شهادة من نوعها في أثناء نظر قضية رفعت ضد الحكومة اليابانية في هذا الشأن. ومنذئذ، خرجت نساء المتعة من الظلال لتطاردن اليابان كأنهن «روح تطلب الثأر»، على حد تعبير أحد السياسيين في طوكيو. وفي العام ١٩٩٣، بعد أن كشف النقاب عن الوثائق الرسمية ذات الصلة، وبعد أن نشرت، اعترفت طوكيو بحقيقة أن الجيش الإمبراطوري وحكومة الحرب، قاما بأعمال التجنيد القهري والخداع والإكراه لتلك النساء في نظام رسمي مقنن، وفي العام ١٩٩٥، أقامت طوكيو أخيرا صندوقا لمساعدة عشرات الآلاف ممن بقين على قيد الحياة من نساء المتعة - من قوميات عدة. غير أن الصندوق لم يلبث أن توقف، إذ فشل في توفير الاعتمادات الكافية، كما أن نشاط رئيس الحكومة الذي انتُخب بعد ذلك رفض أن يقدم الاعتذارات الرسمية، التي كان من المفروض أن ترافق التعويضات المقدمة.

جُمعت كثير من روايات نساء المتعة، ونُشرت في كتاب العام ١٩٩٥، ويثبت هذا الكتاب بالدلائل الموجعة عدم كفاية الأحكام القضائية والتعويضات المالية في جميع الحالات. فالأحكام القانونية لا تستطيع أن تعوض الضحايا عن قسوة الحياة المرة التي كتبت عليهن بعد الحرب، كما لا تستطيع تعويضهن عن الجراح النفسية والعاطفية التي لا يمكن أن تندمل. كذلك لا يمكن أن تعالج تلك الإجراءات الرسمية سلوكيات اليابانيين تجاه «الأخريات». فرحلات السياحة الجنسية إلى سيول ومانيلا وغيرهما تحظى برواج كبير بين الرجال اليابانيين في أيامنا هذه. وفي كثير من مدن الأقاليم في اليابان يصادف المرء مجموعات من النساء مستجلبات من تايلاند وكوريا والصين والفلبين والبرازيل، بصفتهن «فتيات ترفيه» في الملاهي الليلية، حيث غالبا ما يحتجز أصحاب هذه الملاهي جوازات سفرهن، ويعطلون صرف أجورهن. ومن الصعب أن نعتبر هذه

من التعليم والعمل، رغبتهم في حل المشكلة بالذوبان في محيط اليابانيين بالأسلوب الذي ينتهجه بعض الكوريين.

ويثير الاختيار بين «الخروج على الملأ» و«الذوبان في المحيط» كثيرا من مشاعر القلق والنكد. ما السبيل لقبول الإنسان لذاته الحقيقية وراحة البال؟ فالذوبان في الآخرين يعني ترك موضوع التمايز دون حل - أو هو بمنزلة قبول التعصبات السائدة، على الرغم من كل الجهد المبذول. والذوبان يتطلب أن يعيش المرء في محيط غريب عليه، وفي خوف دائم من أن يكتشف أمره، كما أنه يولد شعورا بالذنب تجاه من تخلى عنهم من بني جلدته.

والحق أن الخروج على الملأ ليس بديلا أسهل. يتضح ذلك بصفة خاصة عندما ينتقل الأطفال من مدارس حيهم إلى مدارس ثانوية خارج الحي. وتلك الخطوة الأولى إلى العالم الخارجي هي التي تذيق النشء الطعم الحقيقي للثمن الذي سيدفعونه. ومن جانب آخر، ما جدوى الإعلان إذا لم يكن له دلالة حقيقية؟ فالبوراكومين ليست فيهم علامات أو سمات إثنية مميِّزة، ولا يربطهم في التحليل الأخير إلا المعاناة وكذا فهمهم الأعمق لليابان - الأمر الذي لا يستهان به.

قابلت في أوساكا أمرأة في الحلقة السابعة من عمرها، من المحبذين المتحمسين للخروج على الملأ، اسمها كيميو كوباياشي Kimio Kobayashi، ولها ابن وابنة. تقول كوباياشي: «من المؤسف والمؤلم أن نضع أبناءنا في التجربة، ولكننا نريد أن ننشئ جيلا قادرا على الوقوف في وجه التمييز والإهانة والتشهير». قاطعتها سيدة أخرى أصغر سنا: «المشكلة تبدأ كما تنتهي بالنظام التعليمي. إن القدرة على التعبير عن النفس، وتحقيق الذات، وخوض معترك الحياة، كل هذه أشياء تأتي من التعليم، ولكنهم لا يشجعونها في اليابان. وتلك هي المشكلة الكبرى».

في أوائل الستينيات، بدأ الكاتب سو سومي، الذي لم يكن من البوراكومين، ينشر رواية من ستة مجلدات، عنوانها **نهر بلا جسر The River with No Bridge** عن حياة البوراكومين في الربع الأول من القرن العشرين. في المجلد الأول يتفتح وعي البطل، كوجي، وهو بعد صبي صغير، بالتدريج على كونه مختلفا عن اليابانيين الآخرين. وكانت المدرسة هي المكان الذي تعرّف فيه هذه الحقيقة أولا، وليس المنزل، وذلك من خلال شعوره بالسلوكيات القاسية

من بين الصفات التي أدهشتني في البوراكومين الذين قابلتهم أن إنسانيتهم مكتملة. يمكن أن يتركوا انطباعا قويا بهذا المعنى في أي مكان، ولكنهم يلفتون النظر بشكل خاص في اليابان، حيث الشخصية المألوفة تتسم بعدم الاكتمال. كان البوراكومين، على الأقل، قد أزالوا فيما بينهم مسافة الغربة، وهي المسافة التي تفصل اليابانيين بعضهم عن بعض. فهم يتميزون بشخصية متكاملة، على السجية. وهم متقاربون فيما بينهم، يشعرون بالقوة في الجماعة، بل وبالحبور، وهذا بخلاف بقية اليابانيين، حيث لا يجد المرء إلا تقاربا مفروضا بين كائنات شديدة الإحساس بخصوصيتها. وتفسير ذلك بسيط وواضح: فالبوراكومين تقبلوا الخلاف ببساطة.

ربما كان الماضي وحده هو الذي يفسر استمرار الأفكار المتعصبة ضد البوراكومين. كان التوكوجاوا يخافون الأغراب الخارجيين (الجايجين) لتفوقهم، وأغلقوا اليابان في وجوههم، وفي ذلك العصر عمد اليابانيون الى عزل أغراب «داخليين» يمكن أن يشعروا إزاءهم بالتفوق، تلك حقائق التاريخ التى توحي بأن البوراكومين صورة معكوسة لليابانيين العاديين. فالقلق الذي يحمله البوراكومين بالقهر، هو نفسه القلق الذي يشعر به اليابانيون أمام الجايجين. ولا أعرف طريقة للقطع بأن ثمة علاقة بين الحقائق التاريخية، لأنه يمكن أن يترتب على ذلك نتائج حسنة ـ إذ إن ذلك يوحي بأن اليابانيين إذا تخلصوا من مشاعرهم الدونية تجاه الغربيين، يمكنهم أيضا أن يتخلصوا من الاستعلاء على الآخرين.

غير أننا نصادف مرة أخرى المسافة بين الناس المستعدين للتغير، وأولئك الذين يحكمونهم. تخف مشكلة البوراكومين بالتدريج، وإن ببطء. فثلاثة أرباع البوراكومين؛ من الأجيال الجديدة يتزوجون اليوم خارج مجتمعاتهم. كما أنفقت طوكيو بسخاء عليهم. ولكننا نستطيع أن نفهم المعونات فهما أفضل إذا اعتبرناها ضمن الجهود المبذولة لدرء مخاطر مشكلة اجتماعية قابلة للانفجار. فلا تزال الحكومة ترفض سن قوانين للقضاء على التمييز ضد البوراكومين، ومن ثم تظل مشكلة البوراكومين قائمة كمشكلة نفسية، حتى إن تضاءلت كقضية اقتصادية. هذا أمر مقصود بالتأكيد. فالقادة اليابانيون المحدثون، شأنهم شأن التوكوجاوا، يكرسون وهم أن اليابانيين جميعا سواسية، ووهم التجانس يتقوى بوجود جزر من الاختلاف في بحر المساواة.

وتعيش على المساعدات، والاتجار في المصنوعات الحرفية الفولكلورية من الخشب والفراء، وهي من عدة وجوه شبيهة بالمعازل التي يعيش فيها سكان أمريكا الأصليون (الهنود الحمر) في الولايات المتحدة. وهم مثلهم، كتب عليهم البؤس والعزلة والاضمحلال. وأينما كانوا، فإنهم يعطون انطباعا بأنهم في زوايا منسية.

وفي قراهم، يناضل الأينو من أجل الإبقاء على لغتهم وعاداتهم، فثمة بقايا لثقافة شفاهية ثرية، ولكن لا يوجد أدب مكتوب. ربما ينجحون في هذا السياق، ولكن ليس ثمة إلا فرصة ضئيلة في أن يستمر الأينو وثقافتهم التقليدية على قيد الحياة إلا كطرائف فولكلورية. بعد أن شرعت حكومة الميجي في قصر حدود الأينو على هوكايدو، أصيبت الروح الحيوية للأينو بجرح قاتل. وعلى الرغم من وجود قادة للأينو مشغولين بالنضال للإبقاء على هوية قومهم، فإن المرء لا يستطيع أن يلمس إرادة حية للبقاء في صفوفهم. وليس أمامهم لكي يعيشوا إلا أن يذوبوا في الأغلبية (الياماتو).

يعتبر اليابانيون أن الأينو - إذا خطروا على بالهم أصلا - أشياء أشبه بالكائنات التي تعرضها الحدائق الترفيهية الثقافية(*). وهم مشغولون بصفة خاصة بالمميزات الجسدية للأينو، الذين يتميزون بكثافة الشعر، وحدة الملامح، وأحيانا بعيون زرقاء. وانكشف أمر عدد من الباحثين كانوا يحفرون قبور الأينو ليقيسوا أبعاد الجماجم. ومن بين كل الآخرين بالداخل، كان الأينو هم الذين يطلق اليابانيون عليهم أحيانا جايجين. ويشعر شيوجيرو يوزانو Shigeru Yodano، زعيم الأينو، بالمرارة الشديدة من الطريقة التي يعامل بها شعبه. وهو يطالب بعقد اتفاقية بين اليابان والأينو تعترف بموجبها اليابان بأن جزيرة هوكايدو هي وطنهم. ولكن فرصة ذلك ضئيلة، كما لابد أن يكون يوزانو متفهما لذلك. وقد أمضى عشرين عاما محاولا أن يوقف بناء سد بالقرب من قريته، لأن ذلك السد سيدمر مجرى نهر يقدسه الأينو. ومع ذلك، عندما رفع قضية ضد الحكومة، فإنها رفضت أن تعترف بوجود شيء يسمى شعب الأينو أصلا.

(*) وهي الحدائق التي انتشرت بالقرب من المدن الكبرى في العالم، وتعرض أنماطا من الحياة البائدة سواء حياة الملكة الحيوانية البائدة (كحديقة الديناصورات)، أو أنماط من الحضارات القديمة (كالحديقة الفرعونية) (المترجم).

شهد العصر الحديث أربعة تواريخ تلخص مواقف اليابان الرسمية تجاه أوكيناوا. في ١٨٧٩، نحّت حكومة الإصلاح الميجي ملك أوكيناوا، وأرسلت محافظا من طوكيو ليكون حاكما محليا بدلا منه. وفي ١٩٤٥، كانت أوكيناوا هي الجزء الوحيد من أراضي اليابان الذي دار عليه قتال بين اليابانيين والحلفاء الغربيين(*). وفي ١٩٥٢، وافقت اليابان على مد الاحتلال الأمريكي لأوكيناوا لمدة عشرين عاما. والتاريخ الأخير (١٩٧٢) أبلغها دلالة، على الرغم من أن ما حدث فيه ما زال لم يتأكد رسميا: قبل أن تعود الجزر إلى اليابان في ١٩٧٢، عرض الإمبراطور هيروهيتو بشكل غير رسمي على الرئيس نيكسون أن يحتفظ بالجزر.

كتم الأوكيناويون تلك التواريخ في أنفسهم. وإذ وصل المحافظ الياباني، ونفي آخر ملوك مملكة ليوشو إلى طوكيو، (والذي جعلوه ماركيزا وواحدا من حَمَلَة رتبهم)، تحولت أوكيناوا من مملكة إلى إقليم تابع بين يوم وليلة. وتم «يبننة»(**) كل شيء، ولم تأت الحرب العالمية الثانية إلا وكان مجرد الحديث باللغة الأوكيناوية أو مراعاة العادات المحلية تعتبر من الأعمال يعاقب عليها القانون، باعتبارها نشاطا انقلابيا. والآن يناضل الأوكيناويون، مثلهم مثل الأينو، للحفاظ على لغتهم وعاداتهم من الاندثار. ولكن، بينما سيضطر الأينو إلى قبول وضع ماضيهم في صندوق زجاجي متحفي، فإن الأوكيناويين سيكتبون لثقافتهم الحية حياة جديدة. قال لي أحد المثقفين الأوكيناويين ذات مرة: يتشبث الأينو بهويتهم، وكذلك نحن الأوكيناويين. ولكن ليس ثمة احتمال أن نفقد هويتنا، لأسباب من بينها أننا لا نزال نحتفظ بأرضنا.

لا يستطيع الزمن أن يمحو آثار معركة أوكيناوا، التي هي بمثابة جرح عميق ومتقيح في العلاقات بين الأوكيناويين و «جزر اليابان الرئيسة»(***) بلغ عدد القتلى في هذه المعركة ثلاثمائة ألف، نصفهم من المدنيين، ومن هؤلاء المدنيين مات الكثيرون انتحارا بتشجيع من القوات اليابانية - أو على أيديهم ... فما الذي تعنيه هذه الفظائع التي استمرت ثلاثة أشهر إن لم يكن هو أن الجيش الإمبراطوري تعمّد إلقاء مئات الآلاف من الأوكيناويين الأبرياء في

(*) وعرف هذا في التاريخ باسم معركة أو كيناوا، وسيرد الحديث عنها بعد قليل (المترجم).

(**) يبننة Japanize: أي تحويل كل ما هو غير ياباني إلى ياباني (المترجم).

(***) في الأصل الإنجليزي «mainland» ، وهو ما يطلقه أهالي أوكيناوا على جزر اليابان الرئيسية (المترجم).

تنطوي نفوس غالبية الأوكيناويين على شعور بالعداء تجاه الجزر الرئيسية، يخفف منه نوع من الحساب العملي لعائد الانتماء إليها. لم يشارك الأوكيناويون، إلا بقدر ضئيل، في المعجزة الاقتصادية بعد الحرب، لأن الشركات الكبرى فضلت أماكن أخرى لاستثماراتها على جزيرة مرجانية تتوسطها بركة ضحلة تصلها مياه البحر، وتقع عاصمتها على ارتفاع إحدى عشرة قدما فوق مستوى سطح البحر. أصبح الاقتصاد كائنا مشوها ذا ثلاثة أرجل لا يحسد عليها: منح ومساعدات من طوكيو، والقواعد العسكرية الأمريكيون، والسياحة. ولوقت طويل، كانت القواعد العسكرية هي أهم مصادر الدخل وفرص العمل، ولكن السياحة من الجزر اليابانية الرئيسية تجاوزت ما ينفقه العساكر الأمريكان مع غروب القرن الأمريكي. واليوم، يأتي أكثر من نصف دخل أوكيناوا من الدعم والمعونات الحكومية، وحوالى الربع من السياحة، وعشرة في المائة من قوات الاحتلال الأمريكية.

والعاصمة ناها اليوم خليط من رأس جسر عسكري، وأشجار نخيل، وعمارات شقق مكاتب ذات خمسة أو ستة طوابق طراز الستينيات. وليس لها أقاليم داخلية: مزارع أو مناجم أو غابات تغذيها. وتشبه ناها اليوم العاصمة الفلبينية مانيلا في أثناء حكم ماركوس، أو أي مدينة من المدن الصغيرة في جنوب شرق آسيا التي نمت حول المنشآت العسكرية الأمريكية. وعلى طول الشارع الرئيسي «سانشاين آفينيو» توجد حانات تحمل أسماء (أمريكية) - مثل «بافالو» Buffalo، «شوجر بويز» Sugar Boys، «مون ستون» Moonstone، و «بيكوك» Peacock. ويختلط بهذه الحانات وكالات الاتجار في مخلفات الجيش، ومحلات الهدايا التي تبيع مجوهرات الشواطئ المرجانية والأقمشة المطرزة يدويا، والساكي الأوكيناوي. وعند وصولي اضطرت الطائرة التي أقلتني أن تؤجل الهبوط وتدور في الجو حوالى نصف ساعة لأن المقاتلات الأمريكية النفاثة لها أولوية ممرات الهبوط على كل رحلات الطيران التجاري.

وناها هي المكان الذي تخفي فيه أمريكا واليابان الآليات الكريهة للعلاقات التي تربط البلدين بعد الحرب، والتي تعد رؤيتها بمثابة مواجهة ما بقي من التبعية الذليلة التي بدأت في العام ١٩٤٥، والتي يحاول اليابانيون إخفاءها في طوكيو. والأوكيناويون من جانبهم، يكرهون الوجود الأمريكي (والمحافظ

الجنوب نوعا من الثقة بالنفس يفتقدونها في أنفسهم، تنعكس على السطح في سلوك تلقائي، وبنية جسدية وحركية جذابة بشكل خاص للجيل الجديد من اليابانيين. وفي أوائل التسعينيات حدث رواج للموسيقى الشعبية الأوكيناوية. والحق أن الأصل الجنوبي لليابانيين لا يعدو أن يكون فرضية جذابة. ولكن الماضي، طبعا ليس هو الموضوع. وإنما الموضوع هو البحث عبر الماضي عن طريق إلى الأمام ـ وتلك عادة يابانية مألوفة. يقول الباحث شونسوكي تسورومي حوالى ١٩٨٠: «في أوكيناوا يمكن أن نعثر على المفاتيح، ليس فقط لإعادة بناء ماضي اليابان، وإنما أيضا لبناء مستقبلها. وثقافة أوكيناوا، حيث تلعب المرأة دورا مركزيا في الطقوس الدينية كما في تشكيل القيم الاجتماعية الأساسية، يمكن أن تساهم في تهذيب المجتمع المتمركز حول الذكَر في الجزر الأخرى، والذي... فشل، بالهزيمة في الحرب».

* * *

بعد خمسين عاما من فشل المشروع الياباني الذي خاضت طوكيو به الحرب في المنطقة تحت شعار «الدائرة الكبرى للازدهار المشترك لشرق آسيا» Greater East Asia Co-Prosperity Sphere، عادت اليابان لتصبح حاضرة الإقليم. كان فيض رؤوس الأموال اليابانية في الدول المجاورة قد بدأ يحول شاطئ اليابان المطل على الباسيفيك إلى مُركَّب اقتصادي واحد. وفي جميع أرجاء شرق آسيا، كانت الشركات اليابانية قد شرعت تفكك الارتباطات التقليدية بالأرض والأسرة، وتخلق طبقة جديدة من سكان المدن المنزوعين عن جذورهم ـ من اليد العاملة غير الماهرة أو نصف الماهرة، بشر يبحثون عن لقمة العيش بالقرب من منابع الثورة. كان الإنجليز والفرنسيون قد سبقوا إلى ذلك وإن على فترات طويلة. هكذا خلقت كل دولة في أوروبا مشكلة العمالة المهاجرة من الجنوب إلى الشمال. ومرة أخرى، تتكرر الظاهرة في اليابان وإن بسرعة أكبر.

في أواخر الثمانينيات، والاقتصاد الياباني في عنفوان نموه المحموم، بدأت اليابان تستورد اليد العاملة على نطاق واسع، ولأول مرة منذ موجة هجرة الكوريين بأعداد كبيرة قبل الحرب. وفي سنوات ١٩٩٠، حتى بعد انفجار الفقاعة الاقتصادية، كان في اليابان حوالى ثلاثمائة ألف من العمال الأجانب الموجودين بشكل غير قانوني. ورد هذا الرقم في الإحصاء الرسمي، ولكن

١١ الفضيلة المراوغة

قال دوجلاس ماك آرثر ذات مرة عن اليابانيين: «إذ أبعدهم موقعهم هناك في شمال الباسيفيك، فإنهم لا يعون إلا قليلا، أو لعلهم لا يعون شيئا على الإطلاق عن الحياة في بقية العالم».

كان ذلك في ٥ مايو ١٩٥١، وكان مقررا أن ينتهي الاحتلال بعد أقل من عام. وكان الرئيس ترومان قد أعفى ماك آرثر من منصبه كقائد أعلى للقوات المتحالفة. وبعد عودته من طوكيو إلى أمريكا، دُعي الجنرال للتحدث عن اليابانيين أمام مجلس الشيوخ، الذي كان حينذاك بصدد مناقشة معاهدة الأمن التي ستربط اليابان بأمريكا.

وكان ماك آرثر مستشرقا بكل المقاييس. ومثل ملاحظات المستشرقين من قبله، لم تكن الأشياء التي قالها في ذلك اليوم تخلو من صدق، وإنما هي تخلو من الرؤية التاريخية، ومن ثم فهي خالية من الفهم. ولأن ما حدث بعد ذلك قد حدث، فإن اليابانيين، ما يزالون

كلما قلَّ تواصل ثقافة مع أخرى، قلَّ إمكان أن تفسد إحداهما الأخرى، ولكن، من جانب آخر، يقلُّ كذلك إمكان أن تكتشف أيهما كل ما في الأخرى من ثراء ودلالات وتنوع، وتلك مفارقة لا حل لها.

كلود ليفي شتراوس
الأحزان الاستوائية، ١٩٥٥

اللازم من أولئك الذين لا يزالون يتشبثون بمواقعهم في أقصى اليمين المتطرف.

غير أن الأمور اليوم لم تعد بمثل هذه البساطة، والحق أنها لم تكن قط بالبساطة التي أرادها معظم اليابانيين، ومعظم الأمريكيين.

* * *

يوجد في طوكيو ثلاثة أحياء مجاورة، تحكي القصة المركبة التي لم يذكرها ماك آرثر، وهي وإن تكن غير مترابطة، فإنها معا تكمل الصورة لما تركه الأمريكيون وراءهم عندما انتهى الاحتلال رسميا في أبريل ١٩٥٢. وكلها كان يمكنني السير إليها من المنزل الخشبي الذي كنت أقيم فيه أثناء عامي الأخير في اليابان.

على ارتفاع منخفض فوق الأسطح الخزفية على طول الشارع الذي كنت أسكن فيه، تحلق طائرات هليكوبتر في خط طيران غير منضبط المواعيد، يبدأ في الصباح الباكر - عادة - ويستمر أحيانا حتى العاشرة أو الحادية عشرة مساء. كانت طائرات الهليكوبتر أمريكية، تخدم منطقة عسكرية صغيرة في أقصى حي روبونجي. وفي أثناء هبوطها، تختفي خلف عمارات سكنية وأبراج مكاتب، وبنايات متعددة الطوابق مليئة بالحانات. وكثيرا ما كنت أمر بجوار تلك القاعدة القديمة، وهي مجموعة من المباني ذات الأسطح المستوية، معزولة عن المحيط المجاور لها ببوابة ومبنى حراسة. وحتى ساعات متأخرة من الليل، يمكن رؤية بعض أضواء قليلة ساهرة، فما تزال الجريدة اليومية العسكرية الأمريكية ستارز آند ستريبس Stars and Stripes تُحرَّر هناك.

وإن سرت في الاتجاه الآخر، فإنني أمر في حي الموضة لأصل إلى جزء من حي يُسمى هاراجوكو Harajuku. وكان هاراجوكو لسنوات عدة قد اشتهر بأنه المكان الذي يستقبل جميع أشكال التقاليع القادمة من الخارج (وخاصة أمريكا). والبقعة التي كانت تستهويني في هذا الحي، التي أضيفت في التسعينيات، كانت تُسمى ساحة هاراجوكو لكرة السلة، التي يدل اسمها على واقعها، وهي ساحة إسفلتية تغطي أرضيتها جميع أنواع شعارات المشجعين الكرويين الغريبة والخرقاء، يحيطها سور من

نسير بين صفين من أشجار عيد الميلاد. والمزار مبني من الخشب البسيط على الطراز التقليدي، ولولا الزهور وأعود البخور، لبدا المكان خاليا. ينحني الزائرون في صلواتهم، ويصفقون مرتين بعد أن ينتهوا منها. وفيما عدا وقع الأقدام على الحصباء، لا يُسمع إلا صوت النقود المعدنية وهي تتساقط في صندوق خشبي قديم.

يرغب اليمين الياباني في أن يرى في هذا المزار النظير الياباني لمقبرة آرلنجتون (Arlington) في أمريكا، أو مقبرة فلاندرز في أوروبا. لكن ياسوكوني ليس بالبساطة التي يوحي بها مظهره، أو أي مقارنات مشابهة. ذلك أنه، بعد الحرب ، اعتبرت السلطات الأمريكية أن النهج الرسمي لديانة الشينتو مصدر أساسي من مصادرالنزوع القومي المتطرف. ومن ثم، لم تشجع العبادة في ياسوكوني. وإذ فصل دستور ما بعد الحرب الدين عن الدولة، فإنه منع المسؤولين من زيارة هذا المكان المقدس بصفتهم الرسمية. واليوم، يزور كثير من اليابانيين ياسوكوني لتوقير أسلافهم، ولكن المزار لا تزال فيه شبهة الممنوع.

خلف مزار ياسوكوني، وعلى أرض خضراء ممهدة بأناقة، يوجد متحف فيه معروضات لمغامرات متنوعة: أزياء رسمية لضباط، دانات مدافع، طائرة انتحارية (كاميكازي)(*). والبطاقات والشهادات الموضوعة على هذه المعروضات مكتوبة بلغة تناسب المقام. فمثلا تُستخدم كلمة «نحن» في التعبير عن الوفاء للموتى؛ كما يستخدمون كلمة «الأمة». ولكن هذه المفردات ليست بالبساطة التي توحي بها المظاهر أيضا، لأن اليمين الياباني كان قد استحوذ على ياسوكوني ومتحفه. ومن ثم، اعتَبَر أن هذه المفردات تحمل المعاني التي يقصدها، وليست التي تقصدها الأغلبية التي تتبنى التوجه الدولي.

فما الذي تنبئنا به هذه الأماكن الثلاثة؟ الخيط الذي يربط بينها هو التخلي، هو خلق فراغ. ففي القاعدة القديمة بالقرب من روبونجي نرى تخلي اليابان عن مسؤوليتها تجاه بقية العالم: وإن وُجدت أمور لا تتعلق بالتجارة، فليأخذ الأمريكيون الأمر على مسؤوليتهم. وفي هاراجوكو نرى التخلي عن الهوية، فلنحتفل برموز من تولوا أمر تعليمنا بعد الحرب،

(*) الطائرة التي كان يستعملها الطيارون اليابانيون في الأعمال انتحارية (المترجم).

الضرورية، وهي إحدى طريقتين تحمي أمريكا بهما اليابان: معاهدة الأمن التي تحمي اليابان من الآخرين، والمادة ٩ التي تحمي اليابانيين من أنفسهم.

هذا الدستور، ذو الـ ١٠٣ مواد، جدير بقراءة خاصة. فيه نغمة بلاغ توبيخي مطول، فهو مليء بالنواهي، كأنه مجموعة من الوصايا الكهنوتية: «لا يجوز استغلال الأطفال»، «لا يجوز انتهاك حرية الفكر والعقيدة»، «لا يجوز استخدام الرتب والألقاب»، «يجب ألا يوجد تمييز في العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية». يعيد دستور السلام هذا إلى الذاكرة صورة الجنرالات الذين يستعدون لخوض الحرب السابقة، ولا غرابة في ذلك، لأنه منحة لليابانيين من العسكريين الأمريكيين. ولا يمكن أن يكون وثيقة تأسيسية تُبنى عليها دولة. إنما هو في جوهره وثيقة نواه، للمصادرة على عودة يابان ما قبل الحرب. ومن خلال كل «نواهيه»، على «الشعب الياباني أن ينبذ الحرب إلى الأبد كحق سيادة للأمة»، وفقا لنص المادة ٩.

من الصعب المبالغة في غباء القواعد واللوائح التي تقيد قوات الدفاع الذاتي. فالمادة ٩ تحظر استخدام هذه القوات في أي أنشطة لا ينص عليها القانون. عندما أرسلت اليابان سفينة مراقبة إلى القارة القطبية الجنوبية، في أوائل الستينيات، كان لابد أولا من إعادة صياغة القوانين التي تحكم استخدام سفن الأسطول في مهمات معينة. وعندما استضافت طوكيو الدورة الأوليمبية بعد ذلك بسنوات قليلة، كان لابد من إعادة صياغة القانون مرة أخرى، لكي تتمكن عربات قوات الدفاع الذاتي من المساعدة في تنظيم المرور. وبعد زلزال كوبي في العام ١٩٩٥، انتظرت القوات يومين كاملين قبل الإقدام على مساعدة الضحايا، إلى أن ينتهي السياسيون والمسؤولون البيروقراطيون من الجدل ليصلوا إلى صياغة الكلمات الدقيقة للأوامر العسكرية المناسبة. وأكثر من كل هذا، طبعا، ثمة رد فعل اليابان الغريب في أزمة حرب الخليج الذي أثار الاستياء في العالم كله.

كذلك توجد مشكلة لغة، فاللغة الأصلية التي كُتب بها الدستور هي اللغة الإنجليزية، الأمر الذي يُعد مصدر شكوى دائمة من اليمينيين، فمن

يسمي الفرنسيون مثل هذا الكلام «نزعة ملائكية» angélisme. ولكن كثيرا من اليابانيين يتعلقون بفكرة أن بلدهم يمكن أن يدافع عن شيء جديد على ظهر هذا الكوكب، دور المبشر المسالم الذي يدعو إلى حل المشاكل بالدبلوماسية والعقلانية.

إلى أين أوصل التوجه العالمي اليابانيين؟ وما الذي تعلموه منه؟ ليس من الصعب الإجابة عن هذه الأسئلة من واقع النصف الثاني من القرن العشرين. إن دعاة التوجه العالمي، وقد اتخذوا من الدستور مرجعا مقدسا لهم، علموا اليابانيين أن أنسب دور لهم في الشؤون العالمية هو أن يظلوا بمنأى عنها. ذلك هو «التوجه الدولي» الذي هو السر الدفين في الارتباك الذي يصيب اليابانيين في محاولتهم للإجابة عن الأسئلة: من هم؟ وماذا يريدون؟ وما أهدافهم من النظام العالمي؟ إن التوجه الدولي هو ما يقترحه اليابانيون بديلا عن التميز الياباني الذي يتخلون عنه ليكون ملكا لليمين المتطرف. ولا عجب أنه ـ هنا، والآن ـ في هذا الزمن الرديء، ـ بنهاية القرن ـ أن وجد اليابانيون أنفسهم وقد وصلوا إلى لا شيء، لا يشعرون بالارتياح إلى أنفسهم، كما هم بالنسبة لبقية العالم. والفهم السليم للتوجه الدولي في اليابان هو اعتباره إحساسا بالخجل يوصل رسالة بسيطة إلى الآخرين: لا تثقوا بنا، فنحن لا نثق بأنفسنا.

كان العمدة موتوشيما رجلا مهذبا ورقيقا، يتميز بروح دعابة حاضرة. وكان أيضا مسيحيا، الأمر الذي يجعله أحد أفراد أقلية يبلغ عددها المليون أو نحو ذلك. ومثل غيره من اليابانيين المسيحيين، فهو قادر على أن يكوِّن رأيا في مجتمعه من مسافة كتلك التي ينظر من خلالها شخص خارجي. كما كان، مثل اليابانيين في معظم الأحوال، ميالا إلى التقليل من قدر نفسه، وفي الوقت نفسه ليس لديه حساسية إذا كان الأمر يتعلق بمواطن الضعف والفشل في اليابان. في اليابان، يصفون التلميذة الصغيرة المبالغ في رعايتها بأنها «هاكو إيري موسومي» hako iri musume، والمعنى الحرفي حسب قوله: «بنت في علبة». ويضيف موتوشيما: «هذا هو حال اليابان أيضا. ليست لنا تجربة كافية بالعالم الخارجي، وأحيانا نكون أنانيين. والحق أن اليابان تريد أن تساهم في المجتمع الدولي، ولكنها لا تعرف كيف».

أخرى. ولكن الحديث عن الدستور ـ على هذا النحو، أو التطرق إلى مصدره ـ مقصور على دوائر القوميين. وكان ثمة موضوعات أخرى لمحظورات ما بعد الحرب، ولكن ربما باستثناء الدور الحقيقي للإمبراطور في الحرب، كان دستور السلام هو أكثر هذه الموضوعات التي حظيت باهتمام.

بعد وقت، يطول أو يقصر، لا تشد هذه الأصوات الانتباه. وعن نفسي، لم أعد أنتبه إليها إلا عندما تتمكن ميكروفوناتهم المروعة من إفساد حديث يدور بيني وبين أحد اليابانيين. حينذاك يتوقف كلانا عن الحديث، وتبدو على محدثي مظاهر الحرج والضيق، فيصيبني الحرج من أجله. وفي مثل تلك اللحظات يلمع في الأذهان معنى الأصوات التي تصدرها شاحنات الضجيج، إنها أشبه بالسياسيين الذين يرفعون عقيرتهم أحيانا بادعاءات مضحكة عن عدالة الحرب. وكل واحدة من هذه الهجمات الخطابية، تذكِّر اليابانيين بخطر إحياء العسكرية، الماثل دائما. فكلما ارتفعت أصوات شاحنات الضجيج هجوما على الدستور الذي يثير حنقهم، بدت «نواهي» هذا الدستور شيئا ضروريا.

يعتبر الغرب أن هذا الخطر حقيقة مسلم بها. وحتى الآن تظهر في الصحف الجادة ـ بين الحين والآخر ـ تقارير تنذر بأن نزوعا عاطفيا قديما للسيف لم يُهذَّب، ولا يزال مختفيا تحت سطح محيط لا يُسبَر غوره، ألا وهو الروح اليابانية. منذ بضع سنوات، أجرى صحافي أمريكي مقابلة مع ضابط أمريكي كبير في أوكيناوا. سأل الصحافي لماذا لا يزال الأمريكيون موجودين في اليابان؟ السؤال بسيط، فالمبررات المعلنة، أو التاتيماي tatemae، معروفة تماما: فالأمريكيون هنا لحماية اليابان من جيران معادين، الكوريين الشماليين مثلا، أو الروس، أو الصينيين. ولكن الضابط الأمريكي أجاب إجابة مختلفة، مختصرة، ونزلت على رؤوس اليابانيين كالصاعقة قال: «لا أحد يريد يابانا ناهضة وقد استعادت تسلحها، فإن شئت قل إننا السدادة التي تغلق القمقم».

وهذا كلام لا يقبله عقل، كلام كبير ومبالغات غبية، ولكنها واسعة الانتشار نتيجة لكسل وبلادة فكرية. ونحن لا نستطيع أن نقبل مثل هذا الكلام إلا بعد أن نجيب عن السؤال: من ذا الذي ستهاجمه اليابان ولماذا إذا قُدِّر أن تستعيد «نهضتها» كاملة؟ وعندئذ لن نعثر على إجابة مقبولة،

عضو في الدايت (البرلمان) لمشاهدة عرض عسكري. والحق أنها كانت زيارة فتحت ذهني على أشياء: رأينا أمامنا مجموعة من الطوابير غير المنضبطة، يجد جنودها صعوبة في ضبط إيقاع خطواتهم العسكرية، ولايستطيعون ببساطة أن يحفظوا استقامة أبراج دباباتهم. وأي ضابط، يابانيا كان أو أمريكيا، يهمه أي قدر من مظاهر الاستعداد العسكري، سيأخذ الانطباع نفسه.

غير أنه يمكن أن ننظر إلى القوميين المتطرفين بمنظور آخر. صحيح أنهم يمكن أن يكونوا منكرين للتاريخ، ولمسؤوليتهم عنه، ولكن من الأمور التي خطرت لي بشدة، أنهم يستحقون أن يستمع الناس إليهم باهتمام أكبر: فخيول الحرب الشهباء المسنة هؤلاء، هم الذين يبقون على أفكار ومبادئ احترام الذات والسيادة الوطنية والخصوصية اليابانية، حتى وإن كانوا يقومون بذلك في أشكال لا يتجاوب معها إلا هم أنفسهم. فهم وحدهم الذين يدافعون عن هذه الأشياء، ويرسمون كاريكاتيرات لها. وقد انفردوا بهذا المجال لسبب وحيد، هو أن ذوي التوجه الأممي قد تركوه لهم.

إن اليابان، عفريت في علبة ينتظر الانعتاق، تتحمل الحياة وهي ليست على حقيقتها، عند الأجانب كما عند اليابانيين أنفسهم، ولكن بغض النظر عن هذه الفكرة المنطوية على مفارقة تاريخية، فإننا نصل إلى نتيجة واضحة، هي أن اليمينيين على صواب: فاليابان يجب أن تمزق الدستور الذي منحهم الأمريكيون إياه، وتبدأ من جديد بدستور من صنعها، ثم عليها ـ بعد ذلك ـ أن تقرر إن كانت تريد أن تعيد تسليح نفسها من دون قيود، فإن اختارت ذلك، فعليها أن تبدأ بأسرع ما يمكن.

ليس ثمة إلا عدد قليل من اليابانيين يمكن أن يوافقوا على مثل هذه المزاعم، التي يمكن أن تؤخذ على أنها نوع من التجديف، أفكار يروج لها أجنبي إما أن يكون متهورا جدا وإما أن يكون هو نفسه يمينيا متطرفا. ولكني قابلت عددا قليلا من اليابانيين لا يشعرون بالقلق، على نحو ما، في ظل القيود التي يعيشون فيها منذ الحرب، وهم لا يعتقدون بأن ثمة قلقا يجب معالجته. ويبدو كما لو أن اليمين المتطرف الذي لا يحظي بالاحترام يُعَبّر، وسط محترفي المسالمة والدولنة، عن الرغبات المكبوتة في الأمة كلها.

آخر في محله أيضا. وقبل أن يستدعي ترومان الجنرال ماك آرثر بقليل، العام ١٩٥١، قدم ناكاسوني للجنرال عريضة يطالب فيها بعقد معاهدة دفاعية على أسس ندِّية، كما يطالب بجلاء وشيك للقوات الأمريكية. ووفقا لرواية ناكاسوني، ألقى ماك آرثر تلك الوثيقة في سلة المهملات دون أن يلقي عليها نظرة، ولكن المحاولة جلبت له احتراما عميقا من جانب زملائه القوميين.

وكان ناكاسوني يستصغر شأن محظورات ونواهي ما بعد الحرب. لم يكن يرى سببا يجعل اليابان تتكوم مجردة من وسائل الدفاع عن نفسها، قابعة خلف الأمريكيين. وإذ اعتبر نفسه مكرسا للإمبراطور، وبحكم مكانته السياسية، لم يعمد إلى إخفاء مشاعره الوطنية. في أثناء معركته الانتخابية العام ١٩٤٧، كان يتجول على دراجة ترفع علم الشمس المشرقة التقليدي. وبمجرد انتخابه رئيسا للوزراء، بعد ذلك بخمسة وثلاثين عاما، لم يضيع وقتا ورفع ميزانية الدفاع الذاتي متجاوزا الحدود المألوفة. وفي ١٩٨٥، عندما ذهب إلى مزار ياسوكوني، في ١٥ أغسطس، وهو ذكرى التسليم، لم يترك مجالا للشك في أن زيارته رسمية مفجرا بذلك مساجلة حول فصل الدين عن الحكومة، وهي مساجلة ظلت تتكرر منذئذ حتى وقتنا هذا.

وكانت إعادة النظر في دستور ما بعد الحرب هي أقصى ما يطمح إليه ناكاسوني، الأمر الذي يتماشى تماما مع كل ما يصدر عنه من تحركات وسياسات. ولم تمض سوى أشهر قليلة على توليه منصب رئيس الوزراء إلا وكان قد طرح هذا الموضوع للبحث في اجتماع لليبراليين الديموقراطيين. وكما هو متوقع، أثار هذا موجة معارضة كبيرة من جانب الشعب والسياسيين. عندئذ تراجع ناكاسوني، ولم يكن تراجعه إلا لتلافي ما أسماه فيما بعد: «فورانا اجتماعيا فيه مضيعة للجهد والطاقة».

يعد ناكاسوني واحدا من الصقور، محافظا من النوع القديم، وقوميا: هذه صفات قد نختلف في انتقادها أو إطرائها، ولكن ليس هذا هو الموضوع. لم يلبث ناكاسوني أن أثار قلقا حقيقيا بين الأغلبية ذات التوجه الدولي. وكان قد فقد شعبيته عندما انتهت فترة رئاسته للوزارة. ذلك أن ذوي التوجه الدولي أصروا على أن اليابان يجب ألا تعود قط للماضي مرة أخرى. ولم يكن ذلك مقصد ناكاسوني على الإطلاق. ولم يتفهم نقاده الموضوع الأكبر. كانت مقترحات ناكاسوني بخصوص الدستور قد خلقت لحظة ربما أتاحت

موريتا Akio Morita، الرئيس المرموق لشركة سوني، نشر كتاب «**اليابان التي تستطيع أن تقول لا** The Japan that Can Say No». بمجرد صدوره، أحدث الكتاب في اليابان ضجة هائلة. وسرعان ما وصلت الموجات الصادمة إلى واشنطن، حيث ظهرت ترجمات إنجليزية مقرصنة، وقامت وزارة الدفاع (البنتاجون) بتلخيصه، للتوزيع المحدود، وقرأه الكونجرس وأثبته في المحضر - وكأنه وثيقة عجيبة، لدرجة أن وجودها نفسه يمكن أن يكون أمرا مشكوكا فيه. ولكن عندما عادت الأخبار لتقول أن الأمريكيين مهتمون كل هذا الاهتمام بقراءة اليابان التي تستطيع أن تقول لا، أحرجت اليابانيين، لدرجة أن موريتا تبرأ من مشاركته فيه.

وإذا تغاضينا عن الكلام الجارح الذي لا داعي له، فإن الفكرة الأساسية عند إيشيهارا هي أن طوكيو لها الحق في التعامل مع واشنطن على قدم المساواة، وأن على اليابان أن تدرك قدرها كقوة عالمية - وباختصار، على اليابان أن تستعيد سيادتها التي سلّمت فيها بعد الحرب. «نحن اليابانيين نواجه اليوم اختيارين: إما أن نتقدم إلى الأمام بشجاعة، وإما أن نرجع إلى الوراء صامتين». هذا ما كتبه إيشيهارا. ويستطرد: «إن الفضلات العالقة المتبقية من فترة ما بعد الحرب شديدة الوطأة على الوعي والضمير اليابانيين». أليست هذه صيغة أخرى تقفز فجأة أمامنا لأفكار ناكاسوني؟ ولكن، مرة أخرى يبدو وكأن شيئا لن يترتب على إثارة هذا التحدي الأساسي. فعلى جانبي المحيط الهادي، يبدو وكأن غالبية القراء على استعداد لعمل أي شيء إلا أن يعطوا الموضوع حقه من التفكير. فلا تزال «يابان» كاملة السيادة، مطلقة السراح، أمرا بعيدا تماما عن التصور.

وجاءت حرب الخليج لتغير ذلك. خلق اجتياح صدام حسين للكويت لحظة حرجة أخرى لليابان. لم تُحدِث أزمة الخليج تغييرا في الجدل الدائر حول الدستور، وإنما خلقته على نحو ما. فبعد حادث الخليج، أصبح من المسموح به لأول مرة مناقشة إحداث تعديلات حول دستور ماك آرثر. حدث ذلك في البداية بأسلوب حذر وغير مباشر. ربما قال عدد من أعضاء البرلمان إننا نستطيع أن نعدِّل المادة ٩ لكي يُسمح لليابان بأن تقوم ولو بدور صغير في شؤون الأمن الدولي. أو ربما نستطيع، ببساطة، أن نعيد تفسير الدستور بمعنى التحايل عليه كما سبق أن تم التحايل عليه والتلاعب ببعض بنوده فيما

بعد الحرب، ليس أمامنا إلا الحوار - الحوار من أجل الحوار... هكذا يمكن أن تكون علاقاتنا بالعالم أكثر طبيعية.

وكلمة «طبيعية»، في الوقت الذي قابلت فيه أوكاموتو، كانت مثقلة بالدلالات. وهي كلمة جعلها إيشيرو أوزاوا متداولة على نطاق واسع في الكتاب الذي نشره في ذلك الوقت، وعنوانه **مشروع لليابان جديدة**. ويطرح فيه السؤال: «ما هي الدولة الطبيعية؟»، ويجيب: إنها الدولة التي تنهض بنصيبها من المسؤولية، وتقيم علاقات تعاون مع غيرها. ثم يضيف ملاحظة:

وهي دولة لا ترفض تحمل أعبائها متعللة بوجود صعوبات سياسية داخلية. كما أنها ليست الدولة التي تُقدِم على الحركة تحت «ضغوط دولية» - وهي غير راغبة... غير أننا إذا فكرنا في الأعباء التي يجب أن تتحملها الدولة كعضو في المجتمع الدولي، فمن المشكوك فيه أن نعتبر أن اليابان قد قامت بمهامها على الوجه الذي يجعلنا نسميها «دولة» أصلا.

فهل كان اليابانيون، أخيرا، على استعداد لأفكار من هذا النوع؟ لقد أصبح واضحا بمرور الوقت أن الصراع في الخليج قد بدأ يغير كل شيء، بمعنى أنه بدأ يغير أفكار الناس. ولنأخذ مثلا صغيرا ما نشرته مطبوعة مانجا Manga بشأن ما سُمِّي **الخدمة العسكرية الصامتة** The Silent Service، بعد حرب الخليج بوقت قليل. ومانجا هي الدوريات المصورة الواسعة الانتشار التي تستغرق اليابانيين تماما، والمليئة بقصص العنف والحب وكل أنواع المغامرات. وهي إدمان سائد، لأنها منفذ للتنفيس عن قوم تربطهم قواعد سلوك اجتماعية جافة ومقيِّدة. الأمر الذي يجعل المانجا نوعا من الصورة العاكسة لأحوال اليابانيين، ووسيلة لتجميع واستكشاف التمنيات الفكرية للجماعة. وكانت **الخدمة العسكرية الصامتة** شديدة التعبير عن الحالة المزاجية حينذاك.

ومن السهل تلخيص القصة: يختطف فريق من البحارة اليابانيين غواصة بنتها اليابان بالاشتراك مع الولايات المتحدة، ويعلنون أن الغواصة دولة، يطلقون عليها اسم ياماتو، وهو الاسم القديم لليابان الذي لا يزال يثير الخيال والحماس. تكوِّن الغواصة - الدولة ياماتو تحالفا مع مجتمع التكنولوجيا المتطورة اليابانية المعاصرة، وتدخل حربا ضد الأمريكيين. تتشكل أحداث القصة وتتطور في أثناء صدورها، ويُطبع منها عشرون مجلدا تباعا، وحين مغادرتي لليابان كانت قد وزعت سبعة ملايين نسخة.

أمة ليس مسموحا لها بأن تقول «نعم»؟ ومن ذا الذي يثق فيها إن كانت هي لا تثق في نفسها؟

* * *

آخر مرة قابلت فيها يوكيو أوكاموتو، قال لي: «ولكن في الأمر شيئا من المخاطرة».

كنا نتحدث عن المسارات التي يمكن أن تسلكها «يابان» واثقة من نفسها. ولكن يبدو أنه لم يكن أنسب وقت لإعمال الفكر في يابان استعادت طاقتها وحيويتها. ذلك أنه في الخريف السابق تساءل أحد كبار ضباط قوة الدفاع الذاتي على الملأ إن كان انقلاب عسكري هو الحل الذي يضع نهاية لمسلسل الفضائح الذي لا ينتهي في ناجاتاشو(*). وبعد ذلك أقدم أحد أقطاب اليمين القدامى على إطلاق الرصاص على نفسه في اجتماع لمحرري جريدة أساهي شيمبون، وهي أكثر الصحف القومية اليومية حماسا وتأييدا لدستور السلام. ثم أعلن وزير العدل بعد قليل من توليه منصبه أن أحداث مذبحة نانكينج لم تكن بالبشاعة التي تصورها العالم.

لماذا لا يزال لمثل هذه الأحداث كل هذا الأثر في نفوس اليابانيين؟ منذ مجيئي إلى اليابان، كان من بين معارفي عدد من أعضاء اليمين المتطرف، وكذا بعض الأصدقاء، ليس لأنني اقتنعت بوجهة نظرهم، ولكن لأنهم - حتى آخر مدة إقامتي هناك - كانوا هم الوحيدين الذين على استعداد لمناقشة المشكلات الجوهرية: السيادة الوطنية، احترام الذات، الدستور. ولكني لم أعتبر قط أن هؤلاء الرجال المحترمين - بحلقات شعر رؤوسهم القصير الخشن، وستراتهم العتيقة اللامعة - يشكلون خطرا قوميا. وكلما ازدادت معرفتي بهم، ازددت اقتناعا بأن مثل هذه الفكرة لابد من أن تبدو عبثية حتى بالنسبة إليهم.

وشبهة وجود هذا الخطر ليست بلا هدف. فقد كان التهديد المفترض الذي يمثله اليمين سندا قويا للترتيبات والاتفاقات التي تبرمها واشنطن مع طوكيو بعد الحرب. فالعلاقات الحميمة بين اليمين المتطرف والصفوة السياسية ثابتة وموثقة، والحق أن الليبراليين الديموقراطيين ما يزالون قادرين على إطلاق

(*) الحي السياسي في طوكيو (المترجم).

وإنما ستكون له دائما وجهة نظر سياسية، أيديولوجيّة. لقد وضعنا مشروعا لمكتبة يمكن أن تجمع كل شيء عن الحرب، من مختلف الاتجاهات ـ من اليسار، واليمين، والتقدميين، والليبراليين، والمحافظين، جميعا. ولكن الحكومة تشددت».

والحصيلة أن موعد الاحتفالية، في العام ١٩٩٥، جاء دون أن يُقام أي مبنى تذكاري. بل ولم تتمكن الحكومة من عمل أي شيء انتظارا لأن تلتقي وجهات نظر جميع الأطراف: الجيران، واليمينيين، والمؤرخين. ويبدو لي أن هذا في حد ذاته أمر ذو دلالة كاشفة للحكاية بكاملها، وأبلغ تعبير يمكن أن يتصوره إنسان في هذه اللحظة. فغياب نُصب تذكاري بعد خمسين سنة من انتهاء الحرب والتسليم، هو في حد ذاته نُصب تذكاري فريد في نوعه ـ أو إن شئت قُل هو نصب مضاد. ذلك أن رفض الطريقة التي كُتب بها التاريخ وكُرِّس في ياسوكوني، أي رفض الطبعة الحكومية للتاريخ، خطوة هائلة كبداية لإعادة تصحيح ماضي اليابان بأسره.

قبل مغادرتي لليابان بوقت قليل، كانت آخر شاحنة أصوات رأيتها ـ في هاراجوكو بالذات ـ تلطخ جانباها بشعار مكتوب بحروف ضخمة: اطردوا العمال الأجانب، الذين ينتهكون «ثقافتنا» و«حضارتنا» و«تقاليدنا» و«تاريخنا». كانت العمالة الوافدة قد أصبحت مصدر شكوى جديدة بعد أن بدأت تصل بأرقام كبيرة منذ سنوات قليلة. وانفجرت كمادة للضجيج المحمول على الشاحنات، في الوقت نفسه تقريبا الذي انفجر فيه الشجار عند مزار ياسوكوني. شعرت بحبور خبيث وأنا أسجل هذا الشعار في مذكرتي، إذ تبيّنت فيه روابط مضمرة: اعتاد القوميون المتطرفون على قلب الحقائق، ولكن اليابانيين، وقد بدأوا يتعلمون كيف يتعاملون مع مثل هذه التمثيليات المبتذلة، لن يلبثوا أن يفهموها على حقيقتها. ووجود الأجانب سيكون خطرا على الثقافة والتقاليد والتاريخ ـ بمعنى خطر على الطبعة القومية المتطرفة لهذه الأشياء ـ فاليابانيون بدأوا يدركون أن تفهُّم الآخر وقبوله، مثل تفهُّم الماضي واستيعابه. كلاهما ضروري لتوجه دولي أصيل. وبالتدريج، يكتشف اليابانيون بين أنفسهم ما يكفي من الثقة بالنفس على الصعيدين الجمعي والفردي لكي يتخلصوا أخيرا من داء كراهية الذات التي يجدها المرء في قاع كأس اليمين المتطرف.

في هذا يتجاهلون التاريخ، كما هو شأنهم غالبا، فلم يروا أن اليابان، وهي أكثر حضارات العالم قدرة على التعلم، يمكن أن تستوعب أي شيء، وتظل دائما هي اليابان. ولا شيء تستورده اليابان من الخارج - لا عيدان الطعام ولا القانون الدستوري - يظل على حاله، بعد أن تستوعبه اليابان. وقبل ألف سنة من مجيء الأمريكيين، كان اليابانيون مغمورين في ثقافة الصين وحضارتها. ولكنهم لم يتحولوا قط ليصيروا صينيين.

وما أفكار اليابانيين الحقيقية عن الأمريكيين الذين يحتلون بلادهم؟ كمثال واضح، ماذا كان شعورهم عندما رأوا الصورة الفوتوغرافية الشهيرة لماك آرثر ومعه هيروهيتو؟ «كانت صدمة قاسية لنا جميعا»، هذا ما قاله ذات مرة، يوشيكازو ساكاموتو Yoshikazu Sakamoto، وهو أحد كبار مثقفي ما بعد الحرب، ومؤيد متحمس لدستور السلام. ويستطرد: «ها هنا أمريكي فارع الطول، في زي عادي، وإلى جانبه الإمبراطور قصير القامة، في سترة صباحية. رأينا الفجوة الهائلة بين الاثنين في السلطة الثقافية والبنية الجسدية». وظلت الصورة ثابتة وعالقة بالأذهان نصف قرن. غير أن مشاعر اليابانيين كانت دائما أكثر تعقيدا مما يتصور الأمريكيون. وعلى حد تعبير ساكاموتو: «صحيح أن ثمة إعجابا بالأشياء الأمريكية - الديموقراطية، والسيارات الفارهة، والمبردات - ولكنه إعجاب مصحوب بشعور بالنقص والحسد، وهي تركيبة يمكن أن تولد بسهولة إحساسا بالكراهية».

وغالط الأمريكيون أنفسهم بشأن أنفسهم، أيضا - وتلك نقطة لا تقل أهمية - وهم لا يزالون يغالطون أنفسهم حتى الآن. فالأمريكيون بعد أن أعادوا تنصيب الزمرة السياسية لما قبل الحرب في السلطة لمدة خمسين عاما، وأعفوا الإمبراطور من مسؤولية جرائم الحرب، فإنهم هم المسؤولون إلى حد بعيد عن النظام السياسي الموبوء الذي ابتليت به اليابان منذئذ. وبدلا من أن يساعد الأمريكيون اليابانيين في إرساء أسس ديموقراطية ذات صلاحية وكفاءة، فإننا نراهم يعتمدون على غياب الممارسة الديموقراطية كما يحدث على سبيل المثال في أوكيناوا. فنحن نفضل سيكولوجية الاعتماد على الغير التي تعززها النخبة السياسية. والحصيلة

الروابط الشديدة الإحكام التي تربط اليابان بالولايات المتحدة. ولكن الجميع تقريبا يتبينون أن الأوضاع الراهنة قد وصلت إلى نهايتها المنطقية، إن لم تكن قد تجاوزتها. ولكي تكون العلاقات بين البلدين صحية، لابد أن تكون أكثر تباعدا.

وكلا الطرفين يخاف خوفا كبيرا من إحداث تغيير من هذا النوع. وهذه نتيجة حتمية بعد مرور كل هذه السنين من عدم التغيير نهائيا. ومع ذلك، لا يمكن أن توجد ضوابط إلا باختيار اليابانيين أنفسهم. فأمريكا لا تستطيع فك وثائق اليابانيين إلا بشرط أن يقيموا دولة من النوع الذي تريده لهم أمريكا. فما الذي يثير قلق الأمريكيين ويستدعي إبقاءهم على ما يقرب من خمسين ألف عسكري على أرض اليابان؟ ليس هو المارد العسكري الحبيس، بالتأكيد، فلم يعد أحد يصدق هذا. وإنما ما يثير قلق الأمريكيين، الآن كما في السابق، هو اللامبالاة، والمنافسة التي تصحبها. إن ما يقلقهم هو يابان لها تصورها الخاص لخريطة المحيط الهادي، ولا يعنيها التصور الأمريكي للمنطقة. ويجب أن نسلم بأن هذا هو الخوف الأكثر واقعية. وقد كان احتمال حياد اليابان في الحرب الباردة كابوسا يؤرق واشنطن. أما ما يؤرق واشنطن اليوم، فإنها اليابان القادرة على المنافسة؛ اليابان القوية والتي يستعصى احتواؤها اقتصاديا. فإذا أخذنا في الاعتبار مصالح اليابان الكبيرة في الخارج، فإننا قد نتبين أن يابانا غير مبالية ليست احتمالا واقعيا اليوم مثلها مثل ما هو غير واقعي أن تكون «يابانا» عسكرية. وفي كلتا الحالين، ليس للقوات الأمريكية ما تفعله. وفي جميع الأحوال، لا يستطيع الأمريكيون أن يدعوا أن المشكلة تخصهم والقرار قرارهم.

ولا يبدو أثر لهذه الاعتبارات في سياسة أمريكا الحالية تجاه اليابان. فأمريكا، وقد انتهت الحرب الباردة، تقدم مبررات جديدة كثيرة لترك كل شيء على حاله. صحيح أن اليابان تعيش مع جيران لا يدعون للاطمئنان، ولن تنتهي المشكلات في يوم وليلة. بينما أكتب هذه السطور، أقدمت بيونج يانج (عاصمة كوريا الشمالية) من جانب واحد على إلغاء المنطقة المنزوعة السلاح بينها وبين كوريا الجنوبية. وتقوم الصين بتعظيم قدراتها الاقتصادية والعسكرية على نحوٍ قد يحول بقية المنطقة إلى أكبر سوق

جيدا أن هذا التحالف العسكري لا بأس به ما دامت الحاجة لا تدعو إلى تطبيقه في ظروف أزمة. أما إذا طُبِّق، ولو مرة واحدة، بمعنى أنه إذا بدأ الجنود والطيارون الأمريكيون يموتون في سبيل حماية اليابان في أي موضع من منطقة الباسيفيك، بينما اليابانيون يواصلون، ببساطة، إنتاج الووكمان والهوندا للتصدير، فالأرجح جدا أن يؤدي هذا إلى تدمير العلاقات بين اليابان وأمريكا إلى أجل بعيد. وبهذا المعنى، تصبح معاهدة الأمن وثيقة تجاوزتها الأحداث والزمان، ولكنها خطرة.

ووراء هذه المشكلات العملية، تكمن مشكلة أخرى، وتلك أصعب المشكلات جميعا، وهي التي بدأنا هذا الكتاب بالإشارة إليها. وهي التي يمكن أن نسميها «الاستشراق»، وإن كان ثمة تسميات أكثر فظاظة ـ طبعا. هل يمكن أن تتخاطب واشنطن مع لندن وباريس وبون بالأسلوب نفسه الذي تخاطب به طوكيو؟ هذا أمر لا يخطر على البال. وهل تتفاوض واشنطن في الشؤون الأمنية والدبلوماسية مع أوروبا، أو تكتفي بإرسال الأوامر عبر الأطلنطي، كما تفعل ـ بشكل أو بآخر ـ مع طوكيو؟ في اليابان، لا يتساءل المرء إن كانت السياسات والسلوكيات الأمريكية تشوبها تحيزات عنصرية طيلة فترة ما بعد الحرب: هذا أمر شديد الوضوح على الجانب الغربي من المحيط الهادي.

إذا تأملنا قرنين من خبرة الأمريكيين بآسيا، فإن سلوكهم الحالي لا يدعو للدهشة. بدأ هذان القرنان بالعام ١٧٨٤، عندما أبحر أول أمريكيين إلى الصين وهم متلهفون على استثمار أسواقها، (بما في ذلك سوق الأفيون)، وواصلنا طريقنا عبر فتحنا لليابان، والاستحواذ على الفلبين، ودحر اليابان واحتلالها، ثم هزيمتنا في فيتنام. ولم تحدث في كل هذه التطورات أي مبادرة مقنعة من جانبنا تنبئ بالخروج عن وقاحة الاستعلاء، أي التخلي عن الاستشراق الذي تلبَّسَنا عن طريق المستعمرين الأوروبيين. واليوم، يطرح مثل هذا التخلي مشكلة النفوذ ومدى استعدادنا للاعتراف بأن اليابان وبقية آسيا قد ولجت قرنها كما سبق أن كان لنا قرننا. واليوم يهرش مخططو السياسات في واشنطن أدمغتهم في حيرة متسائلين: لماذا بدأت الأحوال تشوبها المرارة في شرق آسيا في الوقت الذي بدأت فيه المنطقة تنهض وتزداد قوة وأهمية؟ هكذا نواجه المأزق نفسه الذي يواجهه

خاتمة

في ريف الأرز الغني، في مقاطعة نيجاتا، وخلف جدران عالية وبوابة خشبية نالت منها التقلبات الجوية عبر الزمن، يوجد منزل كبير كان في وقت مضى سكنا لأكبر ملاك الأراضي في اليابان. وأصبح هذا المجمع السكني الآن متحفا للمقتنيات العائلية، يوجد بينها ستارتان يرجع تاريخهما إلى حوالى العام ١٦٠٠، ويسمونهما نامبان بيوبو namban byobu، والمعنى الحرفي «ستارتا البرابرة الجنوبيين»، حيث تصوران أول من وصل إلى الأراضي اليابانية من الغرب : بحارة، وتجارا، وقساوسة قدموا عن طريق البحار الجنوبية.

على ستارة منهما، ينزل عدد من الأوروبيين من سفينة سوداء، يلبس كثير منهم أردية رهبان الجيزويت السوداء. أنوفهم طويلة، ووجوههم بيضاء كالطباشير. الأراضي البعيدة على اللوحة تبدو لا شكل محدد لها ولا ملامح، أما الأرض التي وصل إليها

لا جدوى من محاولة إثبات أن التقدم الاجتماعي يحدث من تلقاء نفسه، إنما هو في الواقع قفزة إلى الأمام تحدث عندما يكون المجتمع قد عقد العزم على الإقدام على التجربة، كما لا جدوى من محاولة إثبات أن هذه القفزة إلى الأمام لا تنطوي على جهود خلاقة. ... فمثل هذه المحاولات تعني أننا نغفل أن معظم الإصلاحات الكبرى كانت تبدو لأول وهلة غير عملية، والحق أنها كانت تبدو كذلك.

هنري برجسون

منابع الأخلاق والدين، ١٩٣٢

رفعوها أمام أعين الغرب. ويبدو أنهم مستعدون للنظر إلى أنفسهم برؤية جديدة، وهي خطوة أكثر أهمية ـ بما لا يُقارن ـ من أي رؤية جديدة يمكن أن يقدمها شخص من الخارج.

يعلق المهندس المعماري كيشو كوروكاوا خريطة لطوكيو على جدار مرسمه. إنها مشروع لإعادة تخطيط العاصمة. على هذا المشروع جزر صناعية في خليج طوكيو (ما تزال غير موجودة)، وكذا شبكة من القنوات القديمة التي كانت تجري فيها المياه، ولكنها رُدمت في العصر الحديث. وهكذا، فإن ما يعلقه كوروكاوا على الجدار هي خريطة لماضي المدينة ومستقبلها معا. وهي قبل كل شيء، مكان يُرجى أن يتطلع العالم إلى المجيء إليه ورؤيته، هكذا يقول كوروكاوا، كما سبق أن انجذب العالم إلى فيينا ولندن وباريس وبرلين ونيويورك. ويقول «المدن مجتمعات، إذا تغيرت المجتمعات تتغير المدن، هذه فكرة ليست غريبة».

وثمة رؤية أخرى للمستقبل: اليابان التي تساهم في خلق توازن إيكولوجي عالمي أكثر صحية، في طريق عودة الجنس البشري لعلاقة صادقة وحميمة مع الطبيعة. وأخذا لكشف حساب اليابان مع البيئة في الاعتبار، فإن هذه الفكرة تبدو مستحلية. ومع ذلك، فإن اليابان لم تتعلم السعي إلى قهر الطبيعة إلا بعد التحديث، (أو هو التغريب)، وهو سعي لم يعد أحد منا بقادر على المضي فيه. يقول إيشيرو أوزاوا في كتابه **مشروع ليابان جديدة**: «إن اليابان مؤهلة بصفة خاصة لقيادة المسيرة العالمية من أجل استعادة صحة البيئة، وعلينا أن نأخذ المبادرة في هذا المجال».

هذان حلمان، صورتان من صنع الخيال لليابان. وتوجد أحلام أخرى يشترك في صناعتها يابانيون كثيرون. تتضمن كل هذه الأحلام، جهدا حثيثا للنهوض ، لاستعادة أشياء من التاريخ، واستكشاف أساليب أخرى للحياة والتفكير. ومع ذلك، فإن كلا من هذه الأفكار تؤكد أن يابانا جديدة وحقيقية لديها ما تقدمه للعالم. وكل منها، تعبر عن فكرة أن اليابان مهيأة للتقدم متجاوزة الفرضية القديمة التي تقول إن ما هو حديث هو، بالتعريف، ما هو غربي.

لا جدوى من التنبؤ بالمستقبل، كما أنه عملية غير مأمونة العواقب، خاصة في عالمنا الذي «يتعولم»، حيث يؤكدون أنه لا بديل عن فقدان

من خلف ستائرهم ومراوحهم، أن «يقدموا أكثر»، وأن يكون لهم «دور عالمي». ونريد في الوقت نفسه أن نكبحهم. فقد كانت اليابان دائما - بالنسبة لنا - هي التي تقلدنا وتسير على خطانا. وآخر مرة حاولت أن تؤكد نفسها، كانت مأساة استمرت خمسة عشر عاما (١٩٣١ - ١٩٤٥). ونحن لا نرحب بنفوذهم. وفي اللحظة الراهنة، نحن لا نتقبل منهم إلا أموالهم، ثم نتهمهم مرة بأنهم يحاولون شراء المسؤولية بالمال، أو أنهم يحاولون الهروب منها بالمال.

ولكن ازدواجيتنا لا يضاهيها إلا ازدواجية اليابانيين أنفسهم. صحيح أنهم سينضمون إلى العالم ببطء، بعد أن عاشوا كل هذا الزمان بعيدا عنه، ولكن سيحدث شيء يهزهم ويهزنا جميعا، سيحدث تطور له طبيعة عملية خالصة: كأن تحتل اليابان مقعدا دائما في مجلس الأمن، أو تُقدم على مبادرة في لحظة حرجة، أو تصدر دستورا جديدا، أو أن يبزغ نظام سياسي جديد. وحينذاك، نتحقق أن اليابانيين الذين من صنع الخيال قد بدأوا يصبحون حقيقة، أن الصورة أصبحت هي الأصل، وأن حياة الذين قلدونا أصبحت حياتهم بالأصالة عن أنفسهم.

إمبراطوري في الشمال، وآخر في الجنوب، يدعي كل منهما أنه صاحب السلطة الشرعية.

١٣٣٨ ـ ١٥٦٨ عصر الدول المتحاربة WARRING STATES PERIOD

ويسمى أيضا عصر موروماشي Murimachi، يحكم شوجون الـ «آشيكاجا» Ashikaga shogun. تنتقل الإدارة العسكرية إلى كيوتو.

١٣٦٣ ـ ١٤٤٣ حياة زي ـ آمي Ze-ami، أعظم أساتذة مسرح نوه Noh.

١٣٩٢ الشوجون يوشيميتسو آشيكاجا Yoshimitsu Ashikaga، يعيد توحيد إمبراطوريتي الشمال والجنوب.

١٤٦٧ ـ ١٤٧٧ تبدأ حرب أونين Onin War، بين الإقطاعيين المتنافسين، لتستمر لما يزيد على قرن من الحروب.

١٥٤٢ أول أوروبيين يصلون إلى الشاطئ الياباني، عند كيوشو.

١٥٤٩ يصل القديس فرنسيس زافير Francis Xavier، من جوا Goa.

١٥٦٨ ـ ١٦٠٠ فترة موموياما MOMOYAMA PERIOD

تمتص اليابان صدمة التجار والإرساليات التبشيرية الأوروبية. ثلاث قوى توحيدية تتنافس على السلطة.

١٥٦٨ نوبوناجا أودا Nobunaga Oda، جنرال إقطاعي (دايميو)، يهاجم كيوتو، منهيا حكم شوجونات آشيكاجا، ويوحد اليابان.

١٥٧١ تبدأ ناجازاجي العمل كميناء للتجارة الأجنبية.

١٥٨٢ اغتيال نوبوناجا أودا، ويتولى العرش أحد قواده، هيديوشي تويوتومي Hideyoshi Toyotomi.

١٥٨٧ بدء اضطهاد المسيحيين، فصل السامورای عن الفلاحين رسميا، حملة تفتيش عن السيوف ونزع سلاح الفلاحين.

١٥٩٢ محاولة غزو فاشلة لشبه جزيرة كوريا.

١٦٧٢	العالم الكونفوشي إكن كايبارا Ekken Kaibara، ينشر كتاب **أونّا دايجاكو Onna Daigaku**، (**دروس موسعة للنساء**).
١٧٠١ ـ ١٧٠٣	٤٧ رونين (سامـوراي بلا سـادة)، يقـودهم أحـد مـريدي سـوكـو ياماجـا، ينتـقـمـون لموت سـيـدهم الإقطاعي، بادئين أطول أساطير اليابان الرسمية عمرا عن ولاء الساموراي.
١٧٢١	تنظيم المزارعين في القرى إلى مجموعات من خمسة رجال، تشكل نظاما للتجسس يغطي المجتمع كله.
١٧٥٣ ـ ١٨٠٦	حياة كيتاجاوا يوتامارو Kitagawa Utamaro(*)، أول طابعي الأحرف العظام.
١٧٦٠ ـ ١٨٤٩	حياة كاتسوهيكا هوكوساي Katsuhika Hokusai(*).
١٧٦٧ ـ ١٨٥٨	حياة آندو هيروشيجي Ando Hiroshige(*).
١٨٥٣	يصل الكومودور الأمريكي ماثيو بيري إلى أوراجا Uraga، جنوب طوكيو، والشوجونات في حالة من التحلل الشديد.
١٨٥٨	توقّع طوكيو معاهدات غير متكافئة مع الولايات المتحدة، وبريطانيا، وهولندا، وروسيا، وفرنسا.
١٨٦٨ ـ ١٩١٢	**عصر الميجي MEIJI PERIOD** دخول اليابان عصرها الحديث، بناء دولة مركزية، وجيش عصري، واقتصاد صناعي.
١٨٦٧ ـ ١٨٦٨	الإصلاح الميجي، قبيلتان محليتان، الساتسوما Satsuma، والتشوشو Choshu، تنقلبان على الشوجون الأخير من أسرة توكوجاوا، ويعيدان الإمبراطور إلى السلطة. يصدر الإمبراطور الجديد قسم الميثاق، وينتقل البلاط الإمبراطوري إلى إدو، طوكيو الحالية.
١٨٧٠	السماح بالألقاب العائلية للعامة.

(*) الأسماء بنظام الترتيب الياباني، وهؤلاء الفنانون معروفون ـ عادة ـ بالأسماء التي اطلقت عليهم أو التي اختاروها.

١٨٩٠ اجتماع مجلس النواب الإمبراطوري (الدايت)، إصدار المرسوم الإمبراطوري عن التعليم.

١٨٩٤ ـ ١٨٩٥ الحرب الصينية ـ اليابانية، اليابان تستولي على فرموزا (تايوان).

١٨٩٩ تجديد المعاهدات غير المتكافئة.

١٩٠٤ ـ ١٩٠٥ الحرب الروسية ـ اليابانية، انتصار الأسطول الإمبراطوري يدلل على أن اليابان أصبحت قوة عسكرية عظمى.

١٩٠٦ تشغيل خط سكك حديد جنوب منشوريا.

١٩١٠ اليابان تضم كوريا، التوصل إلى اتفاق مع روسيا حول مناطق النفوذ على أراضي القارة الآسيوية.

١٩١٢ وفاة الإمبراطور ميجي.

١٩١٢ ـ ١٩٢٦ **عصر تايشو** **TAISHO PERIOD**

يتميز العصر بالانفتاح على الغرب، وهو انفتاح لن تصل إلى مثيله حتى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية. الحداثة الأوروبية تؤثر في الفن والثقافة، وكذا يؤثر التياران الاشتراكي والديموقراطي في الشؤون السياسية والاجتماعية. تتشكل طبقة وسطى مدينية، وتبزغ أولى الحركات النسائية، واضطراب صناعي يصحب التطور الاقتصادي.

١٩١٢ تكوين اتحاد يوايكاي Yuaikai، جمعية الصداقة، وتصبح أول نقابة عمالية على الصعيد القومي.

١٩١٨ يتسبب التضخم في قيام مظاهرات في جميع أنحاء البلاد. تستقيل الوزارة، ويبدأ تاكاشي هارا Takashi Hara، وهو أول رئيس وزراء يختار من خارج دائرة النبلاء وأصحاب الألقاب، يبدأ فترة قصيرة لحكم حزبي، يطلق عليها اليوم اسم فترة «ديموقراطية تايشو».

١٩٢١ اغتيال هارا. رجال الدولة الكبار لعصر الميجي يموتون واحدا بعد الآخر، يتزايد التوتر بين

١٩٣٦	حادث ٢/٢٦، سُمي طبقا لتاريخه: يحتل ضباط الجيش وسط طوكيو. يُغتال عدد من كبار الموظفين قبل أن يفشل الانقلاب.
١٩٣٧	حادث جسر ماركو بولو: المعارك بالقرب من بكين تبدأ حربا شاملة. الاستيلاء على نانجينج، التي كانت مسرحا لأسوأ أحداث الباسيفيك وأكثرها وحشية وبشاعة.
١٩٣٨	تشكيل جمعية سانبو Sanpo، الجمعية الصناعية الوطنية، وحل اتحادات العمال رسميا في العام التالي.
١٩٣٩	الحرب في أوروبا (الحرب العالمية الثانية)، أول سبتمبر.
١٩٤٠	اندماج الأحزاب السياسية في «رابطة تأييد الحكم الإمبراطوري» Imperial Rule Assistance Association. الجيش يجتاح الهند الصينية الفرنسية.
١٩٤١	تجميد الأرصدة اليابانية في أمريكا. الجنرال هيديكي توجو Hideki Tojo يصبح رئيسا للوزراء. الهجوم على بيرل هاربور في ٧ ديسمبر.
١٩٤١ ـ ١٩٤٥	حرب الباسيفيك
١٩٤٥	ضرب هيروشيما ونجازاكي بالقنبلتين الذريتين. استسلام اليابان. وصول الجنرال دوجلاس ماك آرثر إلى طوكيو كقائد أعلى لقوات الحلفاء. بدء الاحتلال الأمريكي.
١٩٤٦	الإمبراطور يتخلى عن مكانته كإله مقدس. أول انتخابات بعد الحرب، النساء يشاركن في الانتخابات لأول مرة. بدء إصلاحات ما بعد الحرب. بدء حركة تطهير بالجيش والوظائف العامة والنخبة السياسية.
١٩٤٧	تحويل الدستور الجديد إلى قانون. الجنرال ماك آرثر يحظر إضرابا عاما، وهي أولى علامات التراجع عن برنامج الإصلاح الذي وُضع في البداية.

١٩٨٦ ـ ١٩٩٠ يبدأ الاقتصاد أطول فترات الازدهار بعد الحرب، اقتصاد الفقاعة. مجموع استثمارات رأس المال هي الأكبر من نوعها في التاريخ البشري.

١٩٨٩ وفاة هيروهيتو.

١٩٨٩ **عصر هيساي** **HEISEI ERA**

منذ استهلاله، يتميز العصر بإعادة تنظيم أساسية للمجتمع الياباني.

١٩٨٩ تجبر الفضائح نوبورو تاكيشيتا Noboru Takeshita، وخليفته، على الاستقالة من رئاسة الوزراء. سقوط حائط برلين. نظام ١٩٥٥ السياسي يبدأ في التداعي.

١٩٩٠ صدام حسين يجتاح الكويت.

الديموقراطيون الليبراليون يفقدون الأغلبية في المجلس النيابي الأعلى. النساء يدخلن الهيئة التشريعية بأعداد لم تحدث منذ ١٩٤٦. يبدأ الاقتصاد في الانزلاق إلى أسوأ مواقع الركود منذ الحرب.

١٩٩١ أكيهيتو يرتقي العرش.

١٩٩٣ انتخاب موريهيرو هوسوكاوا Morihiro Hosokawa رئيسا للوزراء، مُنهيا ثمانية وثلاثين عاما من حكم الديموقراطيين الليبراليين.

١٩٩٤ كنزابورو أو يفوز بجائزة نوبل.

١٩٩٥ زلزال كوبي.

١٩٩٦ انتخابات عامة تعيد الديموقراطيين الليبراليين إلى السلطة.

Broadbridge, Seymour. *Industrial Dualism in Japan: A Problem of Economic Growth and Structural Change.* Chicago: Aldine Publishing Co., 1966.

Buraku Kaiho Kenkyusho (Buraku Liberation Research Institute), ed. *Long-Suffering Brothers and Sisters, Unite!: The Buraku Problem, Universal Human Rights, and Minority Problems in Various Countries.* Osaka: Buraku Liberation Research Institute, 1981.

———. *The Road to a Discrimination-Free Future: The World Struggle and the Buraku Liberation Movement.* Osaka: Buraku Liberation Research Institute, 1983.

———. *The United Nations, Japan and Human Rights.* Osaka: Buraku Liberation Research Institute, 1984.

Buruma, Ian. *A Japanese Mirror: Heroes and Villains of Japanese Culture.* London: Jonathan Cape, 1984.

———. *The Wages of Guilt: Memories of War in Germany and Japan.* New York: Farrar, Straus and Giroux, 1994.

Centre Georges Pompidou and Marina Lewisch, *chargée d'edition. Tadao Ando.* Paris: Editions du Centre Pompidou, 1993.

Chamberlain, Basil Hall, trans. *Ko-Ji-Ki: Record of Ancient Matters.* London: The Japan Society, 1882.

Chapman, William. *Inventing Japan: The Making of a Postwar Civilization.* New York: Prentice Hall Press, 1991.

Chatterjee, Partha. *Nationalist Thought and the Colonial World.* Minneapolis: University of Minnesota Press, 1986, 1993.

———. *The Nation and Its Fragments: Colonial and Postcolonial Histories.* Princeton: Princeton University Press, 1993.

Chosakyoku, Keizai Kikakucho. *Chiiki Keizai Reporuto* (Local Economy Report). Tokyo: Okurasho Insatsukyoku, 1992.

Christopher, Robert C. *The Japanese Mind: The Goliath Explained.* New York: Linden Press, Simon and Schuster, 1983.

Coaldrake, William H. *Architecture and Authority in Japan.* London and New York: Routledge, 1996.

Cohen, Theodore. *Remaking Japan: The American Occupation as New Deal.* Edited by Herbert Passin. New York: The Free Press, 1987.

Collcutt, Martin, Marius Jansen, and Isao Kumakura, eds. *Cultural Atlas of Japan.* Oxford: Equinox; New York: Facts on File, 1988.

Collingwood, R. G. *The Idea of History.* Rev. ed. Edited by Jan van der Dussen. Oxford and New York: Oxford University Press, 1946, 1993.

Cooper, Michael, S. J., ed. *They Came to Japan: An Anthology of European Reports on Japan, 1543–1640.* Berkeley, Los Angeles, and London: University of California Press, 1965, 1981.

Craig, Albert M., and Donald H. Shively, eds. *Personality in Japanese History.* Ann Arbor: Center for Japanese Studies, University of Michigan, 1995.

Crowley, James B., ed. *Modern East Asia: Essays in Interpretation.* New York: Harcourt, Brace & World, 1970.

Crump, John. *The Origins of Socialist Thought in Japan.* London and Canberra: Croom Helm; New York: St. Martin's Press, 1983.

Fairbank, John K., Edwin O. Reischauer, and Albert M. Craig, eds. *East Asia: The Modern Transformation*. Modern Asia Edition. Boston: Houghton Mifflin; Tokyo: Charles E. Tuttle, 1965.

Fallows, James. *Looking at the Sun: The Rise of the New East Asian Economic and Political System*. New York: Pantheon Books, 1994.

Feinberg, Walter. *Japan and the Pursuit of a New American Identity: Work and Education in a Multicultural Age*. New York and London: Routledge, 1993.

Field, Norma. *In the Realm of a Dying Emperor: A Portrait of Japan at Century's End*. New York: Pantheon Books, 1991.

Frost, Ellen L. *For Richer, For Poorer: The New U.S.-Japan Relationship*. New York: Council on Foreign Relations, 1987.

Fujii, James A. *Complicit Fictions: The Subject in the Modern Japanese Prose Narrative*. Berkeley, Los Angeles, and London: University of California Press, 1993.

Fujita, Juniko, and Richard Child Hill, eds. *Japanese Cities in the World Economy*. Philadelphia: Temple University Press, 1993.

Fukutake, Tadashi. *The Japanese Social Structure: Its Evolution in the Modern Century*. 2d ed. Tokyo: University of Tokyo Press, 1989.

Fukuyama, Francis. *The End of History and the Last Man*. New York: Free Press, 1992.

Fukuzawa, Yukichi. *An Encouragement of Learning*. Tokyo: Sophia University, 1969.

———. *The Autobiography of Yukichi Fukuzawa*. Tokyo: Hokuseido Press, 1981.

Futabatei, Shimei. *Japan's First Modern Novel:* Ukigumo *of Futabatei Shimei*. Ann Arbor: Center for Japanese Studies, University of Michigan, 1990.

Gayn, Mark. *Japan Diary*. Rutland and Tokyo: Charles E. Tuttle, 1981, 1984.

Gessel, Van C. *Three Modern Novelists: Soseki, Tanizaki, Kawabata*. Tokyo and New York: Kodansha International, 1993.

Gibney, Frank. *Five Gentlemen of Japan: The Portrait of a Nation's Character*. Rutland and Tokyo: Charles E. Tuttle, 1953, 1984.

———. *Japan: The Fragile Superpower*. Rev. ed. New York: New American Library, 1979, 1980.

———, ed. *Senso: The Japanese Remember the Pacific War, Letters to the Editor of* Asahi Shimbun. Armonk and London: M. E. Sharpe, 1995.

Gluck, Carol. *Japan's Modern Myths: Ideology in the Late-Meiji Period*. Princeton: Princeton University Press, 1985.

Gluck, Carol, and Stephen R. Graubard, eds. *Showa: The Japan of Hirohito*. New York: W. W. Norton, 1992.

Gong, Gerrit W., ed. *Remembering and Forgetting: The Legacy of War and Peace in East Asia*. Washington, D.C.: Center for Strategic & International Studies, 1996.

Gordon, Andrew. *The Evolution of Labor Relations in Japan: Heavy Industry, 1853–1955*. Cambridge, Mass., and London: Council on East Asian Studies, Harvard University, 1988.

———, ed. *Postwar Japan As History*. Berkeley, Los Angeles, and Oxford: University of California Press, 1993.

Goto, Takanori. *Japan's Dark Side to Progress: The Struggle for Justice for the Pharmaceutical Victims of Japan's Postwar Economic Boom*. Chiba: Manbousha Publications, 1991.

بيليوجرافيا

Hofheinz, Roy, Jr., and Kent E. Calder. *The Eastasia Edge.* New York: Basic Books, Inc., 1982.

Holstein, William J. *The Japanese Power Game: What It Means for America.* New York: Charles Scribner's Sons, 1990.

Honda, H. H., trans. *The Manyoshu: A New and Complete Translation.* Tokyo: The Hokuseido Press, 1967.

Honda, Katsuichi. *The Impoverished Spirit: Selected Essays.* New York: Monthly Review Press, 1993.

Horio, Teruhisa. *Educational Thought and Ideology in Modern Japan: State Authority and Intellectual Freedom.* Tokyo: University of Tokyo Press, 1988.

Hosokawa, Morihiro. *The Time to Act Is Now: Thoughts for a New Japan.* Tokyo: NTT Mediascope, 1993.

Hunt, Morton. *The Natural History of Love.* Rev. ed. New York: Doubleday, 1959, 1994.

Huntington, Samuel P., et al. *The Clash of Civilizations?: The Debate.* New York: Council on Foreign Relations, 1993.

Ibuse, Masuji. *Black Rain.* Tokyo and New York: Kodansha International, 1969, 1988.

Ienaga, Saburo. *Japanese Art: A Cultural Appreciation.* New York: Weatherhill; Tokyo: Heibonsha, 1979.

———. *The Pacific War, 1931–1945: A Critical Perspective on Japan's Role in World War II.* New York: Pantheon Books, 1978.

Iijima, Takehisa, and James M. Vardaman, Jr., eds. *The World of Natsume Soseki.* Tokyo: Kinseido, 1987.

Ikegamai, Eiko. *The Taming of the Samurai: Honorific Individualism and the Making of Modern Japan.* Cambridge, Mass., and London: Harvard University Press, 1995.

Ikku, Jippensha. *Shank's Mare, Being a Translation of the Tokaido Volumes of* Hizakurige. Tokyo and Rutland: Charles E. Tuttle Co., 1960, 1988.

Imamura, Anne E. *Urban Japanese Housewives: At Home and in the Community.* Honolulu: University of Hawaii Press, 1987.

Irokawa, Daikichi. *The Age of Hirohito: In Search of Modern Japan.* New York: Free Press, 1995.

Ishihara, Shintaro. *The Japan That Can Say No: Why Japan Will Be First Among Equals.* New York: Simon and Schuster, 1989, 1991.

Isozaki, Arata. *The Island Nation Aesthetic.* London: Academy Editions, 1996.

Ivy, Marilyn. *Discourses of the Vanishing: Modernity, Phantasm, Japan.* Chicago and London: University of Chicago Press, 1995.

Iwakuni, Tetsundo. *Izumakara no Chosen (Challenge from Izumo).* Tokyo: Nihon Hosso Shuppan Kyokai, 1991.

———, and Morihiro Hosokawa. *Hina no Ronri (The Logic of the Countryside).* Tokyo: Kobunsha, 1991.

Iwao, Sumiko. *The Japanese Woman: Traditional Image and Changing Reality.* New York: Free Press, 1993.

Jameson, Frederic. *Postmodernism: or, The Cultural Logic of Late Capitalism.* Durham: Duke University Press, 1991, 1995.

Jansen, Marius B., ed. *Changing Japanese Attitudes Toward Modernization.* Rutland and Tokyo: Charles E. Tuttle, 1982, 1985.

Keene, Donald. *Dawn to the West: Japanese Literature in the Modern Era.* 2 vols. New York: Henry Holt and Co., 1984.

———. *Japanese Literature: An Introduction for Western Readers.* Tokyo and Rutland: Charles E. Tuttle, 1955, 1987.

———. *Seeds in the Heart: Japanese Literature from Earliest Times to the Late Sixteenth Century.* New York: Henry Holt & Co., 1993.

———. *Some Japanese Portraits.* Tokyo and New York: Kodansha International, 1978, 1983.

———. *The Pleasures of Japanese Literature.* New York: Columbia University Press, 1988.

Kennedy, Paul. *The Rise and Fall of the Great Powers: Economic Change and Military Conflict from 1500 to 2000.* New York: Vintage Books, 1987.

Kersten, Rikki. *Democracy in Postwar Japan: Maruyama Masao and the Search for Autonomy.* London and New York: Routledge, 1996.

Kido, Takayoshi. *The Diary of Kido Takayoshi.* 3 vols. Tokyo: University of Tokyo Press, 1983.

King, Winston L. *Zen and the Way of the Sword: Arming the Samurai Psyche.* New York and Oxford: Oxford University Press, 1993.

Kishimoto, Koichi. *Politics in Modern Japan: Development and Organization.* 3d ed. Tokyo: Japan Echo, 1988.

Kitamura, Hiroshi. *Choices for the Japanese Economy.* London: Royal Institute for International Affairs, 1976.

Koiso, Akio. *Fujiginko Koin no Kiroku (Record of a Fuji Bank Man).* Tokyo: Banseisha, 1991.

———. *Ginko wa do natte iru no ka (What Happened to the Banks?).* Tokyo: Banseisha, 1991.

Komiya, Ryutaro, Masahiro Okuno, and Kotaro Suzumura, eds. *Industrial Policy of Japan.* Tokyo, San Diego, and New York: Academic Press, 1988.

Koschmann, J. Victor, ed. *Authority and the Individual in Japan: Citizen Protest in Historical Perspective.* Tokyo: University of Tokyo Press, 1978.

———. *Revolution and Subjectivity in Postwar Japan.* Chicago: University of Chicago Press, 1996.

———. "The Debate on Subjectivity in Postwar Japan: Foundations of Modernism as a Political Critique." *Pacific Affairs* 54, no. 4 (Winter 1981).

Koschmann, J. Victor, Tetsuo Najita, eds. *Conflict in Modern Japanese History: The Neglected Tradition.* Princeton: Princeton University Press, 1982.

Kristeva, Julia. *Nations Without Nationalism.* New York: Columbia University Press, 1993.

———. *Strangers to Ourselves.* New York: Columbia University Press, 1991.

Kurokawa, Kisho. *From Metabolism to Symbiosis.* London: Academy Editions; New York: St. Martin's Press, 1992.

——— *Intercultural Architecture: The Philosophy of Symbiosis.* London: Academy Editions, 1991.

——— ———. *New Wave Japanese Architecture.* London: Academy Editions; Berlin: Ernst & Sohn, 1993.

———. *Recent Works: 1987–1992.* Tokyo: 1993.

———. *Rediscovering Japanese Space.* New York and Tokyo: Weatherhill, 1988.

Matthews, Masayuki Hamabata. *Crested Kimono: Power and Love in the Japanese Family.* Ithaca and London: Cornell University Press, 1990.

McCormack, Gavan, and Yoshio Sugimoto, eds. *Democracy in Contemporary Japan.* Armonk and London: M. E. Sharpe, *1986.*

———. *The Emptiness of Japanese Affluence.* Armonk and London: M. E. Sharpe, 1996.

McCune, Shannon. *The Ryukyu Islands.* Newton Abbott: David & Charles; Harrisburg: Stackpole Books, 1975.

McKinstry, John A., and Asako Nakajima McKinstry. *Jinsei Annai, "Life's Guide": Glimpses of Japan Through a Popular Advice Column.* Armonk and London: M. E. Sharpe, 1991.

McNeil, Frank. *Democracy in Japan: The Emerging Global Concern.* New York: Crown Publishers, 1994.

Mill, J. S. *On Liberty.* Indianapolis and New York: Bobbs-Merrill, *1859, 1956.*

Miller, Henry. *Reflections on the Death of Mishima.* Santa Barbara: Capra Press, *1972.*

Mills, C. Wright. *The Power Elite.* Oxford and New York: Oxford University Press, 1956.

———. *The Sociological Imagination.* Oxford and New York: Oxford University Press, 1959, 1967.

Milton, John. *English Prose Works.* 2 vols. Boston: Bowles and Dearborn, *1826.*

Mishima, Yukio. *Confessions of a Mask.* New York: New Directions, *1958.*

———. *Death in Midsummer and Other Stories.* New York: New Directions, 1966.

———. *The Sailor Who Fell from Grace to the Sea.* Tokyo and Rutland: Charles E. Tuttle, 1965, 1986.

———. *The Sound of Waves.* Tokyo and Rutland: Charles E. Tuttle, 1956, 1988.

———. *The Temple of the Golden Pavilion.* Tokyo and Rutland: Charles E. Tuttle, *1959, 1989.*

Mita, Munesuke. *Social Psychology of Modern Japan.* London and New York: Kegan Paul International, 1992.

Mitsui, Mariko. *Majonna Majoriti Sengen (Witches' Majority Statement).* Tokyo: Metamoru Shuppan, 1989.

———. *Mitwataseba Arra Otoko Bakari (If You Look Around There Are So Many Guys).* Tokyo: Nihonjistugyo Shuppansha, 1988.

———. *Momoiro no Kenryoku (Pink Power).* Tokyo: Sanseido, 1992.

———. *Ochakumi no Seijigaku Jiko Inkai Ochakumi no Seijigaku (The Political Study of Tea Serving).* Tokyo: Peace-Neto Kikaku, 1992.

Miyoshi, Masao, *Accomplices of Silence: The Modern Japanese Novel.* Ann Arbor: Center for Japanese Studies, University of Michigan, 1974, 1994.

Miyoshi, Masao, and H. D. Harootunian, eds. *Japan in the World.* Durham and London: Duke University Press, 1993.

———, eds. *Postmodernism in Japan.* Durham and London: Duke University Press, 1989.

Mori, Ogai. *The Wild Goose.* Ann Arbor: Center for Japanese Studies, University of Michigan, 1995.

Morishima, Michio. *Why Has Japan 'Succeeded'?: Western Technology and the Japanese Ethos.* Cambridge: Cambridge University Press, 1982, 1986.

Pons, Philippe. *D'Edo à Tokyo, mémoires et modernités.* Paris: INALCO, Editions Gallimard, 1988.

Samuels, Richard J. *The Politics of Regional Policy in Japan: Localities Incorporated?* Princeton: Princeton University Press, 1983.

Sansom, George B. *A History of Japan*. 3 vols. Tokyo and Rutland: Charles E. Tuttle, 1963, 1990.

———. *Japan: A Short Cultural History*. London: Cresset Library, Century Hutchinson, 1931, 1987.

Sasaki, Kuniichi. *Kokuhatsu Sumitomo Seimei (The Case Against Sumitomo Life)*. Tokyo: Yell Books, 1992.

Saso, Mary. *Women in the Japanese Workplace*. London: Hilary Shipman, 1990.

Sato, Ikuya. *Kamikaze Biker: Parody and Anomy in Affluent Japan*. Chicago and London: University of Chicago Press, 1991.

Sato, Seizaburo, Ken'ichi Koyama, and Shunpei Kumon. *Postwar Politician: The Life of Former Prime Minister Masayoshi Ohira*. Tokyo and New York: Kodansha International, 1990.

Sato, Tadao. *Currents in Japanese Cinema*. Tokyo and New York: Kodansha International, 1982, 1987.

Saul, John Ralston. *The Unconscious Civilization*. New York: Free Press, 1995, 1997.

Sawada, Yoshihiro. *Sagawa Kyubin o Naibu Kokuhatsu Suru (Inside the Prosecution of Sagawa Kyubin)*. Tokyo: Appuru Shuppansha, 1989.

Scalapino, Robert A. *Democracy and the Party Movement in Prewar Japan: The Failure of the First Attempt*. Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1953.

Schmitter, Philippe C. "Still the Century of Corporatism?" *Review of Politics* 36, no. 1 (1974).

Schonberger, Howard B. *Aftermath of War: Americans and the Remaking of Japan, 1945–1952*. Kent, Ohio, and London: Kent State University Press, 1989.

Scott-Stokes, Henry. *The Life and Death of Yukio Mishima*. New York: Farrar, Straus and Giroux, 1974.

Seidensticker, Edward. *Low City, High City: Tokyo from Edo to the Earthquake, 1867–1923*. Hammondsworth: Penguin Books, 1983.

———. *Tokyo Rising: The City Since the Great Earthquake*. New York: Alfred A. Knopf, 1990.

Sennett, Richard. *The Fall of Public Man*. New York: Alfred A. Knopf, 1977.

Severns, Karen. *Hirohito*. New York: Chelsea House Publishers, 1988.

Shields, James J., Jr., ed. *Japanese Schooling: Patterns of Socialization, Equality and Political Control*. University Park and London: Pennsylvania State University Press, 1989.

Shikata, Hiroshi. *Kemmuri o Hoshi ni Kaeta Machi (The Town that Changed Smoke into Stardust)*. Tokyo: Kodansha, 1991.

Shimada, Haruo. *Japan's "Guest Workers": Issues and Public Policies*. Tokyo: University of Tokyo Press, 1994.

Shimizu, Yoshiaki. *Japan: The Shaping of Daimyo Culture, 1185–1868*. Washington, D.C.: National Gallery of Art, 1988.

Shively, Donald H., ed. *Tradition and Modernization in Japanese Culture*. Princeton: Princeton University Press, 1971, 1976.

Singer, Kurt. *Mirror, Sword and Jewel: The Geometry of Japanese Life*. Tokyo and New York: Kodansha International, 1973, 1990.

المؤلف في سطور

* باتريك سميث
* عمل أكثر من عشرين عاما محررا ومراسلا صحافيا، أربعة عشر منها في آسيا، مع صحف النيويورك تايمز، وفاينانشيال تايمز (لندن)، وإنترناشيونال هيرالد تريبيون، ونيويوركر، وغيرها.
* من مؤلفاته:

The Nippon Challenge: Japan's Persuit of the America's Cup.

المترجم في سطور

* سعد زهران
* خريج جامعة القاهرة ١٩٤٧.
* عمل بالتدريس والصحافة، وسكرتيرا لتحرير «الطليعة» في أواسط الستينيات.
* اشتغل بالتدريس في معهد العلوم السياسية والإعلامية بجامعة الجزائر في الفترة من ١٩٦٨ ـ ١٩٨٤.
* له مؤلفات من بينها: «في أصول السياسة المصرية»، «الحرب الأيديولوجية وسقوط الشيوعية السوفييتية»، ومسرحية: «المثقفون أو آخر الأجيال المتفائلة».

نهاية اليوتوبيا

السياسة والثقافة في زمن اللامبالاة

تأليف: **راسل جاكوبي**

ترجمة: **فاروق عبدالقادر**

سلسلة عالَم المعرفة

«عالم المعرفة» سلسلة كتب ثقافية تصدر في مطلع كل شهر ميلادي عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ دولة الكويت ـ وقد صدر العدد الأول منها في شهر يناير العام ١٩٧٨.

تهدف هذه السلسلة إلى تزويد القارئ بمادة جيدة من الثقافة تغطي جميع فروع المعرفة، وكذلك ربطه بأحدث التيارات الفكرية والثقافية المعاصرة. ومن الموضوعات التي تعالجها تأليفا وترجمة :

١ ـ الدراسات الإنسانية : تاريخ ـ فلسفة ـ أدب الرحلات ـ الدراسات الحضارية ـ تاريخ الأفكار.

٢ ـ العلوم الاجتماعية: اجتماع ـ اقتصاد ـ سياسة ـ علم نفس ـ جغرافيا ـ تخطيط ـ دراسات استراتيجية ـ مستقبليات.

٣ ـ الدراسات الأدبية واللغوية : الأدب العربي ـ الآداب العالمية ـ علم اللغة.

٤ ـ الدراسات الفنية : علم الجمال وفلسفة الفن ـ المسرح ـ الموسيقا ـ الفنون التشكيلية والفنون الشعبية.

٥ ـ الدراسات العلمية : تاريخ العلم وفلسفته ، تبسيط العلوم الطبيعية (فيزياء، كيمياء، علم الحياة، فلك) ـ الرياضيات التطبيقية (مع الاهتمام بالجوانب الإنسانية لهذه العلوم)، والدراسات التكنولوجية.

أما بالنسبة لنشر الأعمال الإبداعية ـ المترجمة أو المؤلفة ـ من شعر وقصة ومسرحية، وكذلك الأعمال المتعلقة بشخصية واحدة بعينها فهذا أمر غير وارد في الوقت الحالي.

قسيمة اشتراك

البيـــــان	سلسلة عالم المعرفة		مجلة الثقافة العالمية		مجلة عالم الفكر		إبداعات عالمية	
	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار
المؤسسات داخل الكويت	٢٥	-	١٢	-	١٢	-	٢٠	-
الأفراد داخل الكويت	١٥	-	٦	-	٦		١٠	-
المؤسسات في دول الخليج العربي	٣٠	-	١٦	-	١٦	-	٢٤	
الأفراد في دول الخليج العربي	١٧	-	٨	-	٨	-	١٢	
المؤسسات في الدول العربية الأخرى	-	٥٠	-	٣٠	-	٢٠	-	٥٠
الأفراد في الدول العربية الأخرى	-	٢٥	-	١٥	-	١٠	-	٢٥
المؤسسات خارج الوطن العربي	-	١٠٠	-	٥٠	-	٤٠	-	١٠٠
الأفراد خارج الوطن العربي	-	٥٠	-	٢٥	-	٢٠	-	٥٠

الرجاء ملء البيانات في حالة رغبتكم في: تسجيل اشتراك ☐ تجديد اشتراك ☐

الاسم:	
العنوان:	
اسم المطبوعة:	مدة الاشتراك:
المبلغ المرسل:	نقدا / شيك رقم:
التوقيع:	التاريخ: / / ٢٠٠١م

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب مع مراعاة سداد عمولة البنك المحول عليه المبلغ في الكويت.

وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص. ب: ٢٨٦٢٣ ـ الصفاة ـ الرمز البريدي 13147

دولة الكويت